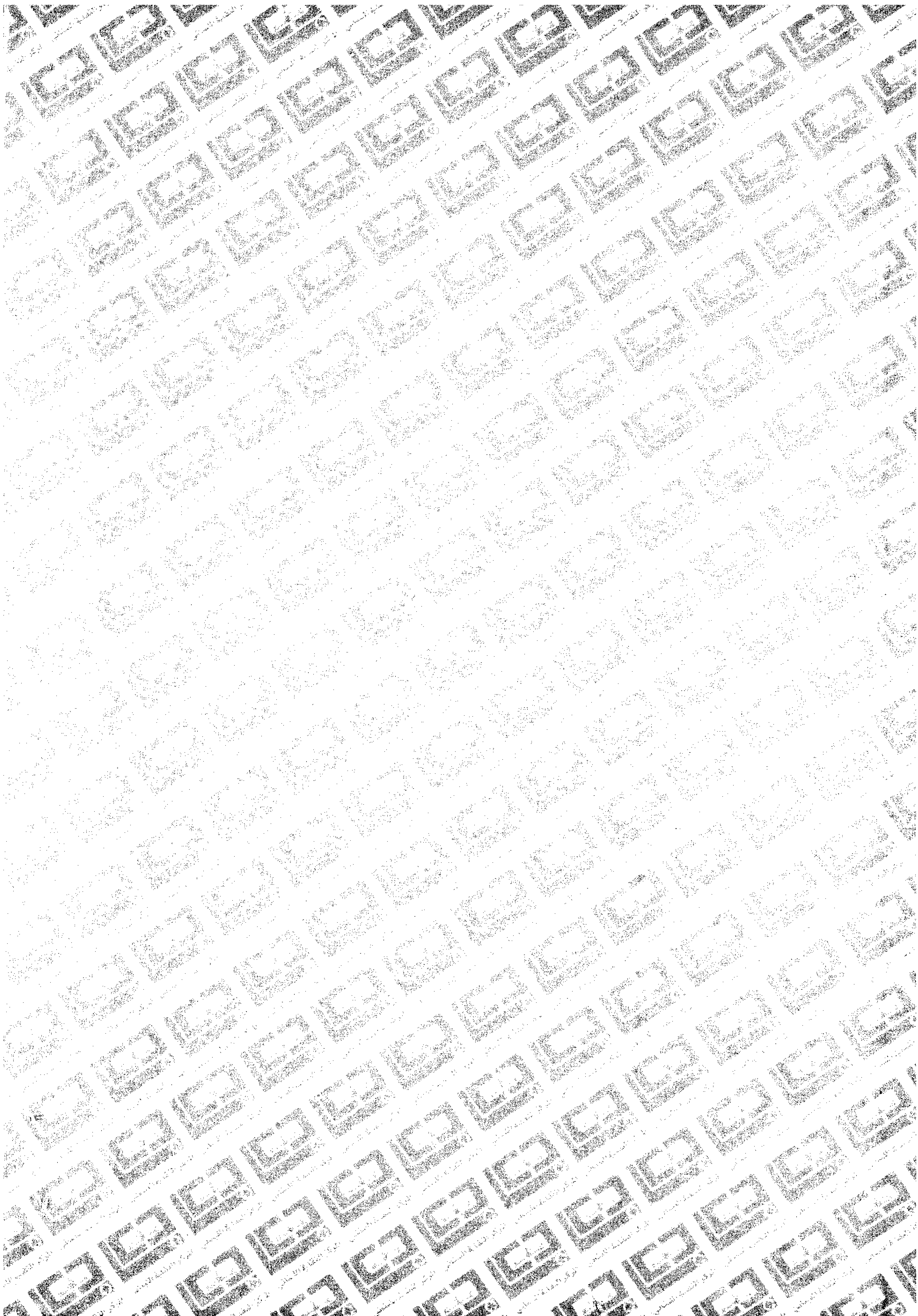
قضية الزنوج الأميركيين والتميز العنصري

د. صالح زهر الدين

موسوعة الامبراطورية الاميركية



المركز الثقافي اللبناني





الدكتور صالح زهر الدين

قضية الزنوج الأميركيين
والتمييز العنصري

المركز الثقافي اللبناني

DL

الطبعة الأولى

1424 هـ 2004 م

المركز الثقافي اللبناني

للطباعة والنشر والترجمة والتوزيع

Lebanese Cultural Center

For Printing, Publishing, Translation & Distribution

الإدارة العامة:

بيروت - الحدث، هاتف: ٤٦١٨٨٨ - ٥ - ٩٦١

فاكس: ٤٦١٧٧٧ - ٥ - ٩٦١ - خليوي: ٧٥٣٦٦٣ - ٣ - ٩٦١

Web site: www.lccpublishers.tk

General Management:

Beirut - Hadath, Tel: 961-5-461888

Fax: 961-5-461777, Mobile: 961-3-753663

E-mail: lcc_ pub @ yahoo.com

مقدّمة

قلّما عرف التاريخ شعباً من شعوبه عاش مرارة التمييز العنصري مثلما عرفه الزنوج - وفي الولايات المتحدة الأميركية على وجه الخصوص -. وقلّما عرف شعبٌ في العالم عبوديّة قاسية، ورقيقاً معذّباً، مثلما عرفها الزنوج الأرقّاء على أيدي المستعمرين البيض في القارة الأميركية.

• فهل قَدَرُ الزنوج أن يُغْرَقوا في بحارٍ من الدم والعنصرية نتيجة للونهم الأسود؟

• ومتى كان اللون جريمة يعاقب عليها قانون بني البشر؟

• أليس بغير الأسلوب العبودي التمييزي ضد الزنوج تتكرّس إنسانية الأميركيين البيض؟

• ومتى كانت الإنسانية تستثني لوناً من ألوان آدمييّها لتُحْكَم عليه؛ بالموت لخروجه عن إنسانيتها؟

• وما الجريمة التي ارتكبها الإنسان الزنجي إذا ولد أسوداً بغير إرادته؟

• أليس من حقّ هذا الإنسان أن يلعن الاكتشافات وأربابها الذين أوصلوه إلى نار المأساة - كالفحم الذي تدفىء ناره أصحابها -؟

• فهل كانت العبودية والعنصرية عقاباً أميركياً للإنسان الأسود لأنه «سرق» من الفحم سواد لونه؟

أسئلة كثيرة تكمن فيها هذه المسألة، تعبّر عن عمق المعاناة الإنسانية المنحورة باسم الإنسانية ذاتها.

وإذا كان لا بد من إعطاء صورة واضحة عن قضية الزنوج في أميركا منذ ساعة اقتلاعهم من جذورهم نحو القارة الجديدة، وما لاقوه من معاملة وحشية، صيّرتهم أرقاماً متزايدة لكائنات تنتمي «شكلاً» لبني الإنسان، فإننا نرى ما يلي:

• الزنوج أناس كغيرهم من البشر في كل أنحاء العالم. خصّهم اللّهُ عزّ وجلّ باللون الأسود، كما خصّ غيرهم من باقي الأجناس بالألوان الأخرى... والقاسمُ المشتركُ بينهم هو «الإنسانية»...

• أما «الزنوجة» فهي مصطلح سياسي استخدمه وروّج له الرئيس السنغالي ليوبولد سنغور... وكان الشاعر «إيميه سيزير» أول من أطلق هذه الكلمة وعرّفها بالشكل التالي: «الزنوجة هي مجرد الإعتراف بواقع أننا سود وهي القبول بهذا الواقع وبقَدَرنا كسود والقبول بتاريخنا وثقافتنا»... والزنوجة المناضلة، يقول سنغور، تقوم على استيعاب الماضي، وإحيائه، وعصرنته وإخصابه عند الحاجة، بالتأثيرات الأجنبيّة بحيث يشارك الزنوج في بناء الحضارة العالمية... أما الزعيم «كوامي نكروما» فقد استخدم تعبير «الشخصية الأفريقية»...

• إن أول شحنة من الرقيق نزلت على شواطىء ما أصبح بعد ذلك ـ الولايات المتحدة الأميركية ـ كان عام 1619 حين رست سفينة هولندية على شاطىء فيرجينيا، وباعت حمولتها عبيداً أرقّاء من النساء والرجال... ثم توالت بعد ذلك شحنات الرقيق، لكن ذلك لا يعني

أن بعض الأفريقيين لم يشاهدوا أميركا الشمالية قبل هذا التاريخ كخدمٍ وأذلّاء مع بعثات وجيوشٍ فرنسية وأسبانية. . .

● وتذكر بعض المراجع «أن تجارة الرقيق الأوروبية نقلت من شواطىء أفريقيا 40 مليون نسمة في أغلال الرق». إلا أن هذا الرقم يرتفع إلى حوالي 60 مليوناً (في مراجع أخرى). . . بينما يقال أيضاً أن «أفريقيا خسرت حوالي 100 مليون نسمة تمّ نقلهم كرقيق خارجها قبل الكشوف الجغرافية وبعدها، وتمّ تصديرهم إلى جميع نواحي العالم».

● وبناء على أول إحصاء رسمي لسكان الولايات المتحدة الأميركية تمّ في عام 1790، يتبين أن عدد الزنوج كان يومها 757,208، بينما كان عدد البيض 3,172,000. أما في عام 1960 كان عدد الزنوج 18,871,831، بينما أصبح عدد البيض 158,831,732.

● هذا وإن تجارة الرقيق عزلت الزنوج عزلاً جذرياً عن ينابيع حياتهم الثقافية والاجتماعية والإنسانية، حيث أدّى هذا العزل إلى تحطيم كامل لكيانهم وشخصياتهم، كما إلى نقصان دائم في عددهم من جراء «عمليات الإنتقال» من أفريقيا إلى أميركا دون أي مراعاة للجانب الإنساني مطلقاً، ومعناها «موت جديد».

● إن «رحلات الآلام والعذاب» هذه، كانت تحمل معها، إضافة إلى سلخ الإنسان الزنجي عن أرضه ومجتمعه، إلغاءً لإسمه ونسبه وشخصيته وديانته ولغته وثقافته وعاداته وتقاليده. . .

● وعلى أرض المجتمع الأمريكي أصبحت تربية الرقيق الأسود مثل تربية المواشي والدواجن، وأصبحت أميركا «مصنعاً» لإنتاج

الدونيّة والحقارة والإنحطاط... خصوصاً عندما اقترن الرقُّ بالجنس واللون الأسود، بينما اقترنت «السيادةُ» بالجنس واللون الأبيض - بالمنظار الأمريكي -.

• وبالرغم من مساهمة الزنوج في معركة الاستقلال الأمريكية، فالتاريخ يثبت أن الزنجي «كريسبوس أتيكوس» لقي حتفه على أيدي الجنود البريطانيين في بوسطن الشهيرة في 5 آذار 1770. كما شارك الزنوج في التجنيد للقتال ضد البريطانيين، لكن صدمتهم كانت كبيرة بعد صياغة الدستور الأمريكي ولم يحتوِ على أي إشارة لكلمة «نجرو» أو «رقيق» وكأن المجتمع الأمريكي لا يعرف هذه الكلمة... وفشلت كل الجهود الرامية إلى إلغاء الرقيق في الدستور... وهذا ما ولّد فيما بعد نشاطاتٍ وحركاتٍ داعيةً إلى إلغاء الرق في الولايات المتحدة.

• كما ظهرت طبقة الخلاسين (الأولاد الذين ولدوا من أبوين أبيض وأسود)، متحررين من الرق، لكنهم لم يتحرروا من القيود والموانع التي بقيت سارية عليهم ومنها:

عدم المساواة بينهم وبين البيض - عدم توظيفهم في وظائف عامة - عدم قبول شهادتهم أمام المحاكم - عدم السماح لهم بحمل السلاح - عدم السماح لهم بشراء الخمور - عدم جواز حقهم في التصويت - تقييد حركة تنقلاتهم، إلخ...

• وباختصار، لقد زرع «الأسياد» الأميركيون البيض في نفوس الزنوج «بذرة الاستسلام» بهدف "تأبيد" السيطرة عليهم، فنبتت فيهم ضياعاً ويأساً، ولكنهم وجدوا نوعاً من العزاء في قانون تحرير الرقيق الذي أعلنه الرئيس أبراهام لنكولن في أول كانون الثاني 1863، وكان سبباً في اغتياله عام 1865 - على ما يبدو -.

والواقع، أن سياسة الرق والتمييز العنصري التي انتهجها «الأسياد» الأميركيون البيض ضد الزنوج على مختلف الصعد والمستويات، خلقت «أحياء غيتوية سوداء»، كما أسست لحركات ومنظمات زنجية وتحركات سلمية وثورات هزّت المجتمع الأميركي بأكمله.

● إحترف «الأسياد» الأميركيون سياسة التمييز العنصري بامتياز مع الإنسان الزنجي. وأضفوا على هذه السياسة طابعاً قانونياً، هو من اختراعهم لتبريرها فحلّلوا المحرّمات وحرّموا المحلّلات.

● تجلّت هذه السياسة بالفوارق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والإنسانية كما يلي:

- فروقات في العمل والوظائف.

- فروقات في الأجور، وبزيادة 60% إلى 90% للأبيض عن الأسود.

- فروقات في البطالة بمعدل 3 أضعاف عن البيض.

- فروقات وتمييز في الشؤون الثقافية.

- تفرقة في السكن: أفضل مناطق السكن للبيض وأسوأ المناطق للسود.

مع العلم أن 40% من سكان مدن أمريكية كبرى هم من الزنوج، حيث يتوزعون في أحياء خاصة بهم «غيتوات سوداء» مزدحمة وموبوءة بمختلف الأمراض، والتي تشكو الفقر والبطالة، فأصبحت المسرح الرئيسي لما أطلق عليه بـ«الفتن العنصرية»!!!

ويتوضح توزيع الزنوج في بعض المدن الأميركية على الشكل التالي:

في نيويورك	2 مليون نسمة		هذا مع العلم أن عدد الزنوج في الولايات المتحدة يبلغ اليوم أكثر من 22 مليون نسمة.
في شيكاغو	1 مليون نسمة		
في فيلادلفيا	$\frac{1}{2}$ مليون نسمة		
في ديترويت	$\frac{1}{2}$ مليون نسمة		
في لوس أنجلوس	$\frac{1}{2}$ مليون نسمة		
في واشنطن	71% من سكانها زنوج		

ـ فوارق في الدراسة: ترك الدراسة لدى السود ضعف البيض.

ـ فوارق في التغذية والجوع.

ـ فوارق في حالات الفقر التي تؤدي إلى عواقب وخيمة في أحيان كثيرة، كالسرقة والجريمة والقتل، إلخ. . .

● هذه السياسة العنصرية ولدت قيام حركات ومنظمات وجمعيات زنجية كثيرة تناضل ضد التمييز والتفرقة العنصرية. كما برزت شخصيات قيادية زنجية تجاوزت شهرتها حدود أميركا إلى الخارج، من بينها: الراهب «مارتن لوثر كينغ» الذي يطلق عليه اسم «غاندي أميركا»، وهو الذي قاد مسيرة «الزحف الكبير» إلى واشنطن في 28 آب 1963. . . كذلك «مالكولم إكس X» قائد حركة المسلمين السود (الذي زار مكة المكرمة وأدى فريضة الحج). . . كذلك «جيمس فارمر» وغيرهم. . .

● يذكر في هذا الإطار المحاولات الأمريكية الرسمية للتمييز بين الزنوج المسيحيين والزنوج المسلمين، وزرع بذور الخلافات والعداء بينهم لإضعافهم وصرفهم عن النضال ضد «عدوهم الأساسي». . .

• ومن أبرز التحركات الزنجية نذكر ما يلي:

- **عام 1955**: مقاطعة الباصات (بسبب رفض الزنجية روزا باركس إعطاء مكانها لرجل أبيض بأمر من السائق، فاعتقلها البوليس وحدثت اضطرابات بين الزنوج أدت إلى مقاطعة عامة للركوب في الباصات في مونتغمري... وبالرغم من القمع والاعتقالات الواسعة رضخت الإدارة فيما بعد لمطالب الزنوج وألغت قواعد التمييز بين الركاب).

- **عام 1956 - 1957**: ظهرت منظمات جماهيرية سوداء قامت بنضالات وتحركات جماعية فاعلة. (كانت أهمها أيام الرئيس أيزنهاور في مدينة «ليتل روك» بولاية أركسنساس...).

- **عام 1960**: بدأت في ولاية نورث كارولينا حملة «الجلوس إحتجاجاً في الأماكن العامة»...

- **عام 1963**: فصل زعماء الطلاب الذين يعملون ضد التفرقة العنصرية في جامعة «كاليفورنيا بركلي». تدخلت الشرطة وطردت الجامعة 76 طالباً...

- **عام 1963**: حدثت مسيرة «الزحف الكبير» (مسيرة الحرية) في 28 آب (بعد مرور مائة عام و240 يوماً على توقيع إعلان التحرر من الرق). ولقد جاء الناس من كل أنحاء أميركا، واتجهوا إلى واشنطن، وساروا حوالي ميل، ليقفوا أمام تمثال أبراهام لنكولن ليقولوا له: إن الزنوج الأمريكيين انتظروا مائة عام و240 يوماً ليحصلوا على حريتهم، ولكنهم لم يحصلوا عليها... (وأصل الفكرة من اقتراح فيليب واندولف رئيس رابطة عمال عربات النوم)... واستقبل الرئيس جون كنيدي زعماء الحركة وتبنّى مطالبهم حيث وقف إلى جانبه أيضاً أخوه روبرت أيضاً)...

ـ **عام 1964 ـ 1965**: أنشأ الطلاب «منظمة حرية التعبير والكلام» أدت إلى استقالة رئيس الجامعة د. كلارك كير ومدير الجامعة لشؤون الطلبة. . .

ـ **عام 1964**: وافق الكونغرس على قانون يمنع التمييز في العمل والثقافة.

ـ **عام 1965**: وافق الكونغرس على قانون يجيز توسيع حق الاقتراع للزنوج في الجنوب. . .

ـ **عام 1965**: انفجار الحيّ الزنجي في لوس أنجلوس هزّ الولايات المتحدة.

ـ **عام 1966**: ظهرت حركة «الفهود السود» في أوكلاند بكاليفورنيا من قبل طلاب الجامعة المحلية لمقاومة الشرطة وقمعها لهم، وأصبح لحزب «الفهود السود» 33 فرعاً في الولايات المتحدة. وقد تعرض قادته لاغتيالات طالت أكثر من 30 منهم. . .

ـ **عام 1967**: حدثت 80 «فتنة عنصرية» استخدمت فيها فرقة مظلات عسكرية أميركية لتهدئة ديترويت.

ـ **عام 1968**: في 4 نيسان إغتال عنصري أبيض يدعى «جيمس إيرل»، الراهب الثائر «مارتن لوثر كينغ» (في ممفيس تنيس)، فاشتعلت ثورة زنجية شملت 153 مدينة أميركية استمرت من 5 ـ 11 نيسان، استخدم فيها 100 ألف شرطي وزنجي، واعتقل 27 ألف شخص، وقتل 43 وجرح 3500. . .

ـ **عام 1968**: أجبرت هذه الموجة المشرّعين الأميركان على تبني قانون الحقوق المدنية الذي يلغي التمييز العنصري في البيع

والشراء، وإيجار المساكن. . .

ـ **عام 1969 ـ 1970**: شملت عمليات السود 190 مدينة، استخدمت في قمعها الدبابات وطائرات الهليكوبتر والسيارات المصفحة. . .

ـ **عام 1970**: عقد «الفهود السود» مؤتمرهم الذي حضره 6000 شخص نصفهم من البيض رفع فيه شعار (السلطة للشعب) ودعا إلى العمل المشترك من أجل إيقاف الحرب ضد شعوب الهند الصينية.

على هذا الأثر، كانت ردّة فعل البيض:

ـ إزدياد حقد البيض على السود بتحريض من السلطة.

ـ تردّي العلاقات بينهم وبين السود.

ـ تزايد عمليات القمع الوحشي ضد الزنوج.

ـ ازدياد الحناجر العنصرية في الكونغرس.

ـ ظهور الجمعية العنصرية البيضاء.

ـ والمسيرة الانتحارية للبيض. . .

ولا يزال التمييز العنصري الأمريكي ضد الزنوج حتى اليوم مستمراً ومتصاعداً. . . رغم بروز شخصيات زنجية أميركية أخيراً كـ«جيسي جاكسون» و«كولن باول» و«لويس فراخان». . . (أوفرقان) وهو زعيم أميركي أسود معادٍ لليهود، ونظم في واشنطن سنة 1995 «مسيرة المليون شخص»، كما أنه مؤيد للعرب، وزار بعض الدول العربية أيضاً. . .

إزاء هذا الوضع نتساءل: ما موقف شرعة حقوق الإنسان

العالمية، وما موقف بعض الشخصيات ذات المكانة المرموقة في عالم السياسة والثقافة إزاء مآسي الزنوج وعذاباتهم التي تتجاوزهم إلى البشرية جمعاء؟

• جاء في **مقدمة** «الإعلان العالمي لحقوق الإنسان» ما يلي:

«لما كان الاعتراف بالكرامة المتأصلة في جميع أعضاء الأسرة البشرية وبحقوقهم المتساوية الثابتة هو أساس الحرية والعدالة والسلام في العالم...».

• نصت **المادة الأولى** على أنه «يولد جميع الناس أحراراً متساوين في الكرامة والحقوق وقد وهبوا عقلاً وضميراً وعليهم أن يعامل بعضهم بعضاً بروح الإخاء».

• **المادة الثانية**: لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة في هذا الإعلان، دون أي تمييز، كالتمييز بسبب العنصر أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو أي رأي آخر، أو الأصل الوطني أو الاجتماعي أو الثروة أو الميلاد أو أي وضع آخر، دون أية تفرقة بين الرجال والنساء...

• **المادة الثالثة**: لكل فرد الحق في الحياة والحرية وسلامة شخصيته.

• **المادة الرابعة**: لا يعرض أي إنسان للتعذيب وللعقوبات أو المعاملات القاسية أو الوحشية أو الحاطّة بالكرامة...

* أين سياسة التمييز العنصري الأميركية من هذه المبادىء؟

• ولعل شهادات بعض الكتّاب والمفكرين توضح الصورة على حقيقتها:

• قال وزير خارجية بريطانيا «لورد جون رسل»، إثر إعلان الرئيس إبراهام لنكولن عن تحرير العبيد، في رسالة استهزاء بعثها إلى وزيره المفوض بواشنطن: «إنه إجراء مشكوك في تحقيقه إلى مدى بعيد، وعمل من أعمال الانتقام الموجّهة ضد أصحاب العبيد. . .».

• أما «ستانلي ألكينز» فقد قال (في كتابه عن الرق) «إن النجرو الأمريكي خضع لنظام حطم طموحه، وقتل ذاتيته وشخصيّته، وانتزع ذكاءه لمدة 350 عاماً باستمرار».

• كذلك كانت شهادة وليم فوستر في كتابه «الشعب الزنجي في التاريخ الأمريكي»: «إن الطبقات الحاكمة نشرت التعالي الطبقي وغذّت وزرعت الروح العنصرية لمدة طويلة بحيث أنها أثرت على لغتنا الوطنية وعلى عاداتنا وعلى تقاليدنا وابتلت أجزاء كبيرة من الطبقة العاملة بفيض من القذارات الثقافية التي انصبّت عليها. فالشوفينية البيضاء نتجت عن الخوف من فقدان المهنة وهو الخوف الذي أدى إلى عدم السماح للسود بالقيام بالأعمال الماهرة وبالإنضمام للنقابات».

• أما المؤرخ والفيلسوف البريطاني «أرنولد توينبي» فقد ذكر أن «الفتن العنصرية في الولايات المتحدة ما هي إلا نتيجة للامساواة الاجتماعية، وما محاولة إخفاء طابع الصراع العرقي على انتفاضات السود لا يعني إلا تشويه حقيقتها وتغطية جذورها الطبقية الممتدة داخل الحياة الاقتصادية والسياسية في الولايات المتحدة، وقد سهّلت بعض الأحداث السياسية الدولية تطوير وتقدم حركة السود، ومن هذه الأحداث الصراع التحرري لشعوب آسيا وأفريقيا وانهيار النظام الكولونيالي وحصول عدد كبير من دول القارة الأفريقية على

الاستقلال، فقد حصلت معظم الدول الأفريقية والآسيوية على الاستقلال واحتل ممثلوها مقاعدهم في الأمم المتحدة ودخلوا «البيت الأبيض» زواراً للرئيس الأمريكي، كذلك انتصرت الثورة الكوبية وحلّت القضية العنصرية، مما أدى إلى التهاب مشاعر الملوّنين في الولايات المتحدة، وفي نفس الوقت عرفوا أن تحركهم وحده سيجلب لهم النجاح».

• وعلى هذا الأساس، قال الثائر الزنجي المسلم «مالكولم إكس» (Malcolm X): لقد تعلمت باكراً أن الحق لا يعطى لمن يسكت عنه، وأن على المرء أن يحدث بعض الضجيج إن أراد أن يحصل على شيء...

• وانطلاقاً من إنسانية «قضية الزنوج» في أميركا، فإن الكثيرين من زعماء العرب الوطنيين والقادة التقدميين، من أمثال جمال عبد الناصر وأحمد بن بلّلا وكمال جنبلاط وغيرهم، وقفوا إلى جانب هذه القضية وساندوها، باعتبار أن الإنسانية، كالحرية، واحدة لا تتجزأ... وكما قال جنبلاط أن «الحضارة الخارجية ليست بحضارة. لا ينفع الإنسان أن يكون متمدّناً متحضراً في خارجه، بل عليه أن يكون متحضراً متمدناً في داخله».

وقبل أن نتطرق إلى شهادات وآراء لكتّاب وباحثين وسياسيين في هذا الموضوع، والتي تعتبر دليلاً ساطعاً على المعاناة الزنجية بتفاصيلها الدقيقة ـ وكل باحثٍ من موقعه وانتمائه وفكره ـ والتي تشكل بمجموعها مرجعاً شاملاً لم يصدر مثله من قبل بهذا الكمّ من العناوين والموضوعات، وبهذه النوعية من المعلومات، نخلص إلى القول أن قضية الزنوج الأميركيين، كانت ولا تزال، قضية «إنسانية»

تستحق كل اهتمام في هذا العصر الذي وصل فيه اللون الزنجيّ الأسود إلى أن يخجل من «سوداوية العنصرية الأميركية». . .

وإذا كانت الإبادة تفرز إبادة جديدة، فلا يجوز أن يتحوّل الزنوج إلى «هنود سود» أمام آلة الموت الأميركية بعد إبادة الهنود الحمر. . . كما لا يجوز أيضاً لـ«السادة» الأميركيين أن يسلخوا الإنسانية من الإنسان، وأن يسلخوا الإنسان من إنسانيته تكريساً لـ«سيادتهم». . . ذلك لأن «الاستبداد جرثومة كل فساد» (كما يقول عبد الرحمن الكواكبي).

وإذا كانت أميركا قادرة على محو مدينة، وإبادة شعب، فإنها عاجزة عن محو شعوب العالم من خارطة العالم، وعن محو كراهية العالم لأميركا العنصرية. . . كما أنها عاجزة أيضاً عن قتل «الحرية» في أرواح الشرفاء والمؤمنين بإنسانية الإنسان وكرامته الآدمية. . . وتحديداً في أرواح السود الأميركيين الذين لم ينسوا ـ ولن ينسوا ـ رموزهم المناضلة في سبيل حقوقهم وحريتهم، ومن بينهم بالطبع مارتن لوثر كينغ ـ كرمز ونموذج ـ.

مقالات وشهادات
ووثائق

تاريخ الزنوج في أميركا(*)

يدلُّ الإجماع بين الدارسين على أن أول شحنة من الرقيق نزلت على شواطىء ما أصبح بعد ذلك ـ الولايات المتحدة الأميركية ـ كان عام 1619، حين رست سفينة هولندية على شاطىء **فيرجينيا**، وباعت عشرين عبداً من النساء والرجال.

ثم توالت بعد ذلك شحنات الرقيق، ومع ذلك، فقد أثبتت هذه الدراسات أن عدداً من الإفريقيين شاهد **أميركا** الشمالية قبل هذا التاريخ، فقد حضر عدد منهم مع بعثات وجيوش فرنسية وإسبانية، وكانوا يعملون خدماً وأدلاء، ومرجع هذا أن أوروبا عرفت تجارة الرقيق الإفريقي من عام 1441، وفي قول آخر قبل عام 1441، ميلادية.

والأرقام تعطينا صورة لنمو أعداد الزنوج في عهد مشروعية الرقيق وما بعد إلغائه كالآتي:

(*) **المرجع**: د. عبد الملك عودة «ثورة الزنوج في أمريكا». كتاب الهلال. مصر 1965. وأيضاً: كتاب «الولايات المتحدة الأميركية من الخيمة إلى الامبراطورية» إعداد ديب علي حسن. مراجعة وتدقيق إسماعيل الكردي. دار الأوائل. دمشق. الطبعة الأولى 2002. ص 30 ـ 56.

السنة	عدد الزنوج	عدد البيض
1790	757,208	3,172,000
1800	1,002,237	4,306,446
1830	3,328,624	10,537,378
1850	3,638,808	19,335,068
1860	4,441,830	26,922,236
1900	8,833,994	66,809,196
1920	10,463,131	94,120,374
1950	15,042,286	134,942,028
1960	18,871,831	158,831,732

ونلاحظ على هذه الإحصاءات أنها تبدأ من عام 1790، وهو العام الذي تم فيه أول إحصاء رسمي لسكان الولايات المتحدة الأميركية.

والعينة الرقمية تدلنا على أن النسبة المئوية للزنوج في عام 1790، كانت 19,3% من مجموع السكان، وأنها انخفضت عام 1860، إلى 11,4% وتوالى انخفاضها عام 1960، إلى 10% من المجموع الكلي للسكان الذي يبيّنه الإحصاء المشار إليه مضافاً إليه 1,619,612 نسمة يسميهم الإحصاء (آخرون) غير **النجرو** والبيض، وإذا كنا نعرف أن نسب المواليد بين **النجرو** أكثر ارتفاعاً من مثيلاتها بين البيض، فيكون سبب تزايد أعداد البيض هو قوانين الهجرة التي تفتح أبواب **أميركا** للشعوب الأوروبية، وتكاد تقفلها أمام الزنوج والملونين.

وهناك ملاحظة أخيرة: هي أن إحصاء عام 1790، يُسجل عدد الزنوج بحوالي ثلاثة أرباع المليون، فيجب أن نعرف أن هذه هي أعداد الأحياء منهم الذين تحمّلوا أنواع الوحشية والتعذيب والاستغلال، ولم يموتوا.

ودليلنا على هذا أن **لويس هاريس** وزميله في كتابهما «**ثورة النجرو في أميركا**» يقولان: إن تجارة الرقيق الأوروبية نقلت من شواطىء إفريقيا 40 مليون نسمة في أغلال الرق.

ويقول مؤلف كتاب «**الرأسمالية والرق**»: إن الرقم يرتفع إلى حوالي 60 مليوناً.

بينما يرى **الدكتور بوسيا**: أن إفريقيا خسرت حوالي 100 مليون نسمة تم نقلهم كرقيق خارجها قبل الكشوف الجغرافية وبعدها، وتم تصديرهم إلى جميع نواحي العالم.

والدراسات الخاصة بمشكلة الزنوج الأمريكيين ترى أن جذور المشكلة العويصة إنما تمتد إلى هذه الفترة، وفي هذا يقول الأستاذ **ستانلي ألكينز** في مؤلفه عن الرق كمشكلة في التنظيم والحياة الأمريكية من أنه توجد نقاط تماثل بين معسكرات الاعتقال النازية وآثارها العميقة في تغيير شخصيات المعتقلين الذين أُفرج عنهم منها بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وبين الطرق والأوضاع التي أكلت شخصية الزنجي القادم من إفريقيا، وخلقت بدلاً منها شخصية **النجرو** الموجودة في الولايات المتحدة والمولود على أرضها.

ويقول: إنه في الإطار العام تتماثل التجربتان في أن الفرد الأسود الأمريكي صار طفلاً مهما تقدم به السن، ويعيش عالة على المبادءة من الفرد الأبيض في العمل والحياة والعيش والتنظيم والقيادة

والتوجيه، إنه في طفولته النفسية والعقلية ونضوجه في العمر والبناء الجسدي يشبه الذين خرجوا من المعتقلات النازية.

ويضيف:

الاستسلام «بذرة» زرعها تجار الرقيق (الأسياد) في نفوس الزنوج لحصاد اليأس والضياع... واستئصال الرجولة.

ولقد دعا هذا بالأستاذ **سيلبرمان** مؤلف كتاب **«أزمة الأسود والأبيض»** إلى مناقشة هذه النقطة بحثاً عن إجابة السؤال التالي:

ما الذي حوَّل هذا الإفريقي الشجاع إلى هذا العبد المستسلم الخاضع الذليل؟...

ولهذا، ناقش أوضاع إفريقيا قبل هجوم تجار الرقيق الأوروبيين، وعرض تاريخ الإسلام وتاريخ الدول والممالك غير الإسلامية أيضاً، وأثبت أن المتعلمين والشجعان والرجال والقُوَّاد والإداريين كانوا أعداداً وفيرة في هذه البلاد والمناطق، فما إن اقتنصهم تجار الرقيق، وحملوهم على السفن عبر المحيط، وباعوهم في جزر **البحر الكاريبي** وسواحل الولايات المتحدة حتى اختفت شخصياتهم، وحلَّ محلها هذا النمط المعروف في التاريخ الأمريكي...

ويُجمل الأسباب فيما يلي:

1 ـ إن تجارة الرقيق قد عزلت القنيصةَ عزلاً جذرياً عن ينابيع حياته الثقافية والاجتماعية وعن التنظيمات والمؤسسات التي عاش في ظلّها، واكتسبت منها خطوط هذه الشخصية القوية على أرض القارة الإفريقية. وقد أدى هذا العزل إلى تحطيم كامل لكل أحاسيسه بالذات والكيان، أضف إلى هذا آثار وآلام الرحلة الطويلة التي قطعها من

الشاطىء الإفريقي إلى الشاطىء الأمريكي، وهناك مؤلفات عديدة تصف هذه الرحلة مثل: «**الشحنات السوداء عبر الأطلنطي**» تأليف **دانييل مانيكس** الذي يقرر أن الرحلة كانت تستغرق شهوراً طويلة على سفن شراعية، ويُكدَّس العبيد في مناطقها السفلى مكبلين بالأغلال وبدون أية رعاية غذائية أو صحية، وبدون اعتبار لحاجاتهم الإنسانية نساءً ورجالاً وأطفالاً. وفوق هذا يُضربون بالسياط، وتُكوى أجسادهم، وأحياناً إذا تذمروا، أو أثاروا جلبة، تُلقى أعداد منهم في مياه المحيط. . . إلخ، ومن هذه الحقائق يصل المؤلف إلى أن بذرة اليأس والضياع نبتت في نفوس العبيد، وأيقنوا أنه لا مخرج ولا مهرب، وإنما الاستسلام المطلق. . . .

2 ـ إن هذا العبد منذ أن يستلمه تاجر الرقيق الأوروبي حتى يبيعه لا يعيش إلا في ما يشبه حظائر المواشي أو معسكرات الاعتقال، فالتعذيب مستمر، والخوف هو المناخ السائد الذي يتنفسه الجميع، ويستنشقونه صباح مساء، وعملية نقله من مكان لآخر هي العذاب المر لأنه لا يعرف المجهول الذي ينقلونه إليه، وبمرور الأيام أصبحت عملية الانتقال من مكان إلى آخر لا تعني عند العبد أي أمل أو شعاع من أمل، بل هي موت جديد أو طريق إلى وضع جديد أقسى وأمر من الموت والعذاب الذي يعيش فيه.

3 ـ خلال هذه الرحلة يضيع اسمه، ويتحول إلى رقم أو عدد، ولقد تطرق إلى هذه النقطة أساتذة الدراسات النفسية فقالوا: إن تحوُّل الفرد من إنسان له اسم ونسب وكيان متميز وشخصية مُعَرَّفَة إلى رقم معناه الموت، لأنه أصبح جزءاً أو قطعة من مجموعة لا كيان لها ولا اسم ولا تاريخ ولا حاضر ولا ماضي ولا مستقبل. . .

وهذا ما حدث للزقيق الإفريقي، فقد أُلغيت أسماؤهم،

وأصبحوا مجرد أرقام، حتى نزلوا على الشاطىء الأمريكي حيث اشتراهم السادة البيض في المزاد العلني كمجرد أرقام أو أعداد، ثم نُقلوا إلى المزارع والحقول حيث مُنحوا أسماء بواسطة سادتهم الجدد.

واستطراداً، نشير إلى أن **جماعة «أمة الإسلام»** تطلب من أعضائها ـ بمجرد الانضواء في صفوفها ـ أن يخلعوا عن أنفسهم أسماء العبودية والرق التي وسمهم بها السادة البيض، وأن يتخذوا لأنفسهم أسماء جديدة مثل **مالكولم إكس** X.

4 ـ في الولايات المتحدة تلاشت نهائياً كل آثار وعلاقات إفريقيا التي حملها هؤلاء الرقيق معهم إلى الشاطىء الأمريكي، فقد تركوا دياناتهم، واعتنقوا ديانة البيض **الأنجلو ساكسون** أو غيرهم من الأوروبيين، وتركوا أسماءهم، وحملوا أسماء السادة، ونسوا لغاتهم، وتكلموا لغة السادة، وماتت أغانيهم وثقافاتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وتحوّلوا كما يقول البعض إلى **سامبو**، وفي هذا يقول **فرازير**:

إن الميراث الاجتماعي الإفريقي الزنجي تحطّم وتلاشى نهائياً في الولايات المتحدة، وإن نماذج الثقافة الزنجية الحالية إنما هي نتيجة تفاعل وتزاوج جميع العناصر التي صنعت المجتمع الأمريكي المعاصر، وإن **النجرو** انقطع نهائياً عن حياته وتقاليده وتاريخه الإفريقي، وضاع بفعل الزمن وسيطرة سادة **الولايات الجنوبية الأمريكية** والتي يسمونها دنيا حياة **النجرو** وليس لها أي أساس إفريقي بالمرة. وكان **فرازير** ـ في هذا ـ يعارض ما قاله **هرسكوفتز** من أنه وجد صفات وخصائص اجتماعية زنجية ما زالت في حياة وثقافة **النجرو** الأمريكي، وإن هذه الصفات والخصائص لها أصول إفريقية.

وقد قرر **هرسكوفتز** بعد هذا أن هذه الخصائص والآثار قليلة العدد، وليس من اليسير رؤيتها واكتشافها وتحقيقها إلا للمتخصص في هذا الميدان من الدراسات الاجتماعية.

5 ـ عاش الرقيق في نظام مغلق ليس له باب يمنح الأمل أو يعطي الثقة في يوم من الأيام بأن تتغير فيه أحوالهم، فقد نُظِّمَت السلطة في هذا النظام من أعلى إلى أسفل، وليس له فيه كيان القاتل في نفوس البيض، واليأس المطلق في نفوس الزنوج، لذلك، فكّر كثيرون في الهرب نهائياً من الجنوب حيث لا أمل في البقاء، وحيث لا أمل في التغيير، ومن ناحية أخرى، كانت الإقامة في الشمال تعرض وضعاً اقتصادياً أحسن نسبياً عما يجري عليه الوضع في الجنوب.

وأهم هذه الأسباب هي نشوب **حرب الاستقلال الأمريكية**، فقد ملأت الجو العام أفكار الحرية والاستقلال والديموقراطية، ولم يتقاعس الزنوج عن الإسهام في المعركة، فكتب التاريخ تثبت أن **الزنجي كريسبوس أتيكوس** لقي حتفه على أيدي الجنود البريطانيين في مظاهرة **بوسطن** الشهيرة يوم 5 آذار/ مارس 1770.

ومع تطورات القتال بين الأمريكيين والجيوش البريطانية ظهر دور الزنوج في المعركة، فلقد حاولت القيادة البريطانية إثارتهم ضد سادتهم البيض، كما أن فرقاً منهم أسهمت في الحرب بجانب الأمريكيين في البر والبحر، ولقد كان موقف الأمريكيين في أول الأمر هو رفض تجنيد الزنوج للقتال ضد البريطانيين، ولكن طول مدة الحرب والشعور بتبعات الموقف الثقيلة أدى إلى تحديد حصة لكل ولاية. عليها أن تقدمها من الأفراد للانضمام للجيوش الأمريكية.

وقد وافقت الولايات على تجنيد **النجرو** بدلاً من الأفراد بيض اللون، وذلك فيما عدا ولايتي **جورجيا وساوث كارولينا** اللتين تخوَّفتا من آثار إعلانات الحرية التي أصدرها الثوار الأمريكيون، وتحتوي الدراسات الخاصة بهذه الفترة بيانات متنوعة عن إسهام الزنوج في الحرب وأعدادهم، وأسماء من أظهروا البطولات، أو قُتلوا في الحرب.

بريطانيا تنكث بوعودها مع الزنوج:

واستطراداً، نذكر أن عدداً من الزنوج انضموا إلى القوات البريطانية أثناء الحرب على أساس الوعود البريطانية بالتحرير من الرق. وعند عقد الصلح النهائي بين الجانبين تمسك البريطانيون بعدم إعادة الزنوج الذين تعاونوا معهم، وبعد ذلك قاموا بترحيلهم إلى خارج **أميركا**، خاصة إلى **سيراليون** وغيرها من المستعمرات الإنكليزية.

وفي الفترة التي تلت انتهاء الحرب شهدت **أميركا** معركة صياغة الدستور الأميركي، وقد صُدم الزنوج والرقيق صدمة عنيفة إذ تمخضت المعركة عن بقاء الأوضاع على ما هي عليه، فلم يحتو الدستور على أي إشارة لكلمة **نجرو** أو كلمة رقيق، كأنما لا يعرف المجتمع الأمريكي هذه الكلمة، ولا يحس بآثار وجود نظام الرقيق والأفراد سود اللون، وفشلت كل الجهود للنص على إلغاء الرق في الدستور، بل أكثر من هذا فقد احتوى الدستور على ثلاث مواد:

تنص أولاها: بالأشخاص الملزمين بالخدمة أو العمل في ولاية ما بمقتضى قوانينها، وأن هؤلاء الأشخاص إذا فروا إلى ولاية أخرى لا يُعفون من الخدمة أو العمل تطبيقاً لقوانين الولاية الأخرى أو

نظمها، بل يجب تسليمهم بناء على طلب الولاية إلى الجانب الذي يجب أن يؤدي فيه عمله أو خدمته (الفقرة الثانية من المادة الرابعة).

وتنص الثانية: على أن عدد النوّاب يوزع بين الولايات المختلفة المنضمة إلى الاتحاد بنسبة عدد سكان كل منها، وسيقدر بأن يضاف إلى مجموع السكان الأحرار ثلاثة أخماس الأشخاص الآخرين، ولم يُوضِّح الدستور مَنْ هم هؤلاء الأشخاص، ولم يُعيِّن لهم اسماً أو تعريفاً (الفقرة الثانية من المادة الأولى).

وتنص الثالثة: على أن **الكونغرس الأمريكي** لا يمنع أي ولاية أمريكية من استيراد أو استقدام أشخاص غير المهاجرين إذا ارتأت ذلك، وذلك لمدة عشرين سنة من تاريخ وضع الدستور عام 1778، حتى عام 1808، (الفقرة التاسعة من المادة الأولى).

وتأثير هذه المعركة انعكس على نشاط دعاة إلغاء الرق في الولايات المتحدة، ونشاط عمليات تهريب الرقيق من الجنوب إلى **كندا** خارج سلطان نصوص هذا الدستور الفيدرالي، وقد أدى تزايد هذا النشاط إلى إصدار قرار من **الكونغرس** عام 1807، بعدم مشروعية التجارة الخارجية في الرقيق ابتداء من كانون الثاني/ يناير عام 1808، وقد انصبَّ القرار على التجارة الخارجية الخاصة باستيراد الرقيق إلى موانىء الولايات المتحدة، وأما التجارة الداخلية في الولايات فقد استمرت بواسطة تجار يحملون رخصاً قانونية، وأصبحت مدينة **نيو أورليانز** هي المركز الرئيسي للبيع بالمزاد العلني في الجنوب.

ويقدر أحد الدارسين أن التجارة الداخلية في الرقيق تعاملت في 7500 زنجي رقيق سنوياً منذ عام 1820 حتى عام 1960.

وعلى الجانب الآخر لم يستسلم السادة بيض اللون أصحاب المزارع والمصالح في الجنوب لقرار **الكونغرس**، بل حاولوا مراراً الحصول على قرار بإلغائه على أساس عدم دستوريته من المحكمة الفيدرالية، أو الضغط على **الكونغرس** لإعادة النظر في قراره سالف الذكر، وكانت أشهر هذه المحاولات عام 1850، أمام المحكمة الفيدرالية العليا.

وفي هذه الفترة ظهر نشاط ودور الخلاسين والزنوج المتحررين من الرق في مدن الشمال والولايات الواقعة خارج نطاق الجنوب الزراعي، وتأثروا كثيراً بأخبار ثورات الزنوج في منطقة **البحر الكاريبي، وثورة هاييتي**، وقيادة **توسان الفاتح** في آب/ أغسطس 1791، وهزيمة جيوش **فرنسا وإسبانيا** عام 1801، ثم إعلان استقلال أول جمهورية زنجية في 31 كانون الأول/ ديسمبر 1803.

ويذكر كوارليز مؤلف «**دور النجرو في بناء أميركا**» أنه في هذه الفترة لم يكن كل الزنوج عبيداً، ففي عام 1851، كان فيه 581 خلاسياً من كل 1000 فرد أسود اللون في داخل مجموعة الزنوج الرقيق، ويذكر أيضاً أنه في عام 1860، كان في الولايات المتحدة 884,070 من الزنوج المتحررين من الرق يمثلون 11% من إجمالي تعداد الزنوج في الولايات المتحدة، ويذكر **فرايزر** في كتابه عن **النجرو** بالولايات المتحدة أن عدد الزنوج المتحررين من الرق عام 1790، بلغ 59,557 فرد، وفي عام 1860، وصل عددهم 884,070 وأنهم بهذا كانوا يمثلون 12,3% من إجمالي تعداد الزنوج عام 1860.

«الموانع» أمام الزنوج:

إن ظهور هذه الفئة من الزنوج والخلاسين المتحررين من الرق

لم يمنحهم وضعاً قانونياً مساوياً للمواطن أبيض اللون، فقد كانت هناك قيود وضوابط قانونية شديدة على نشاطهم وحياتهم، من أمثلتها عدم توظيفهم في وظائف عامة، وعدم قبول شهادتهم في المحاكم، وعدم السماح لهم بحمل الأسلحة أو استعمالها، وعدم السماح لهم بشراء الخمور من المحال العامة، وكانت أغلبيتهم في الجنوب تعمل في الحرف الصغيرة وتربية الماشية، وإن كانت بعض المصادر تذكر أن قلة منهم وصلت إلى مستويات الثراء بامتلاك الأرض والرقيق أيضاً، وبالنسبة للشمال كانت القيود أخف نسبياً مما في الجنوب، ومع ذلك، فلم يكن لهم حق التصويت في الانتخابات بمختلف درجاتها، وقيدت حركات انتقالهم إلى الولايات المتحدة الأخرى، وكانت هناك وظائف معينة يمنعهم القانون من شغلها.

وفي هذه الفترة تداولت كلمة **(جيم كرو)** فأصبحت منذ عام 1838، علماً على كل شخص أسود اللون في الحياة العامة وفي المسارح والمؤلفات بجوار ما سبقها من كلمات متداولة أخرى.

أول كنيسة زنجية 1787:

وقد حدث في عام **1787**، أن رفض الحضور بيض اللون في أحد الكنائس الاستماع إلى قسيس أسود اللون يلقي موعظة الصلاة، وطردوه من الكنيسة، فخرج، وانضم إليه بعض زملائه، وكوّنوا أول كنيسة، وسمّاها الكنيسة الإفريقية الحرة.

وتتابع إنشاء الكنائس المستقلة للزنوج، وعند مصدر آخر أن الكنائس الإفريقية المستقلة للزنوج الأمريكيين بدأت تظهر في الفترة ما بين عام 1773، وعام 1775.

الكنائس الزنجية عام 1963: 55 ألف كنيسة

ما زال الانقسام في الكنائس موجوداً حتى اليوم، فقد ذكر **لويس هاريس** في كتابه «**ثورة النجرو في أميركا**» أنه في عام 1963، وجد أن في الولايات المتحدة 55 ألفاً من الكنائس للزنوج مقابل 265 ألفاً من الكنائس للبيض، وأن كنائس الزنوج تنقسم إلى 65% تتبع **البابتيست** و22% تتبع **الميثوديست**، ويتوزع الباقي بين الديانات المتعددة في الولايات المتحدة.

ولقد وجدت أن أغلبية الدراسات الخاصة بالتكوين السيكولوجي **للنجرو** ومواريث هذا التكوين تهتم بهذه الفترة وآثارها في تكوين نفسية الزنجي الأمريكي.

وترى هذه الدراسات أن نظام المزارع الكبرى والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية التي تولّدت عنها وعلاقات السلطة ودور طبقات الملاك الزراعيين ـ البيض ـ قد خلقت أنماطاً من السلوك وردود الفعل السيكولوجية، وخلق إطاراً أخلاقياً وتصورات وقيماً ومثلاً. وقيمة هذه الدراسات أنهم استخدموها لتفسير وشرح مواقف الزنوج الأمريكيين واتجاهاتهم الفكرية والسلوكية وأنماط حياتهم وعلاقاتهم بعد **الحرب الأهلية الأمريكية** وصدور قانون الرق في الولايات المتحدة.

هذا وآثار الحرب العالمية الثانية وما بعدها من أحداث على المسرح العالمي، وفي داخل كل دولة تظهر أيضاً في قضية الزنوج الأمريكيين، فهم بشر كغيرهم من الناس في العالم، ومجتمعهم الذي يعيشون فيه قد أحسَّ آثار هذه الحرب، وعاش أحداث عالم ما بعد الحرب، ونجمل هذه الآثار فيما يلي:

أولاً: نتج عن دخول الولايات المتحدة الحرب أن أرسلت قواتها العسكرية في أعداد ضخمة إلى جميع ميادين الحرب، كما أن صناعتها قد نمت نمواً ضخماً، وقد عبّأت قواها ومواردها لصالح هذه الحرب.

ترتَّب على هذا أن أعداداً كبيرة ـ وفي صورة مستمرة من الزنوج الأمريكيين ـ دخلوا دائرة هذه الحرب، إما كمقاتلين في الجيوش، أو كعاملين في الخدمات المطلوبة للحرب خارج **أميركا**، وإما كعمال يشتركون في سد حاجة هذه الصناعات وهذه الطاقات إلى قوى بشرية لتشغيلها.

وكما قلنا: فإن الزنوج الأمريكيين تكدّسوا في قلب المدينة **(الغيتو الأسود)** وترتّب على هذا مشكلات الإسكان والتعليم والتدريب ورفع مستوى المعيشة وزيادة الدخل، وبجانب هذا، مشكلات البطالة والانحراف... إلخ.

وفي هذه البيئة وهذا المناخ لم يحمل هؤلاء الزنوج أبناء المدينة المقيمين فيها أي ولاء سياسي لأي منظمة زنجية كما أن تفكيرهم والضغوط التي عانوها لم تقبل الانتظام والانضباط اللازمين للولاء لهذه المنظمات القديمة، ومن هنا، فكّر فريق من الشباب الزنجي مع فريق من الليبراليين الأمريكيين في أن يواجهوا الموقف بخطوة أكثر راديكالية مما سبق، ولهذا، تألفت عام 1942، منظمة زنجية جديدة باسم **«مجلس المساواة العنصرية»** وتحمل هذه المنظمة كل سمات المنظمات السابقة، ولكنها تزيد عليها في أن الذين أقاموها يؤمنون بإمكانيات الأخذ بنماذج من المقاومة السلمية في سبيل إلغاء التفرقة العنصرية.

ويقول **جيمس فارمر** الرئيس القومي لهذه المنظمة (بعد أن انفصل عن الجمعية القومية لتقدم الملونين)، إنه يؤمن بفعالية وسائل المقاومة السلمية نقلاً عن **غاندي الهندي وثورو الأمريكي**، وإن هذه الفلسفة «**المقاومة السلمية**» تتيح تربية أجيال من المكافحين الزنوج يتصفون بنضوج عاطفي، وتدبير عقلي، لا تهزهم الاستفزازات والتهجمات من جانب البيض، ويمثلون نماذج ناجحة أمام باقي المجموعة البشرية سوداء اللون. وبهذه الفلسفة الجديدة تمثل المنظمة خطوة تقدمية عما سبقها من منظمات، ولكن كما سنلاحظ أن هذه الفلسفة في النصف الثاني من الأعوام الخمسينيات والنصف الأول من الأعوام الستينيات لم تعد خطاً سياسياً يملأ عقول ونفوس الزنوج الذين طالبوا بتخطيها، والأخذ بأساليب العمل السياسي المباشر.

وقد أسهمت هذه المنظمة في أعمال التربية والعلاقات الاجتماعية، والتوعية الثقافية، وتهيئة السبل لمعالجة الانحراف الاجتماعي والسلوكي بين مجموعات الزنوج، وتستمد تمويلها من الأمريكيين بيض اللون بجانب ما تجمعه من الأمريكيين سود اللون.

ثانياً: أسهم الزنوج في أعمال القتال في جميع مسارح الحرب، كما اشتغلوا في جميع الخدمات المتعلقة بمهمة الحرب خارج الولايات، وهذا الإسهام قد أنتج آثاراً ضخمة في تفكير هؤلاء الجنود والعاملين في خدمات الحرب، فقد أحسوا بالدنيا خارج **أميركا** عن كثب وعن تعامل، وشاهدوا كيف يُعامَل الناس باحترام في أماكن كثيرة، كما أن المرتبات في فترة الحرب كانت كبيرة، الأمر الذي أتاح لهم فرصاً عديدة في الحياة الاجتماعية في أوروبا وآسيا وإفريقيا.

وتنعكس آثار هذا الدور في أمور كثيرة منها أن الضغوط داخل

البناء العسكري الأمريكي ضد استخدام الزنوج وتجنيدهم في عمليات الحرب وخدماتها قد انهارت رويداً حتى تم تجنيد الزنوج، وبعد معاناة وشكاوى واضطرابات أمكن شغلهم لوظائف الضباط في القرى المتعددة بحيث يرأسون البيض، ومنها أن التفرقة بين الجنود والضباط في مسائل السكن والمطعم والخدمات طبقاً لألوانهم قد تهاوت رويداً رويداً حتى اضطر الرئيس **ترومان** في أثناء حرب **كوريا** أن يصدر قراراً بإلغاء هذه التفرقة في القوات المسلحة بوصفه القائد الأعلى للجيوش الأمريكية، ومنها أن عدداً كبيراً من هؤلاء المجندين قد سُرِّحوا بعد الحرب، وعادوا إلى **أميركا**، فوجدوا أن المجتمع لم يتغير من حيث الفكر الاجتماعي والنظرة الاجتماعية للزنوج، وأنه ـ ترتيباً على هذا ـ عليهم أن يهبطوا للحياة في القاع حيث الازدراء والضياع واليأس والبطالة، ولما كانوا قد عاشوا حياة الفخر والاعتزاز في خارج **أميركا** فقد ثاروا على هذا الوضع، وامتلأت حياتهم بالاضطراب النفسي والاجتماعي، ومنها أن عدداً كبيراً من هؤلاء المجندين سمع في أوروبا وآسيا عن الأفكار الاشتراكية، وعن الدعوة الشيوعية، وعن حروب المقاومة ضد النازية والفاشية الإيطالية واليابانية، وأن هذه الأفكار تركت فيهم آثاراً فكرية.

مناهضة «سياسة استئصال الرجولة» الزنجية:

وقد ترتب على هذا أن عاد هؤلاء المجندون وليس في نفوسهم أو عقولهم أي ولاء للنظام القديم أو للطرق والأساليب المقررة في حياتهم للوصول إلى المساواة بإلغاء التفرقة العنصرية، ومن بين أفراد هذا الجيل وما جاء بعده من أجيال سوف تبرز القيادات الجديدة الراديكالية النظرة، وسوف تبرز أيضاً القيادات الجديدة اليسارية النظرة، ولكن ـ في نفس الوقت ـ ستظل هذه القيادات تشكو من

الميراث الفكري الفردي الذي عاناه المجتمع من قبل، والذي تدعمه كل أفكار الفلسفة الفردية الرأسمالية، والذي نتج عن هذا هو ضعف منظماتهم وتعددها مع كثرة السخط والشكوى والقلق من القديم والبحث عن جديد.

ثالثاً: في هذه الفترة التاريخية التي تلت الحرب العالمية الثانية ظهرت أزمة خطيرة في القضية الزنجية، وهذه الأزمة تتعلق بدور ومفهوم القيادات البيضاء الليبرالية التي يسجل التاريخ مشاركتها في العمل السياسي الزنجي طوال النصف الأول من القرن العشرين، والتي احتلت ـ بلا منازع ـ مراكز التوجيه والتخطيط والتمويل، وهذه الأزمة هي تعبير عن أن السخط والقلق والشكوى والتبرم الذي ملأ حياة جماهير الزنوج قد نضج، وبدا واضحاً أمام المجتمع.

ومن ثم، فقد تبلورت الأزمة في أن **النجرو** يريد أن يُعامَل كإنسان كامل قادر له حق التصرف، بينما يدل التاريخ السابق على أن الليبراليين البيض قد صنعوا له كل شيء من أجله، ولم يتركوا له أي فرصة أو مناسبة لكي يعمل لنفسه شيئاً.

إن **النجرو** كما يقول **الدكتور ديبويس**: يريد الآن أن يقف، وأن يمارس بملء حريته ومطلق إرادته **حق ممارسة رجولته**.

وقد علّق على هذا الإحساس والتفكير **جنرميردال** في دراسته المنشورة عام 1944، فقال:

إن الأغلبية البيضاء تحدِّد مركز النجرو ومكانه، وليس هناك أي تفسير علمي يشرح لماذا يقف **النجرو** هكذا؟ ولماذا يعيش هذه الحياة في داخل هذا الإطار؟ اللهم، إلا تفسيراً واحداً هو أن الرجل الأبيض أراد هذا، ولا رادَّ لإرادته وقضائه. ولقد ثبت من التاريخ أنه في كل

معركة وفي كل خطوة كان رأي الرجل الأبيض قاطعاً حاسماً، ولهذا، فالحقيقة هي أن حياة النجرو وآراءهم عن مشكلتهم هي رد فعل ثانوي لضغوط الأغلبية البيضاء...

إن موقف الليبرالي الأبيض موقف حرج، فالزنوج يعتقدون اعتقاداً جازماً أن وجوده في منظماتهم هو سبب سيرهم البطيء نحو تحقيق أهدافهم، ولهذا، يرى **لوماكس** أن دور الليبرالي الأبيض له جذور اقتصادية، فهو الذي امتلك القدرة على التمويل المالي للمنظمات الزنجية منذ بداية ظهورها، وإن وجودهم كما يتصورون يمنع تحول ثورة الزنوج إلى ثورة عنصرية، ويقولون إنهم يتكلمون لصالح السود وليس لمصلحة البيض، وفي تيار الهجوم العنيف الذي توجهه جماهير الزنوج إلى قياداتها القديمة يتطاير أيضاً الهجوم على القيادات البيضاء في داخل المنظمات الزنجية، ولذا، يقول **سلبرمان**: إن ثورة الزنوج هذه هي رد فعل مكبوت طوال زمن طويل سابق، وإن ردَّ الفعل هذا موجَّه ضد وضع عدم التوزان في هيكل القوة الاجتماعي، وهذا الوضع هو الذي ارتضاه البيض، ودعموه، واستكان له **النجرو**، وقبلوه، واليوم يأتي التناقض في أن **النجرو** الأمريكي يريد أن يعرض قضيته بنفسه، وأن يتكلم فيها بلسانه وعقله، ولكنه يجد حتى اليوم مَنْ يقومون بالحديث نيابة عنه، ويتخذون من القرارات بإرادتهم الخاصة، وكأنما هذا الزنجي لا وجود له مع أنه صاحب القضية.

ويثور الزنوج لهذا، ويقولون: لقد تدخلوا في حياتنا، حتى موعد وشكل تحررنا، لقد حددوه، وصنعوه كما أرادوه هم، لقد جعلونا لا نمتلك الإحساس بذواتنا، ولا نمتلك حياتنا، ولا نمارس دوراً في بناء مستقبلنا.

ويعلق الكاتب الذي نستند إليه في أنه من المستحيل على جماعة تعيش في وضع اجتماعي عاجز أن تنضج وتمارس فعاليات وجودها الاجتماعي بدون أن تُعالَجَ بما يشبه الصدمة الكهربائية، وهذا يجعلها تحس بصورتها الحقيقية في المجتمع، والتي لا يراها هذا المجتمع على حقيقتها، ولهذا، يطالب **النجرو** أن تعترف بهم السلطة البيضاء في المجتمع فتفاوضهم، وتحادثهم، وتشعر بحركتهم إما سخطاً وإما رضاءً، أي أن تعتقد أن الزنوج شركاء على قدم المساواة، وليسوا قاصرين لم يبلغوا سن الرشد بعد..

لذلك، يتردد باستمرار هذا الهجوم على الليبراليين البيض مع الهجوم على القيادات الزنجية القديمة لدرجة القول: إن تركيب السلطة الأبيض قد امتصّ في داخله زعامات **النجرو** وطاقاتهم، وقد تزايد الهجوم بعد أن تحولت حركة الزنوج إلى عمل سياسي واحتجاجي في الشوارع والرأي العام، فقد انتقد الليبراليون البيض وحلفاؤهم من البورجوازية السوداء دور هؤلاء الزعماء السود غير المسؤولين، ولم يؤيدوهم في عملهم السياسي في الشوارع.

ويرى **لوماكس** أن سبب هذا هو أن الليبراليين البيض إنما يعيشون في داخل إطار حياة الطبقة المتوسطة البيضاء، وينتظمون في تيار قيمها ومثلها، ولهذا، فهم يريدون بقاء الوضع القائم في المجتمع الأمريكي، ويعملون على المحافظة عليه وإقرار السلام الاجتماعي في إطار الحياة الأمريكية الراهنة، وعلى نقيض هذا لا تشعر جماهير الزنوج بأي احترام لهذه الأقوال أو الأوضاع لأنهم يعيشون خارج إطار هذه الحياة البورجوازية وقيمها. ولذلك، فالقادة الزنوج الجدد حينما يقول لهم الليبراليون البيض والبروجوازيون السود: كُونوا مسؤولين، يتساءلون باستمرار «مسؤولون» أمام مَنْ؟ ولحساب مَنْ؟

وخلاصة القول: إن الزنوج يريدون أن يأخذوا في أيديهم المبادءة في العمل السياسي، وأن يعملوا لأنفسهم، ويريدون من الليبراليين البيض أن يتخلوا جانباً، ويتركوا الزنوج يتكلمون بأنفسهم عن أنفسهم.

رابعاً: أدت هذه المعركة السابقة تجاه دور الليبراليين البيض.. إلى توتر في العلاقات والنظرة تجاه الأقليات الأخرى، وبالذات الأقلية اليهودية في المجتمع الأمريكي.

وقد ظهرت دراسات خاصة بالعلاقات الاجتماعية الداخلية في مجموعات الأقليات والطوائف في المجتمع، ولعل أحداث **هارلم** في صيف عام 1964، هي السبب المباشر الذي جعل العلاقة بين اليهود والزنوج محل دراسات متعددة، وأعتقد أنه من الواجب أن نتعرض لهذا الموضوع استطراداً لبحث النقطة.

إن أحداث **هارلم وبدفورد** وهما حيّان تقطنهما غالبية زنجية في مدينة **نيويورك** في صيف عام 1964، وكذلك أحداث **فيلادلفيا** أصابت كثيراً من المحلات والمؤسسات التجارية والاقتصادية اليهودية بأضرار. ومن هنا ارتفعت صيحة تقول: إن ثورة الزنوج تعادي السامية واليهودية، وحاول البعض إلصاق هذه التهمة بواسطة تخيل علاقات بين بعض قادة الزنوج وبعض قادة البلاد العربية، وبعضهم حاول لمس الفكر النازي في أفكار بعض قادة الزنوج، وبعضهم ألقى التهمة على عاتق المسلمين السود.. إلخ. ومن ناحية أخرى، حاول البعض إيجاد تفسير اقتصادي لهذه الأحداث بواسطة القول إن حي **هارلم** وحده يسكنه حوالي نصف مليون أسود، ومع ذلك، فالزنوج لا يمثلون سوى 13% من مجموع ملاك المحلات والمؤسسات التجارية والاقتصادية

ومحلات التوزيع والخدمات والأسواق في هذا الحي. وإذا كنا نسلم بوجود آثار لهذا العامل الاقتصادي، فإن الدراسة تثبت أن هناك عوامل متعددة لهذا التوتر، وإن التوتر بين اليهود والزنوج ليس طارئاً وليس نتيجة حركة الحقوق المدنية فقط، بل هناك ظاهرة تاريخية ليس لها حتى الآن تفسير كامل نهائي وهي أن اليهود حينما استقروا في **نيويورك** أقاموا في وسط المدينة، وقاموا بنشاطهم التجاري في قلبها، ولأسباب تاريخية أخرى حينما وصل الزنوج إلى الشمال قادمين بكثرة من الجنوب اتجهوا إلى وسط مدينة **نيويورك**، وأقاموا بجوار مناطق إقامة اليهود، ومن ثم نشأت بينهم علاقات تمثلت في التجارة والاستخدام والتعامل في بنك السلفيات والتوظيف واستئجار المساكن.. إلخ، ولهذا، فالشكوى من جانب الزنوج ليست طارئة، ومن ناحية أخرى فإن الليبراليين والاشتراكيين والشيوعيين من اليهود قد أسهموا ـ بصورة أو بأخرى ـ في حركة الحقوق المدنية مثل غيرهم من البيض من أبناء الطوائف الأخرى، وهذا الإسهام في صورة عمل سياسي أو تثقيفي أو تمويل مالي... وعلى غير ما يتخيل هؤلاء الليبراليون البيض جميعاً، فإن نمو حركة الزنوج وتحركها إلى العمل السياسي قد صاحبته ظاهرتان:

الأولى: هي ظهور القيادات الزنجية التي بدأت تستقطب الجماهير السوداء، ومن ثم ينكمش دور القيادات الليبرالية البيضاء واليسارية أيضاً.

والثانية: هي نمو الشك وعدم الثقة في دور أي قيادة ليبرالية بيضاء من جانب الزنوج، الأمر الذي أوجد منطقة من عدم الثقة المتبادلة بين الطرفين، مع نمو هذه المنطقة من عدم الثقة باستمرار. وترتيباً على هذا، فإن الشكوى من الوضع الجديد الذي تتطور إليه

حركة الزنوج هي شكوى عامة من جانب الليبراليين البيض ومن بينهم الليبراليون اليهود.

ولكن، لماذا أصبح اليهود أكثر حساسية من غيرهم بالنسبة لهذا الوضع الطبيعي في نمو حركة الزنوج؟

الرأي الصحيح يعود إلى عدة عوامل، منها نمو الطبقة المتوسطة والمهنية وذوي الياقات البيضاء من الموظفين بين الزنوج، وهؤلاء حينما دخلوا سوق العمل في **نيويورك** بالذات وجدوا أن عدداً كبيراً من اليهود يقفون أمامهم مباشرة في السلم الاجتماعي.

ويقرر الأستاذ **ناثان جلازر** الأستاذ بجامعة **كاليفورنيا** في دراسة نشرتها له مجلة **«كومنتري»** وهي لسان المجلس اليهودي الأمريكي: أنه منذ الثلاثينات دخل اليهود بكثرة ساحقة ميدان التعليم والوظيفة والعمل المهني، وأن أحداث التاريخ وضعت اليهودي أمام الزنجي في العمل أو فوقه مباشرة في السلم الوظيفي، ففي المدارس يجد المدرس الزنجي أن الناظر يهودي، وفي العمل الاجتماعي يجد الأخصائي الاجتماعي الأسود أن المشرف عليه يهودي، وهناك تقرير مشهور باسم **هاريو** عن أحوال العمل وعلاقات الجماعات والأقليات في **نيويورك** يقول: إنه من بين 800 ناظر مدرسة يوجد ناظر واحد من الزنوج، وفي الإدارة العليا في السلم الوظيفي يوجد أربعة من الزنوج من بين 1200 موظف كبير، وفي الوقت نفسه نجد أن الأغلبية الساحقة من هذه الأرقام هي من بين اليهود. وبجانب هذا العامل المثير للتوتر، نجد أن الأقلية اليهودية كغيرها من الأقليات الأمريكية قد وصلت من الناحية الاقتصادية ومستوى الدخل ما يؤهلها إلى الانتقال من وسط المدينة إلى الضواحي، وقد تم هذا منذ فترة الحرب

العالمية الثانية، وتأخر انتقال الطبقة المتوسطة الزنجية إلى الضواحي حتى أواخر الأعوام الخمسينيات وأوائل الستينيات. فلما بدأت **البرجوازية** السوداء في الانتقال قوبلت بمعارضة شديدة من سكان الضواحي ومن بينهم اليهود، والسبب هو أن انتقال الزنوج للسكنى في منطقة يجعل البيض يهجرونها، ومن ثم تنخفض الأسعار وأثمان الأرض والعقارات. وأيضاً تتم عملية الانتقال الزنجية في فترة نمت فيها حركة الحقوق المدنية، أي أن انتقالهم معناه المطالبة بالاندماج الاجتماعي في المدارس والمستشفيات والنوادي والزواج المختلط... إلخ.

إذن، فالذي حدث في العلاقات بين الليبراليين والأقليات البيضاء من جانب وبين الزنوج من جانب آخر هو أن الموقف ترتّب على حقيقتين:

الحقيقة الأولى: هي أن صورة المجتمع الأمريكي الحقيقية هي أنه ليس مجتمعاً واحداً مفتوح العلاقات الداخلية على مختلف الاتجاهات، بل إنه مجتمع أقليات وطوائف وجماعات تندمج إلى حدّ ما، وتبقى بعد ذلك كل في إطارها الديني أو العنصري أو القومي السابق، وهذا واضح من المقاومة الأولى التي أبدتها الأقلية **الأنجلوسكسونية** البيضاء البروتستانتية الديانة أمام ضغط اليهود والكاثوليك وغيرهم في سبيل الاندماج الاجتماعي، فقد نبذتهم أولاً، ثم قبلتهم ثانياً على أساس أن تبقى بين كل منهم خطوط فاصلة، وكان هذا هو ما تبغيه هذه الأقليات الجديدة في ذلك الوقت، فهم يطلبون الاندماج والمساواة والاعتراف بهم على أساس أن تبقى لهم شخصياتهم الطائفية المتمثلة في الكنيسة الخاصة، والمدرسة الخاصة، والنادي الخاص، والتجمع السكني الخاص إلى حدّ ما، والصحف

والمجلات الخاصة، ولما كان اليهود آخر الأقليات التي اندمجت في المجتمع الأمريكي فقد وجدهم الزنوجُ أوَّلَ الطوائف أمامهم وآخرهم في السلم الاجتماعي.

والحقيقة الثانية: هي أن حركة الزنوج الحالية هي ثورة بالمفهوم العميق للمصطلح، إنهم لا يطلبون الاعتراف بهم كأقلية أو جماعة لونية ذات وضع ومدارس ونوادي وثقافة خاصة في داخل المجتمع، وهذه هي غلطة الليبراليين البيض فقد ظنوا، أو توهموا منذ البداية أن الموقف سوف ينتهي إلى هذا الوضع الذي تصوّروه، بينما أن الزنوج الأمريكيين قد أصبح لهم وضع خاص وهو عدم وجود ثقافة قومية أو ديانة خاصة أو مدارس خاصة، إنهم يطلبون وضعاً جديداً هو دخول جميع الكنائس والنوادي والمدارس والمستشفيات والأحياء السكنية، والوظائف الحكومية، والشركات والأعمال الخاصة.

إن حركتهم تعرف خطاً فاصلاً، تريد أن تبقى عليه بينهم كأقلية وبين باقي الأقليات الأخرى في هذا المجتمع، إنهم لا يعترفون بإمكان حياتهم بجوار عدة مجتمعات وطوائف وأقليات موجودة تحترم الخط الفاصل بينهما تقليدياً، إنهم يريدون عبور هذا الخط بالنسبة لجميع هذه الأقليات، ودخول دائرتها الخاصة لأنه ليست لهم دائرة يريدون المحافظة عليها أو يطلبون الاعتراف بها. ومن هنا، يبدو التهديد الثوري الزنجي، فهو ليس ضد السامية، وليس ضد اليهود، وليس ضد البيض، وليس ضد فرد ما بصفته الفردية، بل إنه ضد الوضع الاجتماعي التقليدي. ولهذا، أصبح من المتداول أن توصف ثورة الزنوج بأنها حركة راديكالية، وليست حركة ليبرالية طبقاً لمعاني المفاهيم السياسية المتداولة في **أميركا**.

إن الزنوج يطلبون إلغاء خطوط وعلامات الحدود المقبولة عرفاً وضمناً بين جماعات وأقليات المجتمع الأمريكي، ولم يسبق لجماعة أو أقلية في **أميركا** أن طلبت هذا، والسبب هو أن نبذ الزنوج وطردهم التاريخي من المجتمع كان قاسياً متطرفاً.

وعلى هذا، فَرَدُّ الفعل هو عدم قبول الأمر الواقع مطلقاً، وإن الزنوج يصارعون ضد كل الفواصل والحدود الفاصلة، فهم يريدون دخول الكنائس والمدارس والنوادي وأحياء السكن الخاصة، ومحلات التجارة.. الخ.

إن ثورة الزنوج لا تكتفي بطلب المساواة القانونية في ميدان الاقتصاد وميدان التعليم.. الخ، إنهم يطلبون المساواة في نتائج هذه الفرصة المتساوية.

ومعنى هذا، أن يكون لهم قدم ثابتة ومدخل قوي في جميع خيرات وثمار الحياة الأمريكية، بدون اعتبار لأوضاع طائفية أو علامات فاصلة بين الجماعات.

إن هذا المطلب لا يعترف بالعرف والتقاليد الخاصة بأوضاع الجماعات والأقليات، لأن هذا قد ترتبت عليه حقوق وامتيازات ومغانم خاصة بكل طائفة وجماعة وأقلية أقامت حياتها عليه منذ زمن سابق، ولهذا، فحينما يطالب الزنوج بمطالبهم السياسية فهم ليسوا ضد اليهود كأفراد أو ديانة، وليسوا ضد الكاثوليك كأفراد أو ديانة، وليسوا ضد البيض عموماً كأفراد أو لون، إنما هم ضد الأوضاع والامتيازات والتركيب الاقتصادي والاجتماعي والثقافي الذي طردهم طرداً عنيفاً لمدة طويلة، وهم اليوم يريدون الدخول العنيف في هذا المجتمع، بدون مبالاة أو مراعاة لأي وضع أو امتياز يحرمهم من نتائج وثمار المساواة في الحقوق والواجبات والفرص في المجتمع الأمريكي.

مولد الثورة: أول كانون الأول/ ديسمبر 1955

إذا أخذنا منطق غالبية الكتّاب الزنوج وجدناهم يذهبون إلى أن مولد وبداية الثورة الحالية التي يحياها الزنوج الأمريكيون ـ هو يوم أول كانون الأول/ ديسمبر 1955، ففي هذا اليوم رفضت مسز **روزا باركس** من **مونتغمري** بولاية **ألاباما** أن تطيع أمر سائق حافلة الركاب فتترك مقعدها ليجلس فيه رجل أبيض، ولما اعتقل الشرطة هذه السيدة بتهمة مخالفة القوانين الأساسية للولاية ـ والخاصة بالتفرقة بين الأبيض والأسود ـ حدثت اضطرابات بين الزنوج أدت إلى إعلان مقاطعة عامة لاستعمال الحافلة في مدينة يشكل الراكبون الزنوج حوالي 75% من مجموع الذين يستعملون هذه الخطوط، وتطورت المقاطعة إلى تنظيم شعبي في المدينة، وتزعم العملية القساوسة الزنوج ومن بينهم برز قسيس اسمه **مارتن لوثر كنج**، وعلى الرغم من القبض على قادة الحركة من القسس رجال الكنائس إلا أنها استمرت حتى خضعت الشركة لمطالب الزنوج، وألغت قواعد التمييز بين الركاب في خطوط الحافلات الداخلية في المدينة، وذلك بعد أن استصدر المحامون المدافعون عن المتهمين والتابعين للجمعية القومية لتقدم الملونين أحكاماً من المحاكم الفيدرالية بعدم شرعية هذه القواعد وتناقضها مع الدستور الأمريكي.

وخرج **مارتن لوثر كنج** من هذه الأزمة زعيماً، فدعا إلى تأليف مؤتمر قيادات الجنوبيين المسيحيين المشهور باسم Sele واتخذ مقره في مدينة **أتلانتا** بولاية **جورجيا** حيث انتقل ليمارس واجباته الكنيسية.

وظهور هذه المنظمة الزنجية جدير بالدراسات والانتباه، فهي أول منظمة في فترة الخمسين سنة الأخيرة تقوم في الجنوب، وتحظى

بعضوية وتأثير على نطاق قومي في الولايات المتحدة بعد **يوكر واشنطن**، ومع أن عصب نشاطها الأساسي في الجنوب (الريف والمدن) إلا أن هذه المنظمة لها نشاط خارج الجنوب. وثانياً: هذه أول منظمة يتزعمها رجال الدين الزنوج زعامة كاملة، وتعمل بطريقة منظمة مقبولة في الحقل السياسي، ومن الأمور الجديرة بالذكر أن رجال الكنائس الزنجية مارسوا نشاطاً سياسياً مستمراً في حياة الزنوج الأمريكيين، وأنهم انضموا إلى نشاط جميع المنظمات السياسية الزنجية قبل ذلك، إلا أنه من الملاحظ أنهم، لأول مرة، يتكتلون، وينظمون تنظيماً جماهيرياً سياسياً، ويقودونه، ويصبحون مسؤولين عنه، ويدينون فيه بالولاء لزعيم من بينهم.

وخلاصة القول: إنه لأول مرة منذ ظهور المنظمات الزنجية القومية في **أميركا** نجد الجنوبيين من الزنوج يمتلكون المبادءة السياسية، ويشكلون تنظيماً سياسياً يتزعمونه، ويقودونه، بدون أن يكون للزنوج الشماليين فيه الدور الأساسي، وفي هذا القول نحن نتذكر ما تشكّل قبل هذا من منظمات قومية زنجية في مدن الشمال.

والحركة السياسية التي قام بها الجنوبيون من الزنوج أثارت دراسات ومناقشات عدة في **أميركا**، لأنه كما لاحظنا أن العمل السياسي وأهدافه الليبرالية والراديكالية كان باستمرار يبدأ من خارج الجنوب في مدن الشمال والوسط والغرب. وقد أفرد **لوماكس** مؤلف كتاب **«ثورة النجرو»** فصلاً كاملاً لمناقشة دور **مارتن لوثر كينج** وآثار تربيته الدينية على مفاهيمه السياسية، وعلى نشاطه العام. فهو انتقد **مارتن لوثر كينج** على أساس أنه يفتقد الصفات اللازمة للقائد الإداري الذي يقود تنظيماً جماهيرياً، وإنه ليس مثقفاً، فهو يعيش في إطار فكري جامد، كما إنه يدعو إلى مبادىء عدم العنف أخذاً بميراث

غاندي الهندي وثورو الأمريكي، ويزيد **لوماكس** على هذا النقد بأن **مارتن لوثر كينج** لم يتخلص من ميراث التعاون مع الليبراليين البيض، فقد أصبحوا هم المموِّلون لنشاطه مالياً، والمستشارين لنشاطه فكرياً، كما أن **لوماكس** يرى أن إدخال الكنيسة رسمياً في تنظيم وقيادة النشاط المدني للحركة السياسية فيه خطورة وفيه تناقض، ويرى **لوماكس** أنه ـ بمرور الزمن بعد عام 1955 ـ، بدأت الحركة تعمل في الجنوب بصفة أساسية، بينما لا يزيد تأييدها في مدن الشمال والوسط والغرب عن مجرد دور هامشي.

وقد تناول **سلبرمان** دراسة ظاهرة زعامة **مارتن لوثر كينج** ومؤتمر القيادات الجنوبية المسيحية فقال: «**إن مارتن لوثر كينج** هو زعيم وقائد الطبقة البورجوازية السوداء، أو الفئات الاجتماعية التي تتطلع تطلعاً فكرياً ومادياً إلى الدخول في فئات الطبقات المتوسطة، وإن أقساماً هامة ذات وزن من جماهير الزنوج والطبقات الدنيا السوداء تعارضه، ولا تقبل منطقه القائم على فلسفة عدم العنف، وأن الجهود والتأييد والدعم الذي يلقاه **مارتن لوثر كينج** من الأوساط البيضاء التي توصف بأنها مسؤولة وعاقلة، هذه الجهود والدعم تثير شكوكاً حول الهدف من إبرازه وتنمية صورته، وتثبيتها في الحياة العامة بواسطة أجهزة الإعلام والاتصال المتعددة في **أميركا**.

ولقد أُثيرت هذه الشكوك حينما قررت لجنة منح جائزة **نوبل** أن تمنحه هذه الجائزة لعام 1964، ولقد ناقش كثيرون، حتى من بين المثقفين الزنوج أنفسهم ـ أسباب منحه الجائزة والدوافع التي حدت إلى اتخاذ هذا الإجراء لأول مرة في تاريخ منح الجائزة، وأذكر أن **مجلتا «ليبريشن» و«نيوبوليتكس»** قد تحدثتا عن هذا الموضوع، وذهب كُتَّاب في هذا المجال إلى القول بأن دوافع سياسية خاصة بالمجتمع

الأمريكي تقف وراء فوزه بالجائزة، وأن الدوافع السياسية تتلخص في أن **مارتن لوثر كينج** يؤمن بالنظام الأساسي الأمريكي القائم، ويدعو الزنوج إلى عدم الثورة أو محاولة تحطيمه، كما أنه ضد العنف أو أي أسلوب ثوري، وبهذا ينطق باسم البورجوازية السوداء والبيضاء معاً، وفوق هذا **هناك محاولة لسد الطريق على نشاط جماعة أمة الإسلام أو المسلمين السود باستخدام مارتن لوثر كينج وتاريخه كقسيس في الكنائس الزنجية ومعه رجال الدين الآخرون»**.

نقول: إن هذا الحدث البسيط الذي تم في **مونتغمري ألاباما** قد هزَّ الرأي العام الزنجي، وتلته أحداث عديدة في ولايات أخرى.. كما أن عدداً من القضايا رُفعت في المحاكم ضد إجراءات التفرقة العنصرية في المدارس والمستشفيات ووسائل المواصلات ومناطق الإسكان... الخ.

وقد قامت **الجمعية القومية لتقدم الملونين** بتمويل العدد الأكبر من هذه القضايا، أو قدمت خبرات رجالها القانونيين في هذه المجالات، وقامت بدور جماعات الضغط في أوساط للرأي العام والإعلام الأمريكي، وقد تمت أحداث هامة وخطيرة في النصف الثاني من الأعوام الخمسينات في عهد رئاسة **آيزنهاور** للولايات المتحدة، وكلها أثارت الرأي العام الزنجي مثل ما حدث في مدينة **ليتل روك** بولاية **أركسنساس** عام 1957.

وما أن تولى الرئيس الراحل **كينيدي** رئاسة الولايات المتحدة عام 1960، حتى بدأت **حركة الحقوق المدنية للزنوج** تجد دفعاً قوياً للعمل، ففي عام 1960، بدأت في مدينة **جرينزبورو** بولاية **نورث كارولينا** حملة **(الجلوس احتجاجاً في الأماكن العامة)** والمعروفة

باسم: Sitins. . وأسرعت جميع المنظمات الزنجية إلى إرسال دعاتها والمسؤولين فيها إلى المدينة لمساعدة الطلاب الذين بدؤوا الحركة، وتدخّل الشرطة باسم منطق القانون السائد في الولاية، وتمت اعتقالات كثيرة، وعلى الرغم من هذا، انتشرت الحركة، وتناقلت وسائل الإعلام أخبارها، وانتشرت موجة الجلوس احتجاجاً، وأسرعت المنظمات الزنجية إلى المحاكم تطلب استصدار أحكام بالإفراج عن المسجونين والمعتقلين، وأحكام تدمغ الأوضاع القائمة بمنافاة الدستور الأمريكي، وفي غمار هذه الأحداث تألفت أحدث المنظمات الزنجية عمراً، وهي **لجنة تنسيق العمل الطلابي السلمي** والمعروفة باسم Sncc. . وتنطق في **أميركا** بـ **(سنيك)**. **ويتزعم** هذه اللجنة **شباب من الزنوج** يأتي في مقدمتهم **جيمس فورمان وجون لويس**، وقد انتشرت فروعها بسرعة في الجامعات والمعاهد الدراسية، وفي مناطق تجمعات الشباب. ومع أن الحركة نشأت في مدينة جنوبية إلا أن عدداً هاماً من زعاماتها جاء من مدن وجامعات الشمال والوسط، وعلى الرغم مما تتميز به الحركة من راديكالية تنتج عن عنف الشباب ومتوسط أعمار قياداتها وأعضائها، إلا أنها أيضاً تقوم على مساندة وتبرعات أقسام هامة من البيض الأمريكيين. والملاحظ أن مؤيديها من الأمريكيين البيض هم الطلاب والشباب والمنظمات الراديكالية الأمريكية، ودور هذه المنظمة ونشاطها في الجامعات هو الذي أدى إلى أزمة عام 1963، في جامعة **كاليفورنيا بركلي**. إذ فصلت الجامعة زعماء الطلاب الذين يعملون ضد التفرقة العنصرية، والذين يجمعون تبرعات مالية لتمويل المكافحين من أجل القضية، فلما ثار الطلاب، وأعلنوا الإضراب، تدخل الشرطة ولاية **كاليفورنيا**، وقبض على أعداد ضخمة، وطردت الجامعة 769 طالباً منها.

وقد تطورت الأزمة خلال عام 1964، فأقام الطلاب **منظمة حرية التعبير والكلام** بزعامة الطالب **ماريو سافيو** (من الأمريكيين البيض) دفاعاً عن حقوقهم في النشاط الطلابي داخل حرم الجامعة، وخلال العام الدراسي 1964، كانت الاضطرابات مستمرة والتوتر قائماً، ودفع هذا رئيس الجامعة **الدكتور كلارك كير** ومدير الجامعة لشؤون الطلاب إلى الاستقالة من عملهما في الجامعة عام 1965.

وما أن مرَّ عام من مدة رئاسة الرئيس **كينيدي** حتى أحسَّ **جيمس فارمر الرئيس القومي لمجلس المساواة العنصرية (كور)** بأنه لا بد من عمل إيجابي أكثر راديكالية ليهز المجتمع الأمريكي، فقرَّر أن يبدأ عملية سماها: **(مسيرة الحرية)** Freedom Rides والأصل في الفكرة أن هناك أحكاماً قضائية سابقة من المحاكم الفيدرالية تمنع تطبيق قواعد التفرقة العنصرية في محطات وصول حافلات الركاب التي تخدم خطوط السيارات العامة التي تعمل بين الولايات المتعددة والمعروفة باسم Terminals Inter State Travel وعلى الرغم من صدور هذه الأحكام فإن عدداً من الولايات لم تنفذها خاصة في الجنوب. ولذلك، فكّر **جيمس فارمر** في أن يبدأ مسيرة شعبية لتحطيم هذه القيود، وفعلاً، قام بالاتصالات اللازمة قبل بدء المسيرة، وتكوّنت فرق من المسافرين السود والبيض، وركبوا الحافلات، وتحدّوا الأوضاع القائمة في المحطات، وتدخل الجمهور والشرطة في الولايات الجنوبية بوحشية ضدّ هؤلاء الركاب، الأمر الذي أثار ضجة كبرى، وتدخل **روبرت كينيدي** المدعي العام في عهد الرئيس **كينيدي**.

وأسرعت المنظمات الزنجية إلى دخول ساحات المحاكم وبدء ضغوط على الرأي العام ووسائل الإعلام لكسب جولة ضد التفرقة العنصرية في **أميركا**، وقد استفادت منظمة **(كور)** من هذه الحركة فقد

أكسبتها اسماً شعبياً، وتزايد عدد أعضائها، وبرز اسم رئيسها كمنظم لحركات شعبية على أساس فلسفة عدم العنف.

كل هذه المقدمات والخطوات سبقت الزحف الكبير إلى **واشنطن** عام 1963، وهي التي دفعت المنظمات الزنجية إلى الحركة خوفاً من أن يفوتها القطار، ويهجرها أعضاؤها، نتيجة لتزايد السخط والقلق العام بين جماهير الزنوج من الأوضاع المحافظة والتفكير المحافظ الراكد الذي يجثم على قلب هذه المنظمات القديمة، ولا بد من كلمة تقدير للدور **الذي قام به الرئيس الراحل كينيدي وشقيقه روبرت كينيدي في مدّ يد العون لهذه الخطوات المناهضة للتفرقة العنصرية**، وهذا يبدو في الكتاب الذي ألفه صحفي أمريكي يدعى: **هاري جولدن** باسم **«المستر كينيدي والنجرو»** ويسجل الإجراءات التي تمت في عهد رئاسة الرئيس الراحل **جون كينيدي** والاتصالات التي أجراها المؤلف مع زعامات المنظمات الزنجية، وما أبدوه، وما قاموا به من دور، وما حقّقته منظماتهم من خطوات..

أما على صعيد الزحف الكبير، فهناك عديد من المطبوعات تصف ما حدث يوم 28 آب/أغسطس عام 1963، ونختار منها الكتاب المصوَّر الذي أصدرته **مؤسسة جونسون للنشر بشيكاغو**، وهي مؤسسة زنجية مشهورة في الولايات المتحدة، واسم الكتاب **«يوم الزحف»** ويقول:

إن الزحف كان بداية لميلاد شيء جديد، وإنه كان النهاية لشيء قديم، فقد جاء اليوم بمناسبة **مرور مائة عام و240 يوماً على توقيع إعلان التحرر من الرق**، وإن اليوم المحدد كان بمثابة الدوامة العاصفة في بحر هادىء، وقد شاهدها، وأحس بها ملايين الناس في **أميركا**، وأنها كانت علامة ذات معنى.

ولقد جاء الناس في هذا اليوم من جميع أنحاء **أميركا**، واتجهوا إلى **واشنطن**، وساروا حوالي ميل، **ليقفوا أمام تمثال لنكولن**، ليقولوا له: **إن** الزنوج الأمريكيين انتظروا مائة عام و240 يوماً ليحصلوا على حريتهم، ولكنهم لم يحصلوا عليها.. وأصل الفكرة هي من بنات أفكار **فيليب واندولف** والذي يرأس حالياً **رابطة عمال عربات النوم**، كما يشغل منصب نائب رئيس اتحاد النقابات الأمريكي، وهو الرجل الذي هدّد الرئيس **روزفلت** عام 1941، بالزحف على **واشنطن** إنْ لم يصدر قراراً بإلغاء قواعد التفرقة العنصرية في صناعات الحرب، وأن تحل محلها قواعد المنافسة المتكافئة. ولقد اقترح أن يتم الزحف الشعبي عام 1963، ووافقت **المنظمات الزنجية الخمس** على مقترحاته، وهذه المنظمات هي **الجمعية لتقدم الملونين NAACP**، **مؤتمر قيادات الجنوبيين المسيحيين** SCLC، **الرابطة القومية للعمل في البيئة الحضرية** N.U.I.، **مجلس المساواة العنصرية** CORE، **لجنة تنسيق العمل الطلابي السلمي** SMICK وقد أيّدتهم منظمات كاثوليكية ويهودية وقيادات عمالية، وتم تنظيم العمل باختيار **راندولف** مديراً للزحف، **وبايارد راستن** نائباً له، وهو رئيس تحرير مجلة «**ليبريشن**» الراديكالية الزنجية.. وفي أثناء مهمة التنظيم والإعداد للزحف توالت الاتهامات ضدّ الحركة من العنصريين، وهذا جعل منظموه يتخذون إجراءات أمن داخلية لمنع الاضطرابات والشغب، كما امتنعوا عن الاتصال بالمنظمات الشيوعية، وأعلنوا أن هدفهم هو لفت نظر **الكونغرس** لإصدار قانون الحقوق المدنية. وفعلاً، بدأ توافد الناس من جميع أنحاء **أميركا** بواسطة جميع وسائل النقل المتعددة، وكان المشتركون من جميع فئات وعناصر وطبقات الشعب الأمريكي، وتوالى وصول المشتركين في الزحف إلى **واشنطن** حتى وصل عددهم ما بين 90 ألفاً

و 100 ألف من الأفراد، وساروا عبر الشوارع إلى تمثال **لنكولن**، وتكلّم الزعماء هناك، ثم انصرف الجميع في هدوء.

والذين تكلموا هم **فيليب راندولف** عن العمال الزنوج، **وروي ويلكنو** السكرتير العام للجمعية القومية لتقدم الملونين، **ووايتني يونغ** المدير التنفيذي للرابطة القومية للعمل في البيئة الحضرية، **وجيمس فارمر** الرئيس القومي لمجلس المساواة العنصرية، **وجون لويس** رئيس لجنة تنسيق العمل الطلابي السلمي، **ومارتن لوثر كنج** رئيس مؤتمر القيادات المسيحية الجنوبية، وبجانبهم تكلم مؤيداً **والتر رويتر** نائب رئيس اتحاد نقابات العمال الأمريكي، **ومايتوإهمان** المدير التنفيذي للمؤتمر الكاثوليكي من أجل العدالة بين الأجناس، **وأوجين كارسون بلاك** نائب رئيس لجنة الدين والأجناس التابعة لمجلس الكنائس القومي، **وجواشيم برنز** رئيس المجلس اليهودي الأمريكي.

وقد رفع المشتركون في الزحف شعاراً هو: (**الزحف إلى واشنطن من أجل الوظائف والحرية يوم 28 آب/أغسطس 1963**).

وقد أصدر الرئيس **كينيدي** بياناً عقب استقباله **في البيت الأبيض** للزعماء الذين قادوا الزحف الكبير، قال فيه: إن **أميركا** شاهدت في هذا اليوم عشرات الألوف من الأمريكيين الزنوج والبيض يعبِّرون عن حقهم في التجمع الحر للفت الأنظار إلى قضيتهم، وإن مطلبهم المساواة والعدل في المعاملة والفرصة بصرف النظر عن اللون والجنس والدين والقومية.. هو مطلب عادل مفهوم للجميع، وإن الوعي العام بهذا المطلب يلمسه الجميع بشكل ظاهر، وعلى الرغم من أن صيف عام 1963، شهد تقدماً في ترجمة مبادىء الحقوق المدنية إلى واقع تطبيقي، إلا أن أمامنا طريقاً طويلاً لا بد أن نجتازه،

وإن الإدارة التنفيذية الفيدرالية سوف تواصل جهودها لإنهاء التفرقة في إجراءات التوظيف والعمل بجانب جهودها لتقديم تشريع **للكونغرس** يحوي قانوناً للحقوق المدنية، ويحوي أيضاً مقترحات لتنمية الاستفادة من القوى البشرية وتدريبها وبدء مشروع لدراسة برامج العمل وتوسيع فرص التعليم.

وأمام تمثال **لنكولن** أقسم المشتركون على التزامهم التام بالكفاح من أجل تيسير الوظائف والعمل والحريات لجميع الأمريكيين بدون تفرقة، وأن لا يهدأ الكفاح حتى يتم إقرار مطالبهم، وأن يتم هذا الكفاح في إطار التقليد الديموقراطي، وبأسلوب سلمي، وخلال الأجهزة القضائية والتشريعية للبلاد، كما أعلنوا أن أهدافهم هي:

1 ـ قانون للحقوق المدنية يحتوي على ضمانات للمساواة في الاستفادة من الخدمات العامة، والاندماج في المدارس، وحماية حق التصويت في الانتخابات العامة، وتحسين أحوال الإسكان، وحق المدعي العام في أن يحمي حقوق المواطنين الدستورية من أي انتهاك.

2 ـ إيقاف التمويل الفيدرالي لأي برنامج يتمسك بالتفرقة العنصرية.

3 ـ إلغاء التفرقة العنصرية من جميع المدارس ابتداء من عام 1963.

4 ـ تخفيض عدد المقاعد المخصصة في **الكونغرس** لأي ولاية تمنع المواطنين من المشاركة في التصويت والاقتراع العام.

5 ـ إصدار قرارات فيدرالية ضد التفرقة في برامج الإسكان. .

6 ـ برامج فيدرالية واسعة للتدريب المهني بالنسبة للعاطلين عن العمل.

7 ـ رفع الحد الأدنى للأجور بواقع دولارين للساعة الواحدة بدلاً من دولار وربع للساعة الواحدة.

8 ـ إصدار تشريع بامتداد قواعد المعاملة العادلة المتكافئة ليشمل جميع قطاعات العمل في البلاد.

9 ـ قرار فيدرالي يمنع أي نوع من التفرقة في جميع المستويات الوظيفية.

قانون الحقوق المدنية 1964:

قدمت حكومة الرئيس **كينيدي** مشروع القانون إلى **الكونغرس** لإقراره، وعلى الرغم من اغتيال الرئيس **كينيدي**، فقد أعلن الرئيس **جونسون** أنه يلتزم بالعمل على إصدار القانون، وتم إصدار القانون قبل الانتخابات العامة لمنصب رئيس الولايات المتحدة التي تمت في نوفمبر (تشرين الثاني) 1964.

والقانون يعالج مشكلات عديدة في حياة **النجرو**، في مقدمتها حق التصويت، وعدم المساواة في المعاملة بين الأسود والأبيض حين التقديم للقيد في دفاتر الناخبين بواسطة الانتخابات، وأيضاً يعالج مشكلات التفرقة في الخدمات العامة والتفرقة في المدارس، ويقضي بتأليف لجنة فيديرالية للحقوق المدنية، ويقر مبدأ المساواة في العمل.. الخ.

وقد قابل الزنوج الأمريكيون صدور القانون بابتهاج شديد، وشاركوا في الانتخابات عام 1964، ولكن، بمضي الوقت، تبين أن

القانون ما زال عاجزاً عن حل جميع المشكلات الماسة التي تهدد حياتهم، كما أن عدداً كبيراً من الولايات الجنوبية قد أساء تطبيق النصوص، الأمر الذي أوجد من جديد الاضطرابات بين الزنوج، آخرها ما حدث في **كاليفورنيا** بمدينة **لوس أنجلوس** عام 1965، وقد دعا هذا الرئيس **جونسون** للتقدم إلى **الكونغرس** طالبا استصدار تشريع يقضي بإنشاء دفاتر جديدة لقيد أسماء الناخبين في الانتخابات الفيدرالية على أساس المساواة، وعدم وضع قيود وعراقيل أمام الناخبين، في محاولة لإيجاد حل جزئي للمشكلة التي يعانيها الناخبون الزنوج في الولايات الجنوبية، حيث يشكّلون في مناطق عديدة أغلبية تستطيع أن تتحكم في نتائج الانتخابات.

السود في المجتمع الأميركي(*)

أقلية كبيرة وقديمة، متميزة لوناً وعرقاً، من سكان **الولايات المتحدة**. عانت وما تزال من الاضطهاد العنصري والطبقي، تنحدر من أصل أفريقي، وجلب أفرادها من قبل الأميركيين البيض كعبيد للعمل في المزارع والمصانع والبيوت الأميركية عبر عدة قرون من الزمان، يبلغ **تعدادهم** حوالى ستة وعشرين مليون نسمة أي ما يقارب من 11,4% من مجموع سكان الولايات المتحدة.

استوطن السود الولايات الجنوبية لحاجة المزارعين البيض لهم هناك، وما زال نصف الأميركيين السود يقطنون الأرياف الجنوبية، إلا أن نسبة متزايدة رحلت إلى الشمال ثم إلى الغرب الصناعيين منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وقد استقر حوالى 97% من هؤلاء في المدن الكبرى نصفهم في أحياء سكنية خاصة بهم **(غيتو)**. وقد ارتفعت نسبتهم في المدن الكبرى إلى 21% عام 1970 (منهم مليونان ونصف في نيويورك و 1,6 في كاليفورنيا و 1,5 في الينوي). وهم يشكلون 30% من فقراء الولايات المتحدة، ويعتبرون من أكثر شرائح المجتمع الأميركي فقراً.

(*) **المرجع**: «موسوعة السياسة» الجزء الثالث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الأولى 1983، ص 280 ـ 284.

إن ظروف استقدام السود إلى الولايات المتحدة قد خلقت تراثاً وتراكماً سلبياً حاداً عقد تقدمهم في المجتمع الأميركي. فقد عامل البيض السود على امتداد حقبة طويلة من الزمن معاملة العبيد مما غرس في نفوس عدد كبير من البيض الشعور العميق **بالتفوق العنصري** عليهم، وتميزت فترة العبودية هذه بالاستغلال الاقتصادي الأقصى والاضطهاد السياسي الكامل وباستباحة أعراض السود وممارسة سحل وحرق من يتمرد منهم بل ومعاقبة أولئك البيض الذين يقدمون على تعليم السود الكتابة والقراءة.

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر أخذ الشمال الصناعي يبرز كقوة اقتصادية واجتماعية رئيسية في المجتمع الأميركي على حساب قوة الجنوب الزراعي، الأمر الذي بدأ ينعكس على بعض القرارات والتشريعات السياسية في المؤسسات **الفدرالية** الأميركية. وفي عام 1861 وافق **الكونغرس** على منح السود حق الخدمة في الجيش. وكان توجه الشمال والرئيس **أبراهام لنكولن** نحو إعلان تحرير العبيد في تلك الحقبة من أسباب **الحرب الأهلية الأميركية الطاحنة** بين الشمال والجنوب. وبعد انتصار الشمال في الحرب الأهلية وافق الكونغرس (في عام 1868) على التعديل الرابع عشر للدستور الأميركي الذي أقر الحماية لجميع المواطنين. وبعد سبعة أعوام من هذا التاريخ أقر الكونغرس القوانين المدنية التي تحظر التمييز العنصري في الأماكن العامة، الأمر الذي أفسح المجال لهجرة السود من مزارع الجنوب إلى مصانع الشمال حيث لم يكن اضطهاد السود تراثاً راسخاً (تغير هذا الموقف فيما بعد). وكان إصدار الزنجي وليام دوبوا في عام 1896 سلسلة دراسات اجتماعية حول الزنوج بمثابة مؤشر لتحركهم السياسي، الذي تجسد بتأسيس حركة **نياغارا**

عام 1905 وبصدور مجلة باسم هذه الحركة. ومع ذلك فقد بقي تقدم النضال السياسي للسود بطيئاً ومشاركتهم في المناصب السياسية العامة، أو حتى في الانتخابات، متدنية، والتمييز ضدهم في الإسكان والمواصلات والتعليم قوياً وفعالاً. وقد شكل قرار المحكمة العليا في أيار ـ مايو 1954 الخاص بعدم شرعية التمييز العنصري في المدارس الحكومية نقطة انعطاف هام وبداية تحرك نحو انطلاق حركة الحقوق المدنية. وفي عام 1957 صدر قانون ضمان حق التصويت لجميع المواطنين الأميركيين. ـ وبعد ست سنوات نظمت حركة الحقوق المدنية أكبر مظاهرة من نوعها عرفت «بالمسيرة نحو واشنطن» دعا على أثرها الرئيس جون كينيدي الكونغرس لاتخاذ قرارات عاجلة ضد التمييز العنصري في المدارس والأماكن والمرافق العامة والإسكان والنقابات العمالية وهو ما أقره الكونغرس في العام التالي.

إن صدور القرارات والقوانين لم يعطِ نتائج إيجابية سريعة وفعّالة، إذ بقيت شرائح قوية ونافذة من الطبقة الحاكمة معارضة لإلغاء ممارسات التمييز العنصري، إضافة إلى تأصل الشعور **بالتفوق** العنصري عند قطاعات هامة من الأغلبية البيضاء، الأمر الذي ولد شعوراً بالغضب لدى السود، وعمل على تطوير الوعي السياسي باتجاه تجاوز الأساليب السلمية للزعيم الديني السياسي مارتن لوثر كنغ والإطار التنظيمي المتمثل في **الرابطة الوطنية لتقدم الملونين**، وأخذ مركز الثقل السياسي النضالي ينتقل من الولايات الجنوبية إلى أحياء السود الفقيرة في الشمال والغرب، مثل هارلم في نيويورك وواطس في لوس أنجلوس. وعلى الرغم من محاولات كنغ وغيره من أمثاله تكييف النضال السلمي عن طريق تظاهرات الاحتجاج وتعبئة الرأي العام لصالح قضية السود، فإن ستوكلي كارمايكل طرح نظرية **القوة السوداء**

في عام 1966. وشهد صيف عام 1967 اشتباكات عنيفة بين السود والبوليس. وفي العام نفسه قام كنغ بإعلان خطة عصيان مدني لربيع 1968، وأنشأ منظمة «المفاوضات الآن» بغية وقف التدخل الأميركي في فيتنام، حيث كان السود يتحملون عبئاً يفوق نسبتهم من عدد سكان الولايات المتحدة.

وفي عام 1968 حاول الرئيس ليندون **جونسون** تهدئة الموقف المتفجر في المدن الأميركية، فأعلن تخصيص خمسة مليارات دولار من أجل توفير السكن للعائلات الفقيرة، ووافق مجلس الشيوخ بتاريخ 11 آذار ـ مارس 1968 على قانون الحقوق المدنية. إلا أن العديد من القرارات الخاصة بتخفيف البطالة والعوز والتمييز ضد السود بقيت دون تنفيذ، وأقدمت جهات متصلة بمكتب التحقيقات الفدرالي (مباحث الدولة) وبضلوع من الرئيس جونسون على تنفيذ خطة «كوانتلبرو» المعادية للسود بدأت باغتيال كنغ (المسيح الأسود) بعد قيامه بقيادة تظاهرات شعبية الأمر الذي أدى إلى نشوب الاضطرابات والعنف في أكثر من 120 مدينة. وقد تبين فيما بعد من وثائق أميركية رسمية أن مباحث الدولة حاولت تشويه سمعة قادة السود، وشاركت في التخلص من كنغ ومالكولم إكس وفريد هامبثون بغية عدم ظهور قيادة سوداء قادرة على تعبئة السود وقيادتهم في نضالهم من أجل حقوقهم المشروعة. وبعد مقتل كنغ ركزت المباحث الفدرالية جهودها على محاربة حزب **الفهود السود**، وقتلت العديد من قادته واستنزفت آخرين منهم بقضايا قانونية ملفقة وشرّدت الباقين. ومع مجيء الرئيس **نيكسون** إلى سدة الرئاسة (1968 ـ 1974) كسبت السياسة العنصرية ضد السود نصيراً جديداً في **البيت الأبيض**. كما أن لإقدام الرئيس **ريغان** على قطع الأموال عن برامج المساعدات الاجتماعية وبرامج

التدريب المهني للعاطلين عن العمل أثر سلبي منظور على حالة جماهير السود في الولايات المتحدة، إضافة إلى أن نمو البطالة وتفشي التضخم يضر بالسود أكثر من سواهم من الأميركيين.

التيارات والمنظمات السياسية: تجاذب العمل السياسي في أوساط السود وقاد كفاحهم من أجل الحرية والمساواة تياران مختلفان متفاعلان. وقد تمثل التيار الأول والأقدم بالدعوة إلى دمج السود بالمجتمع الأميركي عن طريق نيل الحقوق المدنية، وقاد هذا التيار كما أسلفنا لوثر كنغ والرابطة الوطنية لتقدم الملونين. أما التيار الثاني فقد نشأ كردّة فعل لبطء إنجازات التيار الأول، فنادى بإقامة مؤسسات خاصة بالسود وحيازة الوسائل الفعالة واستخدامها في فرض حقوق الشعب الأسود في وجه محاربة العنصريين البيض لهذه الحقوق، وتباطؤ الطبقة الحاكمة في تطبيق المساواة بموجب الدستور الأميركي وقرارات الكونغرس، وعرف هذا التيار «بالقوة السوداء».

وعلى الرغم من أن فكرة القوة السوداء تعود في جوهرها إلى أيام العبودية عندما طالب هنري غارنت بالقضاء على العبودية بواسطة العنف، فإن تبلور نظرية القوة السوداء تم في «مؤتمر المساواة العنصرية» المنعقد في صيف 1966. وقد عرّف ستوكلي **كارمايكل**، أحد أبرز دعاة القوة السوداء، في كتاب له عن الموضوع مع تشارلز هاملتون القوة السوداء على أنها أسلوب خاص لخلق مؤسسات شرعية للأميركيين السود وطريقة لخلق الثقة في نفس الزنجي الأميركي للتغلب على الغربة. وقد عارض هذه النظرية مارتن لوثر كنغ وغيره ممن رأوا في النظرية ادعاء بتفوق السود وبأن القول بذلك سيىء كالقول بنظرية تفوق البيض ويشكل دعوة لتقسيم الولايات المتحدة إلى أمتين منفصلتين.

وبالفعل فإن أنصار القوة السوداء أكدوا في مؤتمراتهم السنوية (66 ـ 70) شجبهم للممارسات الخاطئة للتيار السلمي المسيحي الذي يترأسه كنغ وبنظرية الأمتين الأميركيتين ومعارضتهم لحرب فيتنام ومطالبتهم بامتناع السود عن الخدمة في القوات المسلحة. وفي النصف الثاني من الستينات نمت حركة القوة السوداء لتصبح أداة محركة نشيطة لنضال السود. وحولت النشاط السياسي الأسود من الاحتجاج إلى الوجود الحركي السياسي المستمر.

وفي عام 1972 ارتفع عدد أعضاء الكونغرس من السود إلى 16 عضواً وازداد عدد رؤساء البلديات منهم وتم التقارب بين القوة السوداء وحركة الحقوق المدنية، وأفرزت التطورات قيادات جديدة، بعد أن شتت مكتب التحقيقات الفدرالية شمل القيادات القديمة، كالخلية السوداء (أعضاء الكونغرس) ورؤساء البلديات السود والقس رالف أبرناتي والقس جيسي جاكسون وجوليان بوند وغيرهم.

أما المنظمات السياسية الرئيسية للقوة السوداء فهي حزب الفهود السود ومنظمة المسلمين السود ولجنة عدم العنف الطلابية للتنسيق، بينما شملت حركة الحقوق المدنية المنظمات التالية: نياغارا، الرابطة الوطنية لتقدم الملونين، العصبة المدنية القومية، مجلس المساواة العنصرية، مؤتمر قيادة الجنوب المسيحية، عملية سلة الخبز، الشعب الموحد لخلاص الإنسانية.

الواقع الاجتماعي السياسي المعاصر: عانى السود في الولايات المتحدة من التمييز العنصري العميق في نفوس البيض ومن الاضطهاد والتخلف الطبقي. وعلى الرغم من المنجزات السياسية والاجتماعية للحركة السوداء فإن السود ما زالوا يعانون من التفاوت الاقتصادي

والسياسي مع الفئات الأخرى في المجتمع الأميركي. ذلك أن معدل دخل السود يقارب نصف دخل البيض والبطالة في صفوفهم هي أكثر من ضعف معدل البطالة للبيض. وفي مجال التعليم يعاني السود من التمييز العنصري في الجامعات والمدارس إضافة إلى أن مستوى دخل الأهل والصعوبة في المواصلات العامة تزيد من مشاكل الطلاب السود وتسهم في ارتفاع نسبة الطلاب السود الذين يتركون المدارس والجامعات قبل التخرج. أما التمييز ضد السود في القوات المسلحة سواء بالنسبة لاستخدامهم في الأعمال الخطرة (وبالتالي نسبتهم من القتلى في حرب فيتنام) أو بالنسبة لموقعهم المتردي في الهرم القيادي العسكري، لدرجة اضطر معها ميلفن ليرد وزير الدفاع الأميركي (1972) إلى الاعتراف بوجود تمييز منظم وموجه ضد السود في القوات المسلحة الأميركية.

وقد أدى التدني في التمييز والتخلف في العمل والعلم إلى التخلف في الميادين الأخرى (عدا الموسيقى والرياضة). فتمثيل السود في الحياة الأميركية يتصف بالضآلة فهم يشكلون 1% من الحائزين على الوظائف الرسمية المنتخبة، علماً بأنهم يمثلون حوالى 10% من مجموع الناخبين، كما أن فعاليتهم الانتخابية ضعيفة بسبب تراكم آثار الاضطهاد واللامبالاة من جهة والتوزيع الجغرافي الذي يضعف الثقل السياسي من جهة أخرى. وقد حاول النواب السود (الخلية السوداء) لعب دور سياسي موحد في اتجاه الزام الحكومة بإفساح المجال للعمل والتدريب وإعانة الفقراء، إلا أن نجاح هؤلاء النواب بقي محدوداً. أما في مجال البلديات فقد تمكن السود من إيصال 170 مرشحاً أسود لرئاسة البلديات في عام 1979، إلا أن أثر ذلك بقي محدوداً في مجال تقديم بعض الخدمات البلدية للسكان

المحليين. والملاحظ في هذا المجال هو أن بعض قادة اليهود وأنصار الصهيونية يلعبون دوراً معادياً لتقدم السود السياسي والاجتماعي.

ويبدو أن الوضع المتفاقم في المدن الأميركية الكبرى، حيث يتركز وجود السود، دفع بعض الهيئات الهامة في تخطيط وتوجيه أعمال الطبقة السياسية العليا إلى التفكير بتهدئة الموقف من خلال انتخاب رئيس جديد في الانتخابات الرئاسية 1975 ـ 1976 فوقع اختيار **اللجنة الثلاثية** على جيمي كارتر حاكم ولاية جورجيا والذي كان يتمتع بصفات تقربه من الرجل العادي والأسود منها التدين والاطلاع على مشاكل السود ووجود صلات شخصية مع بعض قادة الحقوق المدنية من السود. وبالفعل فقد أدى نجاح كارتر وتعيينه لبعض مستشاريه السود في مناصب بارزة، إضافة إلى بعض التشريعات الإنعاشية إلى تهدئة الموقف مؤقتاً. وقد ساعدت الأيام على كشف سطحية توجه كارتر وخضوعه الحقيقي للمصالح الكبرى الحاكمة في النظام الأميركي، وعملت أزمة أندرو يونغ مندوب الولايات المتحدة في **الأمم المتحدة** (مساعد مارتن لوثر كنغ) التي أثارتها الحركة الصهيونية بعد اجتماع يونغ بمندوب **منظمة التحرير الفلسطينية** على فضح ذلك بشكل علني صارخ.

الموقف من القضية الفلسطينية والعلاقات مع اليهود: تضمنت قضية أندرو يونغ كشف وجود رقابة من قبل المباحث الأميركية والاستخبارات الإسرائيلية عليه والشك بأنه لولا زنجيته لما اضطره إلى الاستقالة خصوصاً وأن ملتون ولف السفير الأميركي (اليهودي) في النمسا كان يجتمع بعصام السرطاوي **عضو المجلس الوطني الفلسطيني** دون أن يؤدي ذلك إلى أزمة. وقد تصاعد استياء السود عندما أعلنت الأوساط الصهيونية بأن الصراع العربي ـ الإسرائيلي ليس من

اختصاص السود، فما كان من أحد زعماء السود إلا أن ردّ على ذلك بقوله أن قضية الشرق الأوسط تهم السود أكثر من سواهم لأنهم أول من يجوع إذا كانت الحرب باردة، وأول من يموت إذا كانت الحرب ساخنة. كما صرح يونغ على أثر استقالته أن الظروف التي أحاطت باستقالته سوف تجعل السود أكثر تأييداً للفلسطينيين.

وبعد أيام من استقالة أندرو يونغ وجه السيد **ياسر عرفات** رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية دعوة إلى القس جيسي جاكسون رئيس «الشعب الموحد لخلاص الإنسانية» وإلى مؤتمر قيادة الجنوب المسيحية لزيارة لبنان وإجراء محادثات معه حول القضية الفلسطينية والوضع في الشرق الأوسط. وقد لبى جاكسون كما لبى ممثلون عن مؤتمر قيادة الجنوب المسيحية دعوة منظمة التحرير واستقبلوا بترحاب واهتمام وأجرى معهم رئيس منظمة التحرير حوارات سياسية جادة، بينما رفض مناحيم **بيغن** رئيس وزراء الكيان الصهيوني استقبالهم على الرغم من أن الوفدين طالبا بوقف إطلاق النار وبالاعتراف المتبادل بين المنظمة وإسرائيل وبحق كل منهما بالأمن. وعلى الرغم من تمكن الحركة الصهيونية من تحريك بعض القادة الثانويين من السود وكذلك بعض المؤسسات السوداء التي تحظى بدعم يهودي أو التي تخضع خضوعاً كبيراً لبعض هيئات الحكومة الأميركية للإعلان عن تأييد إسرائيل، فإن استقالة أندرو يونغ وما رافقها وأعقبها من استخفاف وازدراء صهيوني بالسود وبحقهم في المشاركة في مناقشة قضايا السياسة الخارجية، أسهم في رفع درجة الوعي من جهة والتأييد من جهة أخرى للحقوق الفلسطينية على نطاق أوسع من ذي قبل والذي كاد يكون محصوراً بالفئات الطلابية والثورية.

إلا أن القضية الفلسطينية لم تكن مسألة الخلاف الوحيدة مع الجاليات اليهودية في الولايات المتحدة إذ أن موقف اليهود المؤيد للعنصريين البيض في جنوب إفريقيا من جهة، وتباين المواقف من القضايا الاجتماعية والاقتصادية الداخلية من جهة أخرى من الأمور التي جعلت العلاقات تتصف بالتوتر. لقد عارض قادة الجاليات اليهودية الأميركية «برامج العمل الإيجابي» (1967) والكوتا (الحصص الثابتة) في الوظائف والدمج في المدارس وغير ذلك من إجراءات قانونية واجتماعية لصالح تحقيق درجة أكبر من المساواة داخل المجتمع الأميركي.

إن مجالات التفهم من قبل الأوساط السياسية والشعبية السوداء للقضايا العربية، ولا سيما القضية الفلسطينية، باتت الآن أرحب وأكثر فعالية مما مضى، خصوصاً إذا تمكنت القيادات السوداء من نشر الوعي السياسي والمشاركة في الحياة السياسية العامة بين جماهير السود في المستقبل، مقابل حرص العرب على التجاوب في حوار متصل يستهدف التفهم والتأييد المتبادل.

يبقى القول أنه على الرغم من الإنجازات العديدة التي حققها نضال السود من أجل المساواة القانونية، فإن مسيرة النضال من أجل تحقيق المشاركة الحقيقية في السلطان السياسي وفي تحصيل المنافع والحقوق الاقتصادية والاجتماعية أسوة بغيرهم من الفئات في المجتمع الأميركي، تبقى مسيرة صعبة وطويلة.

الملونون يقتحمون الحياة العامة
والبيض الفئة العرقية الأكثر تنوعاً(*)

تعيش أميركا اليوم ظاهرة تغير في البنية العرقية والأثنية للمجتمع سواء في النظرة الشعبية إلى الموضوع من النواحي الثقافية والاجتماعية والانتماء أم في النظرة الرسمية إليه لجهة توسيع فئات تسجيل المواطنين الأميركيين عرقياً لما تدعي أنه يهدف إلى «القضاء على التمييز وتأمين العدالة في الفرص والتجاوب بطريقة أفضل مع متطلبات الأفراد». وقامت في هذا البلد حركات متعددة في محاولات لإثبات العنصر الأسود، أول المجموعات الملونة الواصلة إلى أميركا بعد إنشائها، وجوده وانتزاع حقوقه بعدما عانى ما عاناه من تمييز وتنكيل وإحتقار. فمن حركة الدفاع عن الحقوق المدنية للسود والنضال من أجل الانخراط في المجتمع إلى موجة الهيب ـ هوب التي رفضت أسلوب أسلافها النضالي وحاولت تثبيت نفسها على المجتمع الأبيض بفرض ثقافة معينة، إلى دعاة الاختلاط العرقي والاجتماعي، بدأ المجتمع الأميركي يعيش تغيرات حقيقية أرادها البعض وسعى إليها

(*) المرجع: بهاء الرملي في مقالته بمجلة «الشاهد». العدد 210. فبراير/شباط 2003. ص 72 ـ 77.

وفرضت على البعض الآخر. ومع نظرية «قطرة الدم الواحدة» واجتياح الثقافات «الملونة» بالموسيقى والغناء والرسم وابطال السينما والتلفزيون والإعلان والرياضة صفوف الشباب الأميركي فهل سيبقى وجه أميركا كما عرفه العالم إلى اليوم «أبيض» أم أنه سيتحول إلى شيء آخر، إلى مزيج هجين؟ وما هي درجة قبول الواقع الجديد لدى المجموعة البيضاء التي اعتادت السيطرة والنفوذ؟ وكيف ستكون ردة فعل الأقليات التي ترى هويتها تذوب في مجتمع يتعرض لموجات هجرة كثيفة ولاختلاط عرقي واسع؟.

يتألف المجتمع الأميركي من 126 تركيبة أو خلطة عرقية حددتها السلطات ليختار منها المواطن الأميركي في إحصاء عام 2000 الفئة التي تناسب وضعه. ومع هذا الإحصاء تمكن هذا المجتمع، الذي «يسكنه هاجس اللون الأبيض»، للمرة الأولى من تحديد أنه ينتمي إلى أكثر من عرق. فالإحصاءات السابقة كانت تغفل هذا التنوع وتفرض اختيار عرق واحد. وللمرة الأولى أيضاً تتجاوب الحكومة الفدرالية مع مطالب مزمنة تدعو لاختيار أكثر من عرق، لكنها رفضت مطلب الانتماء لفئة «متعددي الأعراق» رغم كثرة الذين يفضلونها ويرفضون فكرة حصرهم في فئات عرقية محددة التي من شأنها مفاقمة التفرقة العنصرية في البلاد. ويسأل البعض عما إذا لم تكن للحكومة مصلحة في إلغاء الأسئلة المتعلقة بالعرق في الإحصاءات السكانية. أكثر من ذلك، يقول عالم الاجتماع في جامعة كاليفورنيا يهودي ويبستر إن «الولايات المتحدة ليست لديها مشكلة عرقية بل مشكلة منطق» مستشهداً بتجربة الأوروبيين في التخلي عن فكرة الأعراق منذ قرون واختلاطهم بالناس الذين استعمروهم في القارات التي فتحوها وإلغاء الحدود التي رسموها هم. وهو يرى أن معظم علماء الأجناس البشرية

يتفقون على أن فكرة العرق ليس لها أي أساس، فالعالم فيه كثير من التهجين لكن في الولايات المتحدة الأميركية يبقى لون البشرة دائماً عنصراً أساسياً في المجتمع وفي السياسة ويؤثر في طريقة النظر إلى الناس في كل الظروف والأحوال. لكن النظرة الرسمية الأميركية إلى هذا الموضوع تخالف كل المعتقدات وتتحجج بأنه بتقسيم الناس عرقياً يمكن الوصول بشكل أفضل إلى أفراد المجتمع جميعهم ومعرفة متطلباتهم وتلبيتها بطريقة أفضل!.

نقطة دم تثير جدلاً

أظهرت الإحصاءات في أميركا أن 70 بالمئة من الشعب الأسود فيه دم غير أسود لا سيما دم إسكتلندي وإيرلندي أو أميركي ـ هندي، ومع ذلك تصنف هذه الفئة بأنها سوداء، ومرد ذلك إلى «اختراع» أميركي يعرف باسم نظرية «نقطة دم واحدة». هذا التصنيف العنصري أثار ردة فعل مثلثة الجوانب لدى عدد من الأميركيين الأفارقة المناهضين للتمييز العنصري فرأوا أنه إذا كان لهذه النظرية من فضل فهو صفة الوضوح، وهي مهما بدت غير عادلة فإن لها حسنة جعل المجتمع الأسود يتكاثر، بالإضافة إلى أنها خلقت قوة سياسية قادها في حينه هجينون أمثال دوبوا ورالف بونش وغيرهما. وتعليقاً على هذا الواقع يقول الأستاذ الجامعي جيمس دايفيس «إن المجموعة السوداء تعلمت أن تحب كل الفوارق التي تميزها».

ومع نظرية نقطة الدم الواحدة تختلف نظرة الأشخاص إلى أنفسهم وإلى وضعهم. فمنهم من يقول إن المجتمع يفرض عليه هذه النظرية وهو يقبلها ويذعن للأمر الواقع و«سواء أعجبنا ذلك أم لم يعجبنا فالأمور هي هكذا». وثمة من يرفضها لما تحمله من تفرقة

عنصرية تتجلى في التعاطي الشعبي بين من يعنيهم الموضوع حتى في صفوف السود. وفي هذا الإطار يقول الصحافي الهجين إيليوت لويس «يصفني السود بأنني ابن زنا». ويخلص من تجربته وتجربة أمثاله إلى القول «عندما يلاحق الإنسان بهذا النوع من الملاحظات والانتقادات منذ طفولته فسينتهي به الأمر حكماً إلى السؤال عن موقعه في المجتمع» وتتشوش هويته وشخصيته.

من هو الأبيض؟

غير أن التفرقة أو التمايز العنصري لم ينته عند هذا الحد بل تسلل مع الوقت إلى داخل المجتمع الأبيض الذي بات يشمل مروحة واسعة من الأعراق والأثنيات ولم يعد الأميركي الأبيض التقليدي هو ذلك الأنكلوساكسوني والساكسون البروتستانت وأبيض أنكلوساكسون بروتستانت بل دخلت عليه صور جديدة من أوروبا الشرقية وروسيا وغيرها. فموجات الهجرة الوافدة وسعت التعريفات العرقية التقليدية في الولايات المتحدة الأميركية (أبيض، أسود، هندي، لاتيني) الأمر الذي جعل البيض الفئة الأكثر تنوعاً. فالمهاجرون الجدد كانوا دائماً يفضلون الانتماء إلى خانة «أبيض» لغير اعتبار فبالنسبة للأجيال القديمة كانت لهذه الهوية «قيمة حتمية» لا سيما إذا كان المهاجرون يأتون من دول يتعرض فيها غير البيض لتمييز عنصري منهجي. أما الأجيال الجيدة من المهاجرين فترى أن الأبيض هو مرادف للانخراط ولظروف أفضل في المستقبل.

هذه الميول والاتجاهات ظهرت في إحصاء عام 2000 الذي بيّن أن 28 مليون مقيم هم من أصول غريبة ثلثاهم اعتبروا أنفسهم بيضاً. وهذا تطور مهم مقارنة مع نتيجة إحصاء 1990 التي أظهرت أن

50 بالمئة فقط من السكان ذوي الأصول الغريبة اعتبروا أنفسهم بيضاً. ومن المؤشرات على التغيير في اختيار الفئة العرقية أن المهاجرين شكلوا 5 بالمئة فقط من مجموع البيض في إحصاء 1990 وارتفعت نسبتهم إلى 9 بالمئة في إحصاء 2000، وتبين أن (اللاتينو) أو المهاجرين من أميركا اللاتينية هم من رفع هذه النسبة كونهم يفضلون خانة أبيض وكونهم يشكلون أكبر مجموعة مهاجرين. ويرى الاختصاصي في علم السكان في جامعة كاليفورنيا الجنوبية دويل مير أن «الفئة البيضاء هي الأكثر تنوعاً على المستوى اللغوي ولا تكف عن التطور».

إلا أن الإحصاء أظهر أيضاً أن من هم دون الـ 18 عاماً من الخلاسيين هم أقل ميلاً من آبائهم إلى أن يكونوا بيضاً وهم أكثر منهم قدرة بمرتين على اعتبار أنفسهم ينتمون إلى أكثر من عرق (أبيض + عرق آخر، أسود + عرق آخر، آسيوي + عرق آخر الخ...) وثمة ملاحظة هي أنه كلما كانت العينة الديموغرافية شابة كلما كان المجتمع أكثر تنوعاً، الأمر الذي رأى فيه عالم الديموغرافيا في جامعة ميشيغان وليام آي «هوة عميقة بين الأجيال».

لون الفوارق والفرص

أما الدوافع الكامنة وراء ازدواجية الانتماء فهي أولاً اختيار «الأبيض» لمنافعه العملية وللفرص التي يتيحها في مجتمع ما زال يكرس هيمنة هذا العرق في الإدارة والمناصب القيادية وغيرها، رغم تسجيل تطور رسمي في النظرة إلى غير البيض في الفترة الأخيرة والذي كان من نتائجه اختيار الرئيس الأميركي جورج بوش شخصين لفريق عمله تنطبق عليهما نظرية نقطة دم واحدة هما مستشارته للأمن

القومي كونداليسا رايس ووزير الخارجية كولن باول، وثانياً اختيار الأصل العرقي الآخر إثباتاً للذات وتمرداً على الهيمنة.

إلى ذلك يميل عدد كبير من الخلاسيين المتأثرين بالثقافة اللاتينية إلى تبني فكرة لينة ومطاطة عن الانتماء العرقي تشبّه واقع أن يكون الإنسان أبيض بمساحة بلا حدود يدخلها ويخرج منها وفقاً لرغباته ولمزاجه، لذا فهم يعرفون عن أنفسهم بأنهم بيض.

وتشير دراسة فدرالية أجريت عام 1995 إلى أن 17 بالمئة من تلامذة المدارس المولودين من أبوين أبيض وأسود يختارون أبيض كعرق أساسي وترتفع النسبة إلى 50 بالمئة لدى الأولاد المولودين من أبوين أبيض وآسيوي. في السابق كان الخلاسيون يسجلون عموماً في خانة أقليات وليس في خانة أبيض، أما اليوم فبات الأشخاص يختارون الفئة التي يريدون الانتساب إليها، حتى الأشقاء باتوا يختارون الخانة التي تتناسب وتجربتهم الشخصية ومن الشهادات على ذلك قول خلاسية «لا أعرف ماذا يعني أن يكون الإنسان أبيض». وتقول أخرى عاشت في كندا قبل أن تنتقل إلى الولايات المتحدة الأميركية إنه في كندا كان لديها هوية أفقدها إياها التصنيف العرقي المعتمد في هذا البلد.

لكن، رغم هذا التطور وهذه الرغبة الشابة في الخروج على السيطرة البيضاء، أظهرت الأرقام أن 75 بالمئة من الشعب الأميركي ما زال يعلن عن نفسه أنه أبيض كلياً أو جزئياً وأن الوضع سيظل كذلك إلى 50 سنة مقبلة رغم استمرار الهجرة من أميركا اللاتينية ومن آسيا وغيرهما.

إثبات الذات بالثقافة

واللافت أن التطور في مواقف الشباب لم يقتصر على الجرأة في الاعتراف بأصوله الإثنية والعرقية المتعددة بل بلغت حد التمرد على الأفكار التي ناضلت من أجلها أجيال سابقة في سبيل إدماج السود بالمجتمع الأبيض وحركة ما عرف بالحقوق المدنية والتي كان من روادها مارتن لوثر كينغ. ولا بد من ملاحظة أن هوّة سحيقة تفصل بين مفاهيم جيل الحقوق المدنية وجيل الـ (هيب ـ هوب) ففيما يروج أنصار المدرسة القديمة أمثال جيسي جاكسون وغيره للوجوه القديمة ويعتبرونها فوق كل انتقاد، يرى جيل الـ هيب ـ هوب، الذي نشأ بعد الصراع من أجل الحقوق المدنية، أن الواقعية هي قبل كل شيء» وكل يعمل لنفسه، وهو يعتقد أن أسلوب أجداده وآبائه ينفخ في النار وأن الأقليات باندماجها كانت حتماً مكرسة للاستيعاب ما يعني «بيع النفس للشيطان الأبيض». هذا هو بالتحديد ما رفضه الجيل المدرك لتمايزه ولحقه في التمايز وفي أن يكون مختلفاً، والذي قرر التحدي والتصرف بأسلوب مختلف. فنان الراب Jay-Z قال تقديراً لمسار هذا التيار «لم نبذل مجهوداً للذهاب إلى البيض، إنهم هم من أتوا إلينا».

ويتحدث جيل الـ (هيب ـ هوب) عن تطلعاته ومثله الخاصة وهو يجد في الثقافة الأداة الحقيقية للتعبير وليس في السياسة وغزو المؤسسات السياسية كما كانت الحال مع جيل الحقوق المدنية. وإذا كانت حركة الحقوق المدنية ترجمت بزيادة عدد الناخبين السود فإن جيل الـ (هيب ـ هوب) يفخر بأنه أنتج شخصيات سوداء ثرية أدرجت أسماؤها على لائحة الأشخاص الأكثر ثراءً ممن هم دون الأربعين عاماً. ويجزم هذا الجيل بأن الأشخاص الأكثر اعتباراً سيكونون من الآن وصاعداً من أولئك الذين ينتمون إلى عالم الثقافة ولم يعودوا من

المحاربين السياسيين. وهم يرون أن وجوه المدرسة الجديدة فهمت أن السلطة في المجتمع الأميركي تقاس بالدولار.

وترسخت لدى أصحاب هذه النظرية قناعة بأن «كل شيء يتطور ولا شيء يبقى على حاله». فمحمد علي كلاي كان أحد أكثر الأشخاص المكروهين في الولايات المتحدة الأميركية وهو اليوم أحد أكبر الأبطال الأحياء في هذا البلد، وبالمنطق نفسه لم تعد ذكرى ميلاد مارتن لوثر كينغ سوى عطلة نهاية أسبوع طويلة، ولا يشكل هذا المناضل بالنسبة إلى أطفال الراب سوى صورة من صور إعلانية بعدما باعت عائلته صورته من مؤسسة الكتيل الفرنسية لتستثمرها في إعلاناتها. فما كان في السابق مقدساً بات اليوم دنيوياً أكثر فأكثر.

فنون «سمراء»

هذا الانقلاب الذي يعيشه جيل الشباب الذي ينتمي إلى أكثر من عرق في التعريف بنفسه والتعبير عنها، انسحب على السينما التي بقيت إلى أعوام قليلة مضت تقفل باب البطولات أمام الفنانين غير البيض إلى درجة حملت صحيفة رولينغ أوت الأميركية ـ الأفريقية على أن تضع في صدر صفحتها الأولى عنوان «ذا روك: كيف تكون أسوداً وتصير نجماً سينمائياً»، بعدما تألق الفنان الخلاسي (أسود + ساموا) The Rock في بطولة فيلم الملك العقرب الذي عرض في دور السينما في أميركا في أبريل الماضي. وكان سبقه الممثل الخلاسي (أسود + إيطالي) Vin Diesel إلى البطولة المطلقة في فيلم السريع والشرس الذي عرض عام 2001.

وفي سياق الكلام على حجب أدوار البطولة عن الملونين لا بد من الإشارة إلى شهادة الممثلة ياريلي أريزمندي المكسيكية الأصل

التي تقول إنه لم تسند إليها إلا أدوار «والدة مغتصبين» أو «كوبية تعاني من أمراض عصبيّة»، عندها توقفت عن الإفصاح عن أصولها العرقية لدى اختيار الممثلين لأي فيلم فأسند إليها دور «محامية يهودية» في أحد المسلسلات التلفزيونية. وتضيف «أنا أميركية لاتينية لكنني أيضاً بيضاء وأرفض أن أصنف في خانة أخرى. في المكسيك لا يسألونك عمن تكون وعما إذا كان يجري في عروقك كثير من دم أسود أو دم آسيوي، أو هل أنت لاتيني أو عربي أو آسيوي، إننا كل ذلك معاً. فن ديزيل لا يستسيغ الإفاضة في الكلام على أصله العرقي ويكتفي بأن «قولوا فقط إنني متعدد الثقافات». وتأكيداً لقناعته أسس شركة إنتاج سماها «عرق واحد».

ويعتبر أجر فن ديزيل وذو روك اليوم من أكثر الأجور ارتفاعاً في هوليود، وهو لا يقل عن 10 ملايين دولار لدور بطولة. إنهما الملكان الجديدان لشباك التذاكر ويجسدان بطل المغامرات المتعدد الأعراق الذي يمكن لأي كان أن يتماثل به. «إنهم الأميركيون الجدد» كما يراهم روب كوهين مخرج فيلمي السريع والشرس وثمة من يقول إن ديزيل وذو روك هما نموذجان يؤشران إلى أن مركز الثقافة الأميركية انتقل في الولايات المتحدة إلى المراكز المدينية غير البيضاء حيث تتجاور مختلف المجموعات العرقية، و«يخيّل إلينا مثلاً أن طوم كروز بات شديد البياض بالنسبة إلى المشاهدين الشباب». اليوم بات ديزيل وذو روك يمثلان الموضة والجميع يريد أن يشبههما. وفي إشارة إلى تغير النموذج والمثال في نظر الشباب الأميركي يقول المستشار لتسويق الأفلام لدى شركة يونيفرسال بيكشور سانتياغو بوزو «إن انطلاقة هذين الممثلين شكلت نوعاً من الزلزال في السينما الهوليودية» و«المشاهدون الشباب يريدون أبطالاً سوداً وهجناء. إننا

نشهد اليوم تحويل أميركا إلى بشرة سمراء».

وإذا كانت الثقافة الأميركية تبقى بيضاء بالنسبة إلى الأميركيين الأكبر سناً، فإن العنصر الشاب اليوم هو أقل تأثراً بكثير من أي جيل سابق بلون البشرة ولديه مروحة ثقافية أوسع من النماذج أمثال مغني الراب Jay-Z والمغنية اللاتينية جنيفر لوبيز ولاعب كرة السلة روب برايان والممثل جاكي شان وغيرهم الكثير. هذا التطور الجذري في توجهات الشباب وميولهم لم تواكبه هوليوود بالسرعة المطلوبة، بل كانت بطيئة في ركوب موجة التعدد الثقافي. ويعود السبب إلى عوائق إنتاجية من جهة وإلى استمرار سيطرة التمييز العنصري على عقلها الإداري، ذلك أن معظم حلقاتها الإدارية ما زالت بيضاء «نقية» ومعظم استوديوهاتها لا تحبذ فكرة تعيين مدير إنتاج أسود أو لاتيني. وفي معظم الأحيان لا يلاحظ أرباب الصناعة السينمائية الثورة الثقافية الشعبية إلا عندما يدخلون غرف أولادهم صدفة، وهذا ما عبر عنه نائب مدير يونيفرسال بيكتشور مارك شماغر، الرائد في اختيار ممثلين أبطال متعددي الإثنيات لأفلامه، بالقول «ابني ذو التسعة أعوام يمضي وقته في تقليد الثقافة السوداء، إنها القمة بالنسبة إليه. إنه يريد أن يمشي على طريقة روب برايان ويرتدي بأسلوب Libow wow وسيكون ضرباً من الجنون عدم إبراز ذلك في أفلامنا». لكن ما زال على هوليود أن تجتاز درباً طويلة ليصير التنوع الإثني حقيقة في الدوائر العليا. وفي هذا السياق تقول المنتجة ستيفاني آلان أن دييزيل وذو روك «يجسدان الإنسان الجديد الذي تجتمع فيه كل التناقضات العرقية»، وتضيف «عندما يشاهد الشباب الهجين هذين الممثلين يقولون إن الأفلام هي إنعكاس للواقع».

شباب إثني

والواقع أيضاً أنه من السهل لجيل الشباب اليوم حتى سن العشرين أن يكون إثنياً، ومن السهل له اختيار شريك من مجموعة إثنية مختلفة، وثمة من يقول إن أميركا لم تكن بهذا التنوع الإثني وهويتها صعبة التحديد إلا معه. هذه المجموعة المتعددة الأعراق والتي تمثل أكبر معدل نمو ديموغرافي ستكون أحد قطاعات المستهلكين الأكثر أهمية في البلد، وهذا ما أدركته المؤسسات وباتت تجهد لمسايرة ذوقها. أكثر من ذلك فإن شبان اليوم «يريدون الذهاب إلى شيء أكثر اختلاطاً وباتوا مقتنعين بـ «أن تكون إثنياً يعني أنك تماشي الموضة» و «الشباب الأميركي الأبيض من الطبقة الوسطى يميل أكثر فأكثر إلى تبني طريقة التفكير هذه، وهذا له مدلولاته»، يقول مدير التنمية في مؤسسة تعنى بدرس الأسواق. ومن الواضح أن غياب الأحكام المسبقة العرقية هو نعمة بالنسبة إلى التجار. فتعليقاً على نتائج إحصاء بين أن 57 بالمئة من المراهقين اعترفوا بإقامة علاقة عاطفية مع شخص من عرق مختلف وأن 30 بالمئة أكدوا أنهم لا يمانعون من القيام بتصرف مماثل. قال مالك مجموعة دور أزياء ومحال لبيع الأسطوانات الموسيقية «إن الفصل العنصري ما زال قائماً بأشكال مختلفة لكن ليس لدى الشباب».

ولم يشذ منتجو السينما والتلفزيون والمعلنون عن هذا الميل فاستخدموا فنانين وأشخاص إعلان ملونين أو من أصول متعددة. فالثقافة الشعبية تبرز أكثر فأكثر وجوه شبان غامضة عرقياً، إنهم يبدون بيضاً وسوداً وآسيويين في آن واحد وفي الواقع لا يمكن التمييز بينهم. ولم تعد إعلانات اليوم تشبه إعلانات قبل 20 أو 40 عاماً التي كانت تستخدم أشخاصاً متناقضين تماماً، بيضاً أو سوداً.

هذا هو الواقع الجديد الذي تعيشه شريحة واسعة من جيل الشباب والذي فرض نفسه على الحياة التجارية بكل تشعباتها وتلويناتها في الحياة الأميركية، والذي قد يعجب البعض ولا يعجب البعض الآخر، قد يكون في وصفه أو تحديده شيء من المبالغة. الصحافي الأميركي الأسود ليون وينتر يجزم، في كتابه «البشرة الأميركية: «جعل ثقافة الجمهور العريض سمراء»، بزوال التعريفات العرقية القديمة وبأن الثقافة الشعبية الأميركية باتت أكثر فأكثر مختلطة الأعراق» ويقول: «منذ نهاية السبعينات شهدنا تشوشاً في مفاهيم العرق والإثنية في الثقافة التجارية. ثمة تطورات شبه ثورية في الإعلان والإعلام والتسويق والتقنيات، والتجارة العالمية كسرت في العقدين الماضيين الحدود التي كانت قائمة منذ أجيال بين الملونين وصورة الحلم الأميركي». هكذا نرى شعبية واسعة للنجوم السود مثل لاعب كرة السلة مايكل جوردان، ومقدمة البرامج التلفزيونية أوبرا وينفري أو مشاهير خلاسيين مثل لاعب الغولف تايغر وودس، وهناك أيضاً أفلام دعائية مثل إعلان بيرة بادوايزر الذي يظهر فيه 4 شبان سود يتحدثون بلغة الشارع الأسود أو المغنية السوداء تلعب بدور ساندريون في نسخة تلفزيونية لفيلم ديزني وأدي مورفي بدلاً من ريكس هاريسون في دور الدكتور دوليتل وغير ذلك من الأمثلة.

التعدد العرقي يبيع

من الواضح أن اللون بدأ يتغلغل بقوة منذ نهاية الثمانينات في الفنون والموسيقى والرياضة والتلفزيون والصحافة وحتى في الجمال، ففي عقد من الزمن كلل تاج الجمال الأميركي هامات أربع فتيات غير بيضاوات (سوداوات وخلاسيات). وفي عالم الإعلان بدأ المعلنون

يقتنعون بأن تعدد الأعراق يمكنه أن يبيع. وباتت الماركات العالمية التي تريد أن تكون «أميركية نموذجية مثل كوكا كولا وشفروليه» «مضطرة الآن إلى زرع صورة تعدد عرقي». ويزداد عدد «المؤسسات الكبرى التي تعطي ماركاتها لوناً بنياً لتتمكن من البيع في أوساط الجمهور العريض وللمستثمرين المحتملين وللموظفين والناخبين». فالتعدد العرقي يقول وينتر: «يقابل ما تنتظره السوق ليس لأن ذلك صحيح تجارياً بالضرورة بل لأن أميركا تريد أن ترى نفسها هكذا مثل مجتمع موحد متعدد الأعراق».

لكن ثمة من يأخذ على وينتر إفراطه في التفاؤل في موضوع الاختلاط وفي تحول الثقافة الشعبية، فالاستناد إلى أمثلة نافرة في المجتمع الأميركي تستغل لأغراض تجارية وإعلانية لا يلغي حقيقة أن المجتمع الأميركي ما زال يعاني من التمييز العنصري بنسبة كبيرة جداً، وهذه حقيقة حتمية أنكرها أو أغفلها وينتر. ومن الأمثلة التي ظهرت صدفة على شاشة التلفزة الأميركية منذ فترة غير بعيدة، بفضل مصور هاوٍ، عن تغلغل التمييز في صفوف الشرطة مثلاً صورة 4 شرطيين بيض أطلقوا كلبهم البوليسي المدرب ينهش لحم مواطن أسود وأوسعوه ضرباً ليس لذنب أو مخالفة ارتكبها بل لمجرد أنه أسود.

وفي ما يبدو انتقاداً لاستعلاء الأبيض يقول وينتر «إحتقرنا كثيراً الاختلاط إذ كان على الثقافات المختلفة للأميركيين من أصل أوروبي أن تذوب فيه. إلا أن الفارق عاد إلى الغليان وبنشاط متجدد. هذه المرة تذوب الهوية البيضاء في هوية أوسع تشمل السود والإسبان والآسيويين». ولا يفوت وينتر أن يشير إلى أن الأميركيين السود لعبوا دوراً أساسياً في خلق الهوية الثقافية الأميركية منذ تأسيس البلد»، كون هذه «الأمة» الفتية لم تكن لديها أي ثقافة أورو ـ أميركية خاصة.

واللافت تعقيباً على المقطع الأخير أن إدارة الرئيس جورج بوش أحيت فكرة إقامة متحف قومي لتاريخ السود الأميركيين، وثقافتهم بعد قرن من طرحها وعدم رؤيتها النور إلى اليوم بحجج مختلفة ومنها ما قاله رئيس اللجنة التي عينها الكونغرس وبوش في 2001 روبرت ويلكينز، وما يثير العجب، من أن الكساد الكبير عطل جمع الأموال اللازمة للمشروع فبات التشريع، منذ صدوره، طي النسيان. ويجري الآن البحث في اختيار المكان المناسب له بعدما تزايدت المخاوف من تكدس المتاحف في مجمع واشنطن. إلا أن اللجنة تمكنت من تحديد موقع خارج المجمع وأربعة مواقع داخله لأن «هذه النقطة فلسفية وإيديولوجية مهمة» برأي ويلكينز الذي يعتبر أن إقامة المتحف بعيداً من قلب العاصمة سيثير أصداء قبيحة للتمييز الذي ما زال يسكن النفوس في الولايات المتحدة. ومن المقرر أن يشمل المتحف تاريخ الأميركيين السود منذ أيام العبودية حتى التحرير وحركة الحقوق المدنية ومساهمات السود في مختلف مجالات الحياة من العلوم والموسيقى والأدب والفنون والرياضة والعمارة والنواحي العسكرية والسياسية.

ولكن مهما أقيمت متاحف لتاريخ المجموعات العرقية وثقافاتها فإن الشعور بالتمييز سيبقى ماثلاً في أذهان الجميع ما دام التصنيف الرسمي للمواطنين الأميركيين قائماً على أصلهم العرقي والإثني والذي يرفضه الكثيرون. حتى المجموعات العرقية الأساسية غير البيضاء أي الأميركيون ـ الأفارقة و «اللاتينو» تعيش صراعاً حقيقياً في ما بينها لتثبت كل أقلية منها قوتها ونفوذها ولا سيما في الحياة السياسية والانتخابية. ومن الأمثلة على ذلك تصويت السود بكثافة لمرشحهم في الانتخابات البلدية الأخيرة في لوس أنجلوس، المدينة التي تشهد تغييرات ديموغرافية لمصلحة المهاجرين من أميركا الجنوبية، لإثبات وجودهم وتأثيرهم في نتائج الانتخابات.

تجارة الرقيق(*)

ارتبطت تجارة الرقيق بالكشوف الجغرافية التي قادها رحالة ومغامرون أوروبيون في مجال اكتشاف العالم الجديد، فقد قام أولئك المستكشفون والمغامرون بأسر أعداد قليلة من الأفارقة في البداية تمهيداً لنقلهم إلى العالم الجديد. كانت تجارة الرقيق مشروعة قانوناً منذ القرن الخامس عشر الميلادي حتى القرن التاسع عشر في الغرب. وكانت نظرة الرجل الأبيض عن الرجل الأسود مليئة بمختلف الصور والرموز السيئة المشوهة والمزرية باعتبار أن السود همجيون متوحشون ووثنيون ولا يعرفون عن الحضارة والمدنية شيئاً.

بدأت الكشوف الجغرافية مع الأمير هنري الملاح، الذي حَمّل إحدى سفنه العام 1441 بعشرة أفارقة كرقيق، تم استخدامهم في القارة الأوروبية، لكن كريستوفر كولومبس كان أول رحّالةٍ وصل إلى العالم الجديد العام 1492، وكان من بين البحارة الذين يستخدمهم بحار أسود، وفي العام 1501 أصدر ملك أسبانيا أوامره باستخدام السود في العالم الجديد، وبعد ذلك في 1502 نقل البرتغاليون أول مجموعة من السود الرقيق إلى أميركا اللاتينية، كما شهد العام 1513

(*) المرجع: عبد القادر البريفكاني «المحررون أعظم قادة القرن العشرين». مطابع الأهرام. القاهرة. الطبعة الأولى 2001. ص 545 ـ 547.

إنزال مجموعة من الرقيق بغرض استخدامهم في كوبا تكونت من ثلاثين رجلاً أسوداً في إطار اكتشاف البحار الأسباني «ببوا Baboa» للمحيط الأطلسي، وتعتبر أسبانيا والبرتغال أول دولتين استعماريتين تعملان في تجارة الرقيق ونقلهم إلى المستعمرات التابعة لهما في الأمريكتين الوسطى والجنوبية والبحر الكاريبي، غير أن هولندا وبريطانيا وفرنسا دخلت بعد وقت قصير هذه التجارة، وكان معظم الرقيق يُجلبون من مناطق أفريقية على السواحل الأطلسية، تُعرف الآن بالسنغال وغينيا وليبيريا وجامبيا وسيراليون وبنين وكوت ديفوار (ساحل العاج) وغانا وتوجو والكاميرون ونيجيريا والجابون والكونغو وموريتانيا، وقد انحدرت غالبية السود الأميركيين من هذه المناطق[1].

شهد العام 1619 وصول أول فوج من الرقيق الأفريقي إلى شاطىء ولاية فرجينيا بالولايات المتحدة الأمريكية، كي يتم بيعه في «جيمس تاون» إحدى المدن التي راجت فيها تجارة الرقيق في ما بعد. وكان الرقيق يُعرضون في مزادات نخاسة علنية كعبيد ثم يُساقون بعد ذلك كالمواشي للعمل في مزارع القطن وقصب السكر والأرز في ولايات الجنوب الأمريكي.

غير أن أول مجموعة من الرقيق الأسود وصلت إلى الولايات المتحدة عموماً في العام 1526 إلى ولاية كارولينا الجنوبية، وكانت مجموعة من المكتشفين الأسبان هي التي جلبتهم. لكن البحارة والمغامرين البريطانيين لعبوا الدور الرئيس بعد ذلك في تجارة الرقيق الذاهبة إلى الولايات المتحدة التي ظلت تستعمرها انكلترا حتى العام

(1) انظر كمثال: Herman Belz: Emancipation and Equal Rights, New York: 1978.

1776 وهو عام الاستقلال، فقد احتكرت «الشركة الملكية الأفريقية» تجارة الرقيق البريطانية في الفترة من 1672 إلى 1698، بيد أن تأسيس عدة شركات لتجارة الرقيق بعد ذلك أدى إلى كسر احتكار الشركة آنفة الذكر لتجارة الرقيق في القرن الثامن عشر[1].

اختلق تجار الرقيق مبررات عدة لهذه التجارة منها الزعم بأن الزنوج في مرتبة أدنى بمراحل من مرتبة البيض لمجرد لون بشرتهم، وما يتميز به الزنوج آنذاك من توحش وتخلف وعبادة أوثان، ومثل هذه المزاعم نفسها أطلقها المغامرون البيض الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة هرباً من عقاب القانون في البلاد الأوروبية، على الهنود الحمر تبريراً لما مُورس بحقهم من أبشع أنواع الإبادة والترحيل من مكان لآخر والاضطهاد والتنكيل.

وقد عانى السود أشد المعاناة من تجارة الرقيق والبيع في سوق النخاسة والتشغيل في أحط المهن وبدون أية ضمانات إنسانية أو نفسية أو اجتماعية، وحتى القرن التاسع عشر كانت الغالبية الساحقة من السود أو الأمريكيين الأفارقة من العبيد الذين يملكهم أسيادهم، مثلما يملك الدواب والمواشي والعقارات والأراضي. وكان الشعار التاريخي المفضل لدى الرجل الأبيض هو «إذا كنت أبيض اللون فتقدم للإمام، وإذا كنت ملوناً فقف جانباً، إما إذا كنت أسود اللون فتراجع للخلف».

سجل التاريخ أن الأجيال الأولى من المهاجرين البيض إلى الولايات المتحدة، كانوا يتصورون أنهم يمكن أن يخلقوا مجتمعاً

---

(1) انظر في ذلك: James M. McPhersan: Abraham Lincoln and the Second American Revolution, N.G.: 1991.

أبيض متجانساً ومنصهراً، تندمج فيه الجماعات المهاجرة من الأوروبيين البيض نفسياً واجتماعياً وثقافياً في إطار ما يعرف بـ «بوتقة الصهر Melting Pot» أو «دائرة التذويب»، غير أن ذلك الأسلوب لم ينجح أو بالأحرى لم يتم تطبيقه، سوى على المهاجرين من أصحاب الأصل البروتستانت الأنكلوساكسون البيض، ويطلق عليهم اختصاراً «واسب» WASP White Anglo-Saxon Protestants. إذ أن وصول مهاجرين جدد من أقليات وجماعات وأصول قومية أخرى من القارة الأوروبية من الإيطاليين والألمان والفرنسيين والأسبان، ومن اليهود والكاثوليك لم يرتبط بقبول هذه الجماعات الاندماج في بوتقة الصهر البروتستانتية الأنكلوساكسونية، والخضوع لقيمها النفسية والاجتماعية والثقافية، بل حافظ غالبية هؤلاء على تقاليديهم وعاداتهم وقيمهم الأصلية ودعم ذلك ما يتيحه النظام السياسي الأمريكي من إمكانيات وحريات لكل أقلية أو جماعة قومية للمحافظة على ذاتها بشرط ألا تتعارض مع النظام الاجتماعي والقيمي والثقافي الأمريكي العام.

العبودية والتمييز العنصري في الولايات المتحدة(*)

ما فرض على القارة الأفريقية من إخضاع بين قرني السادس عشر والتاسع عشر، عبر المحيط الأطلسي خلّف أكثر من 12 مليون أفريقي تحولوا إلى عبيد، ضمن أكبر هجرة قسرية وأطولها مسافة في التاريخ. بعد عشرة أعوام من عبور كولومبوس للمحيط أنزل الإسبان أول مجموعة عبيد في القارة الجديدة. على مدار القرون الثلاثة التالية، امتدت هذه التجارة عبر شواطىء غرب أفريقيا، بعد أن امتد الطلب الأوروبي من الذهب والعاج ليشمل الكائنات البشرية.

عزز الأوروبيون مصالحهم بمواقع تجارية محصنة على شواطىء أفريقيا. فلم تشيّد الحصون لتعزيز السيطرة الأوروبية على أفريقيا، بل رفعت صروحها في إطار المنافسة بين الأوروبيين أنفسهم.

أطلقوا على تجارة العبيد لقب تجارة خشب الأبنوس الأسود استخفافاً بالعنصر البشري، وكانوا يعاملونهم بما يقل احتراماً عن الخشب إذ كانوا يضعون أكثر من 150 شخصاً في غرف صغيرة. أما

(*) المرجع: د. نبيل خليل خليل «أميركا بين الهنود والعرب». دار الفارابي بيروت. الطبعة الأولى 2003، ص 47 - 68.

طرق جلب هذه الأعداد الكبيرة من العبيد، فكانت تتم على شكل نوع من التجارة التي لا تليق بالإنسانية وبالكائن البشري.

وقد ورطوا زعماء القبائل أنفسهم بقبض ثمن رعاياهم من غير المخلصين ورعايا القبائل الأخرى، وكانوا يتلقون مقابلها بعض المواد الغذائية وخصوصاً المشروبات الروحية والأسلحة، فالقبائل التي تسلم عدداً أكبر من العبيد كانت تحصل على كمية أكبر من الأسلحة لتتمكن بذلك من القيام بغزوات وأسر أوسع ضد مزيد من القبائل المجاورة، ما يؤدي إلى إشعال الضغينة والكراهية والأحقاد بين القبائل الأفريقية ويغذي النزاعات العسكرية فيما بينها، ما حال دون توفر الأمن اللازم لتطوير الصناعات المحلية هناك.

الجميع يعرف بأن أفريقيا لم تكن في القرن السادس عشر أقل شأناً بكثير مما كان عليه الحال في أوروبا أو في بقية القارات مثل آسيا أو الشرق الأوسط، ولكن الحروب الداخلية التي أثيرت بسبب تجارة العبيد، قضت كلياً على حالة الأمن والاستقرار السائدة في القارة السمراء، ما حال دون تطورها وتقدمها.

تحدث الكثيرون عن الطرق الوحشية التي مارسها النخاسون داخل القارة الأفريقية وصولاً إلى شواطىء أميركا. من أهمها ما كتبه الباحثان جون هنريك كلارك ومنيست هاردنج في هذا الخصوص، حيث تحدثا عن حرق القرى في أوقات السحر أثناء نوم السكان الذين يخطفون أثناء محاولاتهم الفرار للنجاة من النار. بعد ذلك يربط كل اثنين معاً في حبال ليشكلوا صفاً طويلاً يجمعهم عمود خشبي يربط في أعناقهم ويتم التوجه بهم في مسيرة شاقة إلى السواحل.

ويقول الدكتور زاهر رياض إن الضعفاء كانوا يسقطون من شدة

الإعياء فيقتلون أو يتركون ليلقوا مصرعهم وتبقى عظامهم علامة توضح طريق هؤلاء التعساء حتى القرن التاسع عشر. كما وصف الرحالة الشهير لفنجستون في كتابه عن اكتشاف منابع النيل وبشكل تقشعر له الأبدان القهر والقسوة والعذاب التي كان يعانيها الرقيق وهم في رحلة التوجه إلى مصيرهم المجهول.

عند وصول العبيد إلى الشواطىء يتسلمهم النخاس الأوروبي ويقوم بوشمهم بعلامته المميزة بسيخ محمّى بالنار، وكأنهم من المواشي، ثم يودعون في الحصون انتظاراً لرحلة عبور الأطلسي. أما السفن فكانت تعد على شكل مخازن ذات رفوف يرص فيها العبيد وهم مصفدون بالأغلال بعد فصل النساء عن الرجال، حتى تصبح السفينة أشبه بعلبة السردين يصطف فيها الأفارقة وهم يغادرون بلادهم عبر المحيط إلى غير رجعة[1].

جرت حملات الهجوم على القبائل لأسر أبنائها بحشد مجموعة من الرجال الموجودين في القبيلة ومنحهم الأسلحة التي كانت تأتي من الغرب، من بريطانيا على وجه الخصوص والبرتغال وغيرها من البلدان الأوروبية، علماً أن الفرنسيين كانوا أول من منعوا في عهد لويس الثامن عشر تجارة الرقيق، شفهياً. ولكنه لم يثبت عمليّاً على الأرض. البريطانيون كانوا أسياد البحر وكانوا في نهاية القرن السابع عشر، وكأنهم المخولون الوحيدون وأصحاب الحق الحصري في تجارة العبيد ونقلهم إلى القارة الأمريكية شكل عاملاً أساسياً لتعزيز زراعة قصب السكر وتنشيط الحركة الاقتصادية في جنوب القارة

(1) العربي - عدد 406 سبتمبر 1992 م «الكشوف الجغرافية وتجارة العبيد»، د. رمزي زكي ص 121.

الأمريكية. أما في شمال القارة فتعززت زراعة القطن والتبغ وهذه زراعات تحتاج إلى جهد كبير جداً لم يكن الهنود قادرين عليها بعد حملات الإبادة التي أضعفتهم، إلى جانب أنهم كانوا يُطردون من أراضيهم ويوضعون في محميات وقد رُفضوا من قبل المجتمع الأمريكي ولم يكونوا قادرين على هذا العمل الشاق جداً وليسوا معتادين عليه خصوصاً زراعة القطن التي أحياناً ما تحتاج إلى عمل شاق، من الفجر حتى بعد الغروب. وقد شاءت المفارقة أن يكون للأفارقة العبيد الفضل الكبير في تطوير صناعة الحديد التي بدأت بصناعة السلاسل حتى يُربطوا فيها ومن بعدها صناعة سكك الحديد وصناعة البنادق والأسلحة في أوروبا وتحديداً في بريطانيا، لأنها كانت مطلوبة جداً من قبل القبائل لحماية أنفسها من حملات الأسر أو ليتابع البعض الآخر حملات الأسر التي كانوا يقومون بها، ما طور صناعة الأسلحة استجابة لزيادة الطلب عليها. أي إنها كانت تعني بالنسبة لأفريقيا المزيد من الفقر وعدم الاستقرار والمزيد من الخلافات والنزاعات الداخلية والضغينة، ولأميركا المزيد من التطوير الصناعي والزارعي، ولأوروبا حصد ريع هذه العملية التجارية غير العادلة عبر تطوير صناعاتها.

دامت تجارة العبيد ما يقارب ثلاثة قرون وذلك بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر أُخضع خلالها الإنسان الأفريقي للبيع والشراء، ليتم الحديث اليوم بكل تهذيب عن هذه الأعداد والقول إنها لا تزيد على اثني عشر مليوناً وكأن هذا عدد بسيط جداً يبرر ما تعرضت له القارة الأفريقية. علماً أن هناك دراسات وأبحاثاً تشير إلى أن هذه الأرقام لا تقل عن أربعين مليوناً.

تتحدث المصادر الغربية، والأكاديمية إلى حد كبير، عن اثني

عشر مليوناً، ولكنْ هناك جانب آخر لا تتحدث عنه وهو عدد الذين ماتوا على الطريق، وأعداد الذين ماتوا في الحروب بين القبائل. لأن اعتقال وأسر عشرة أفارقة أحياناً ما يتطلب قتل أربعين منهم أو أكثر، هذا عدا المجاعة والكوارث التي يخلفها أسر القادرين على الإنتاج أو آباء الصغار، الخ.

مهما قل عدد الأفارقة الذين جيء بهم، المهم أن لا أحد ينكر حقيقة هذه الواقعة المشينة، فهي ليست خاضعة لتأويلات الهولوكوست الشهيرة، كما لا ينكر أحد ما للأفارقة العبيد من دور كبير في الإنماء الصناعي والزراعي للقارة الأمريكية والثروة التي حصدتها أوروبا وراكمت عليها لبلوغ التقدم والثروات التي تنعم بها اليوم، سواء كانوا إثني عشر مليوناً أم أقل، حتى إن التقليل من هذه الأعداد بهدف تبرئة الذات أو التقليل من حجم الكارثة لا يفي بالغرض، لأن الكارثة التي وقعت بالأفارقة ما زالوا يدفعون ثمنها حتى اليوم بالتخلف والمجاعة والأمراض والحروب والقهر والهيمنة.

عام 1500 لم تكن أفريقيا وتحديداً الجانب الغربي منها يختلف جداً عن باقي أنحاء العالم. وما زال الجزء الجنوبي منها يضم آثاراً عمرانية لمستوى الحضارة والازدهار الذي بلغته القارة حتى القرون الوسطى، حين «تشرفت» باكتشاف الأوروبيين لها.

هناك موقع أثري ينتصب في جنوب القارة الأفريقية بحجارة صخرية وبناء هندسي لا يقل شأناً عن كبرى الكاتدرائيات الأوروبية، ورغم تعرض روائعه للسلب والنهب، إلاّ أنه ما زال ينطق بتقدم الشعوب التي كانت تسكنه.

كان أول شعوب تستقر في زيمبابوي الكبرى من رعاة البقر،

الذين وصلوا إلى هناك حوالي عام 350 م، شدتهم إليها المراعي الغنية وطيب المناخ وخلو الأراضي من ذبابة تستسي التي أصابت قطعان الأراضي الأفريقية المنخفضة بمرض النعاس.

السبب الذي جعل زيمبابوي الكبرى تتحول إلى تجمع لأعداد هائلة من السكان، هو حجم الثروات التي تحيط بها من وفرة القطعان. هناك عدة إثباتات تؤكد بأن سكان زيمبابوي الكبرى كانوا يملكون قطعاناً هائلة استخدمت في البداية للتجارة المحلية، ساعدت ثرواتهم على ازدهار التجارة العالمية على الساحل الشرقي.

الشعوب التي استقرت واستغلت هذه المناطق الغنية هي من أجداد شعوب شونا الحالية المقيمة في زيمبابوي، وكانوا قد شيدوا منازل لهم من الطين والخشب داخل أسوار مدينة زيمبابوي المتنامية وخارجها.

الفخاريات التي صنعت في عصر زيمبابوي الكبرى هي نفسها التي تصنع اليوم على أيدي شعوب الشونا، ما يعزز احتمال أن تكون قد شيدت على أيدي أجداد الشونا وليس على أيدي حضارات البيض، كما ادعى عنصريو جنوب أفريقيا.

سُكن الموقع الأثري لأول مرة عام 900 م، ولم يكن مبنياً بالحجارة، ثم شيد بالحجارة عام 1100، وقد استمر البناء بالنمو حتى عام 1450، حيث نما من مجرد قرية صغيرة إلى مركز سكاني هائل. تعود قطع الفخاريات التي بقيت منتشرة هناك إلى عام 1100، لتشهد على النمو السريع للمدينة كمركز تجاري عام. عام 1300، كانت زيمبابوي تتاجر بالذهب والعاج عبر نهر سابي نزولاً نحو الشواطىء، حيث تستبدلها بالحلي والخزف القادم من الصين

وحضارات عالمية أخرى.

يجد الزائر في موقع زيمبابوي الأثري نماذج من الفخاريات العربية المزينة والممزوجة داخل الفخار، وقطعاً فخارية عربية أخرى تحتوي على بعض الأحرف الصغيرة عند رأس القطعة. أما باقي ما يراه فهو صيني وأعمال جاءت عبر التجارة العالمية.

عام 1300، حين كانت أوروبا تقترب من نهاية العصور الوسطى، أخذ كبار البنائين في زيمبابوي الكبرى يعملون على إنجاز أطول الصروح عمراً هناك، وهو السياج الكبير. يعود ذلك البناء إلى فترة أحدث، وهو يشهد على الثقة والبراعة التي ميزتا تلك الثقافة المزدهرة.

أما اليوم فقد أصبحت أفريقيا من أكثر مناطق العالم تخلفاً بالمقارنة مع باقي أنحاء العالم، وخصوصاً مع أوروبا وأميركا اللتين شهدتا نمواً سكانياً كبيراً، وتطوراً اقتصادياً هائلاً، ونمواً للمصادر الإنتاجية. حصل كل ذلك من خلال العبودية وعلى حساب ما أصاب القارة الأفريقية من تخلف وإفقار.

لا تملك أفريقيا اليوم شيئاً من سكك الحديد وأنظمة التربية والتعليم وغيرها من الخدمات المشابهة التي تنعم بها بلدان العالم، لأن فرص امتلاكها قد دمرت بسبب العبودية.

كانت الشركات (الولايات) العاملة على الشواطىء الشرقية للولايات المتحدة، حيث نزلت أولى موجات الهجرة واستقرت ومضت تزرع وتتاجر وتغتني وتراكم الثروة، وقد راحت تواجه مشكلة في اليد العاملة، ذلك أن عدد المهاجرين عام 1700 لم يزد على ربع مليون مهاجر، جلهم يريد المال والأرض والعقار وليس فيهم أحد

يريد أن يكون أجيراً. إلى جانب ذلك، فإن سكان البلاد الأصليين، الهنود الحمر، قد تعرضوا للإبادة أو ما عادوا يصلحون لخدمة القتلة الذين جاؤوا عبر المحيط لسفك دمائهم[1].

شهد القرن السادس عشر هبوطاً خطيراً في عدد الهنود الحمر بتأثير ثلاثة عوامل جوهرية هي التالية: 1 ـ الإبادة والقتل المباشر من قبل المستعمرين؛ 2 ـ الوفيات المرتفعة الناجمة عن الأوبئة والأمراض التي نقلها الأوروبيون إلى الهنود كالجدري والحصبة والزهري وغيرها؛ 3 ـ الإبادة التي حصلت للهنود الحمر في مناجم الذهب بسبب الاستغلال الوحشي والمميت لهم. حتى ندرك حجم الإبادة التي تعرض لها السكان الأصليون، نرى مثلاً أن عدد سكان المكسيك عندما اكتشفها الإسبان بلغ 25 مليون نسمة، بينما أصبح هذا العدد عام 1600 حوالي مليون نسمة فقط، كما يؤكد الباحث تزيفيتان تودوروف.

للتغلب على مشكلة نقص الأيدي العاملة، قامت الحكومات الأوروبية بداية بالإفراج عن المجرمين والمسجونين وإرسالهم إلى المستعمرات الأمريكية، بيد أن عدد هؤلاء كان قليلاً لا يفي بالحاجة. لهذا تفتحت قريحة أصحاب رؤوس الأموال وسعيهم المحموم للربح عن فكرة صيد البشر في أفريقيا مقابل الخمور والأسلحة والكماليات الأخرى، ثم شحنهم كالبضائع عير المحيط للعمل في المزارع والمناجم الأمريكية[2].

(1) وجهات نظر، العدد 31، آب/ أغسطس 2001، «إعادة اكتشاف أمريكا»، محمد حسنين هيكل، ص 13.
(2) «الكشوف الجغرافية وتجارة العبيد»، م س، ص 121.

في آب/ أغسطس من عام 1919، وصلت سفينة هولندية إلى ميناء جيمس تاون في أميركا الشمالية، تحمل معها أول شحنة رهيبة، وتتألف من عشرين عبداً أفريقياً كانوا أول القادمين إلى أميركا، وقد تم شراؤهم للعمل في حقول فيرجينيا، لتزرع بذلك جذور العبودية السامة التي رافقت أميركا طوال ثلاثة أرباع حياتها منذ اكتشافها حتى اليوم.

مع وصول الأفارقة العبيد إلى فرجينيا نشأ نوع من الحقد الشديد عليهم في جميع مستوطنات القرن السابع عشر، لعدة أسباب، منها أن العمال البيض من المهاجرين كانوا يخرجون من بريطانيا باتفاق مع أصحاب وكالات تدفعهم للعمل الشاق طوال سنوات لتسديد مصاريف الرحلة. لهذا كانوا يذهبون إلى هناك على أمل الحصول على عمل يطلق سراحهم، فيواجهون منافسة العبيد المكرهين على العمل الشاق حتى الموت.

فضل أصحاب المزارع شراء العبيد الأفارقة ليحلّوا محل العمال البيض في الأشغال الشاقة. اعتبر هؤلاء أقل مستوى، وحكم عليهم وعلى أبنائهم وأحفاد أحفادهم بالعيش في عبودية دائمة، طوال عدة قرون.

جعل العبيد من زراعة التبغ والقطن إنتاجاً مربحاً جداً، لهذا تعززت العبودية من جديد رغم انحدارها البطيء مع نهاية القرن السابع عشر.

أسهمت تجارة العبيد في أوروبا بتجميع ثروات شكلت مصدراً أساسياً من مصادر التراكم البدائي لعصر الثورة الصناعية، ما يعني أن النخاسة كانت من أبرز عوامل التطور الرأسمالية، وقد كانت إنجلترا

النموذج الأهم باعتبارها تبوأت مكانة الصدارة في تجارة العبيد في القرن الثامن عشر، حيث امتلكت أسطولاً من مائتي سفينة عمل عليها عشرات الآلاف من البحارة بين عامي 1680 و 1786. وكانت ليفربول ولندن وبريستول ولانكستر نقاط الحركة الرائجة لهذه التجارة.

دارت عجلات الإنتاج خلال هذه الفترة بسرعة هائلة لتوفر السلع التي قدمت حينها للنخاسين الأفارقة لشراء العبيد منهم. ينطبق هذا على صناعة البنادق والبارود وبناء السفن ومسابك الحديد والسلاسل وقضبان الحديد والخمور. وهكذا تزايد دخل بريطانيا ورخاؤها لتتسرّع بذلك مرحلة الثورة الصناعية.

لا شك أن كاثرين سافيدج محقة بالقول: «إن تجارة الرقيق قد أسهمت في تحقيق الرخاء البريطاني بصورة بالغة، وكان ميناء ليفربول وبريستول يثريان من تجارة عبيد أفريقيا الغربية. ومصانع لانكشير تغزل القطن الوارد من المزارع الأمريكية، وكل هذا الإنتاج وغيره كان ثمرة العمل الذي يؤديه العبيد. لقد شحن التجار الإنجليز عبيداً وحققوا أرباحاً أكثر من أي شعب آخر»[1].

جاء ذلك مترافقاً مع تعزيز الصناعة حين شهدت فيرجينيا عام 1831 حدثاً بارزاً هزّ الجنوب بكامله، حيث تمرد العبيد على أسيادهم. لم يستمر ذلك أكثر من ليلة واحدة شكلت بداية لكفاح السود المستمر من أجل الحرية والمساواة.

ثار 60 عبداً بقيادة نات تورنر البالغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً، والذي أعلن بأنه جاء ليخلص السود من براثن عبودية البيض.

---

(1) م ن، ص 123.

فشارك مع رجاله بذبح أكثر من خمسين شخصاً من المستوطنين البيض. تمكنت المليشيات المحلية من سحق الثورة في اليوم التالي ثم أعدمت نات تورنر مع جميع أتباعه بعد أسابيع قليلة فقط لتنتهي الثورة هناك.

أثارت هذه الثورة حالة من الهلع الشديد، فقد هزت الجنوب بكامله لمجرد قتل خمسين من المستوطنين البيض عشوائياً، أما قتل وإخضاع الملايين من السود وما أصاب قارتهم من تخلف ودمار فلم يحرك حتى الآن إلاّ بعض الاحتجاجات الخجولة في الولايات المتحدة. ولكن المهم في هذه الثورة هو أنها كانت حافزاً لفت أنظار المستوطنين البيض إلى خطورة الإمعان في جلب المزيد من الأفارقة إلى القارة الأمريكية لما سيشكله ذلك من تهديد على التفوق الديموغرافي للمستوطنين البيض في القارة، ما عزز قرار منع استيراد العبيد الذي أصدره الرئيس توماس جيفرسون عام 1808، والذي استمر اختراقه طيلة عشرات السنين بالرغم مما عنته ثورات العبيد في هايتي وجمايكا من تهديد على سلطات البيض في هاتين الجزيرتين من حوض الكاريبي.

حين أنجزت تجارة العبيد مهمتها التاريخية في توفير مصدر مهم من المصادر البدائية لتراكم رأس المال بعد الاستنزاف البشري للقارة الأفريقية، وبعد اشتعال المستعمرات الأمريكية بثورات السود التي قدم فيها الآلاف أرواحهم في سبيل الحرية، أخذت تتوالى الأصوات الإنسانية من مختلف أنحاء العالم تطالب بوقف جرائم العبودية البشعة. لكن الأمر الحاسم الذي عجل في وقف هذه التجارة اللاإنسانية هو أن دخول الرأسمالية إلى المرحلة الصناعية جعلها بأمسّ الحاجة إلى تحرير سوق العمل، لأن ذلك سيمكن العمال من قوة

عملهم كسلعة وحيدة يملكونها، وهو الأساس الذي اعتمدت عليه الرأسمالية الصناعية في تأمين حاجتها من عنصر العمل البشري، طبقاً لما تمليه علاقات العرض والطلب في هذه السوق.

وحين تشبعت الدول الأوروبية والمستعمرات الأمريكية من هذه التجارة اللعينة، وما وفرته لها من أيد عاملة مستعبدة ومن ثروات طائلة، اختفت الحاجة للعبودية، خصوصاً بعد هبوط معدلات الربح فيها، فعقد مؤتمر برلين في 1884 - 1885 لإقرار تعاون الدول الأوروبية للقضاء على هذه التجارة التي استمرت سراً بعد ذلك لفترة طويلة[1].

أخذ المتضررون من نظام العبودية في أميركا الشمالية يعربون عن استيائهم من هذه التجارة منذ عام 1870، ما اعتبره الجنوبيون تحدياً لمفهومهم للحرية. وقد اعتبر الجنوب أن لينكولن يشكل تهديداً كاملاً لسبلهم في الحياة، علماً أن لينكولن كان أشد اهتماماً بالحفاظ على الاتحاد من إلغاء العبودية. وقد قال في خطاب انتخابه رئيساً: «لا أرغب إطلاقاً بالتدخل بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في نظام العبودية السائد في أي ولاية كان. لهذا اعتبر أن إشعال الحرب الأهلية مسألة أصبحت في أيديكم وليست بين يديّ. رغم التوتر القائم اليوم، يجب ألاّ يؤدي ذلك إلى تحطيم أواصر العلاقات بيننا. ما زالت ذكرى جميع الضحايا الذين سقطوا في ساحات المعارك تدق ناقوس تعزيز الاتحاد القائم»[2].

---

(1) Historia de America Colonial I. Siglos XVI XVII DPTO. De Historia de America 1978 La Universidad de la Habana Cuba. pp. 42.

(2) La Guerra Civil en Los EE.UU.DPTO. de Historia de America 1977 La Habana Cuba pp.42.

لكن خطابه جاء متأخراً، ففي 18 من نيسان/ أبريل من عام 1861 أعلنت إحدى عشرة ولاية انفصالها عن الاتحاد، ثم قامت بعدة هجمات أحرزت فيها بعض التفوق العسكري على الشمال.

بعد معركة أنتايتم بقليل، اتخذ لينكولن خطوة حاسمة، فقد أصدر ميثاقاً يعلن فيه إعتاق العبيد وإطلاق سراحهم وقال جملته الشهيرة: كل شخص يعامل كعبد في أي مكان من الولايات المتحدة أياً يكن، حتى في المناطق التي تشهد تمرداً ضد الولايات المتحدة، هو حر طليق منذ هذه اللحظة وإلى الأبد.

لا شك أن إعتاق العبيد شكل منعطفاً حاسماً في الحرب الأهلية، فقد حول الحرب من نزاع لتعزيز الوحدة إلى حرب من أجل إعتاق العبيد، ما برر الخسائر البشرية الهائلة التي سقطت وتلك التي ستسقط لاحقاً في السنوات التالية للحرب. لقد جُنّد السود في الجيش لأول مرة مقابل منحهم الحق بالجنسية بعد انتهاء الحرب.

وهكذا وقف العبيد مستعدين للدفاع عن الاتحاد لما في ذلك من دفاع عن حريتهم، رغم تردد الضباط الفدراليين باستخدامهم في المعارك بداية حتى اضطروا للزج بهم في القتال إثر التراجع الذي شهده الشمال أمام الجنوب في بداية الحرب[1].

أثناء الحرب السابقة التي دارت قبيل ذلك بمائة عام للتخلص من بريطانيا وإخراجها من أميركا، سمح جورج واشنطن للسود الأمريكيين بالقتال مقابل إعتاقهم إفرادياً بعد الحرب. وشاءت المفارقات أن يكون كريسبوس أتيكوس أول شهيد في ما عرف بحرب

(1) م ن، ص 63.

الاستقلال، وهو مزيج من أصل أفريقي وهندي سقط في مجزرة بوسطن عام 1770، التي اعتبرت الشرارة الأولى التي أشعلت تلك الحرب.

استعانت بريطانيا بتجنيد السود على طريقتها حين أعلنت أنها ستمنح الحرية للعبيد الذين يقاتلون ضد المستوطنين، وقد ساهم انضمام العبيد إلى الجيش البريطاني بأعداد كبيرة رغبة في الانعتاق بالانتصارات التي حققتها مع بداية الحرب على جيش الكونغرس وأجبرته على الانسحاب من جميع الجبهات عام 1766.

أجبر ذلك جورج واشنطن على التراجع عن سياسته التي استخفت بمشاركة العبيد في الحرب، على اعتبار أنهم من الممتلكات، فسمح بداية للأحرار منهم في المشاركة، ثم اضطر بعد ذلك إلى دعوة العبيد للمشاركة وشكّل منهم فرقة تتألف من خمسة آلاف رجل عملت تحت إمرته وجاءت غالبيتها من المستعمرات والولايات الشمالية التي ألغت ثلاثة منها العبودية أثناء الحرب، هي فيرمونت ومساتشوسيتس ونيوهامبشر.

غير ذلك من موازين القوى لصالح جيش المستوطنين الذي استطاع في السابع عشر من تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1777 التغلب على وحدة بريطانية تتألف من سبعة آلاف جندي تعرضوا للتشتت، ما أجبر ربع الجيوش البريطانية في أميركا الشمالية على الاستسلام.

شارك العبيد في حرب الاستقلال التي دامت سبع سنوات وقتل الآلاف منهم على أمل التمتع بالحرية والانعتاق بعد النصر والاستقلال، ولكن الثورة خذلتهم، ولم تلغ العبودية. علماً أن العبيد

الذين وقفوا إلى جانب بريطانيا في الحرب رحلوا معها جنوداً إلى نيوفونلاند وإنجلترا وسيراليون وغيرها.

تعلم لينكولن هذا الدرس جيداً، فقد وجد في السكان السود نوعاً من وقود المعارك الذي سيضمن له الفوز في حربه ضد الانفصاليين الجنوبيين، خصوصاً وأن مشاركة العبيد في الحرب جاءت بعد تقدم الجنوب المبدئي ونتائج معركة أنتايتم غير المرضية التي وقعت خريف عام 1862، واشتبك فيها ستون ألفاً من الوحدات الاتحادية والكونفدرالية واستولى كل منها على حقل واحد من الذرة ثلاث عشرة مرة خلال يوم واحد، ومع حلول الليل سقط ستة آلاف قتيل وعشرون ألف جريح من الطرفين من دون أن يتضح من هو المنتصر. جاء قرار لينكولن بعد هذه المعركة بخمسة أيام فقط إذ أصدر ميثاق إعتاق العبيد في ولايات الجنوب، ما أدى إلى مشاركة مائة وثمانون ألف مقاتل أسود في صفوف الجيش الشمالي قتل منهم ثمانية وثلاثون ألفاً[1].

ظهرت أهمية مشاركة السود الحاسمة في الحرب بعد أقل من عامين فقط وذلك في معركة غيتسبورغ التي استغرقت ثلاثة أيام من صيف عام 1863 تقاتل فيها الشمال والجنوب في معركة طاحنة شارك فيها مائة وثلاثة وستون ألف رجل من الطرفين، قتل منهم سبعة آلاف رجل وأصيب خمسة وأربعون ألفاً بجروح. في اليوم الرابع أجبر الجيش الكونفدرالي على الانسحاب بعد انهياره أمام القوات الاتحادية.

قاتل السود تحت إمرة جنرالات بيض زجوا بهم في أشد

(1) م ن، ص 25.

المعارك خطورة، وهم الأقل استعداداً وتدريباً، كما والأسوأ تسلحاً وتجهيزاً من الجنود البيض.

قاتل مائة وثمانون ألف أمريكي أسود من أجل الاتحاد مقابل تخلصهم من العبودية. كانت غالبيتهم العظمى تعمل في فرق منفصلة يقودها ضباط بيض. وقد ضحى ثمانية وثلاثون ألفاً منهم بحياتهم في سبيل الحرية.

تحقق الأمل بالنسبة للأمريكيين السود، حين أقر البند الثالث عشر من الدستور الذي يمنع العبودية بالقانون. أما البندان التاليان فيمنحان جميع حقوق المواطنية التي لم تحترم بالكامل.

عام 1874، اعتبر أن التصويت لم يكن من الحقوق الممنوحة للمواطنين، فلكل ولاية الحق ضمن الدستور في تحديد من يستطيع ومن لا يستطيع التصويت ضمن حدودها.

أخذت الولايات الأمريكية الجنوبية تضع قوانين تلغي حق الأمريكيين السود بالتصويت، ففرضت القدرة على القراءة والكتابة وحيازة الملكية كشروط أساسية تحول من خلالها دون مشاركة العبيد السابقين في التصويت. واستمر الأمر على هذا الحال لما يقارب المائة عام[1].

تكمن المسألة الرئيسة في ألاّ يتحكم عنصر بشري بعنصر آخر، وهذه قضية ما زالت في منتهى الأهمية بالنسبة للأمريكيين الأفارقة، ذلك أنهم استمروا في الكفاح من أجل هذه الحرية، ما أبقى تلك الفكرة حية بينهم.

تجسد اشتعال الكفاح من أجل المساواة العرقية في ليلة من

(1) م ن، ص 83.

كانون الأول/ ديسمبر من عام 1955 أي في خضم أجواء ما يعرف بالحرب الباردة.

بعد يوم عمل شاق قامت المواطنة الأمريكية السوداء روسا بارك البالغة من العمر ثلاثة وأربعين عاماً، والعضو النشطة في حركة مناهضة للتمييز، قامت بركوب واحدة من وسائل النقل العام في مونتغمري ألاباما، متوجهة نحو المقاعد الخلفية، حسب القانون الذي يفرض على السود الجلوس في المقاعد الخلفية من وسائل النقل العام ولكن الحافلة كانت مزدحمة، فجلست في الوسط.

بعد عبور عدة محطات، توقفت الحافلة لعدد من الركاب البيض، وصاح السائق كعادته بصوت مرتفع: على السود العودة إلى الخلف! رفضت روسا بارك العودة إلى الخلف، فاعتقلت لانتهاكها قوانين النقل في المدينة. دعا الزعماء السود إلى مقاطعة حافلات النقل العام في المدينة.

على مدار الأشهر التالية، برز من بين الزعماء السود مرشد ديني شاب هو مارتن لوثر كينغ، حشد الأجيال الجديدة حول وجهة نظره التي تدعو إلى إجراء التغيير وتحقيق المساواة بعيداً عن العنف.

دعا مارتن لوثر كينغ إلى مقاومة بعيدة عن العنف، وأصر على استخدام سلاح المحبة، مصراً ومؤكداً على أن العنف يدمر الذات، وأن من يعتمد على قوة السيف يموت بقوة السيف. ولكن كفاح لوثر كينغ السلمي لم ينفعه في مواجهة العنصرية الأمريكية التي لا تميز بين مكافح سلمي في سبيل الحقوق المغتصبة للسود ومكافح يختار طريق مواجهة الحديد بالنار.

ولكن الفارق الوحيد هو أن إحقاق الحقوق المشروعة للمواطنين السود قد تمَّ على أيدي مناضلين من الأفارقة الأمريكيين الذين جابهوا

العنصرية الأمريكية بمثلها وهددوا بنشر الخوف والرعب في أرجاء الولايات الأمريكية بكاملها، كما هو حال المناضل الشهير مالكوم إكس الذي جرب كل سبل التعاضد الأخوي قبل أن يلجأ إلى مواجهة القوة بمثلها على طريقة منظمة الفهود السود.

كان مارتن لوثر كينغ يدعو المواطنين السود في خطاباته السلمية قبل مصرعه إلى متابعة المسيرة بلا تردد، معتبراً أن ضرب الشبان والفتيات من السود وقتلهم لن يوقف المسيرة التي ستبقى مستمرة.

ولكن حركة مارتن لوثر كينغ السلمية لم تسهم كثيراً بإحراز الحقوق المدنية، لأن العنف العنصري لم يتوقف في أوساط البيض، ما أدى إلى توجه المزيد من المواطنين السود إلى خيارات مالكوم إكس الذي كان حينها عضواً في منظمة إسلامية تعرف باسم أمة الإسلام يتزعمها لويس فرخان.

تمكنت منظمة الأمة في أواسط الخمسينات من إجراء تحول في اقتصاد السود عبر تنامي شبكات مخازنها الكبرى ومصابغها وأفرانها ومزارع أبقارها. ولكن مع بروز مالكوم إكس من خلال إدارته لمسجدها في نيويورك أخذت هذه الحركة تنمو وتزدهر.

وفي خطبة ألقاها بمناسبة افتتاح المسجد ردد مالكوم إكس جملته الشهيرة التي قال فيها: «أميركا بنية أعدت للبيض. لا حقيقة لما يدّعونه من حرية للسود في هذا البلد، لا حقيقة لما يدّعونه من عدالة للسود في هذا البلد، لا حقيقة لما يدّعونه من مساواة للسود في هذا البلد، هذا بلد للبيض وحدهم»[1].

---

(1) م ن، ص 269.

ثم أضاف في جانب آخر من خطبته يقول: «لا نكتسب الحرية إلاّ بالاقتراع أو الرصاص. لا يمكن إحراز الحرية بطريقة أخرى. لن نقبل من أحد مطالبة السود بوقف العنف دون مطالبة البيض بوقف العنف». «لا نستطيع المطالبة بالكرامة الإنسانية حتى نتخلص أولاً من الأسباب التي تعوق كرامتنا. لن يقف أحد في طريق حريتنا وكرامتنا الإنسانية، لا أحد يقف في طريقنا إلاّ أبيض اللون أزرق العينين»[1].

عام 1965 تعرضت عائلة مالكوم في هارلم لإلقاء القنابل فطالب مالكوم الإف بي آي إجراء التحريات اللازمة، ولكن من دون جدوى. وبعد أسبوع من ذلك عقد مالكوم اجتماعاً لمنظمة الوحدة الأفريقية الأمريكية في قاعة أودوبوم في نيويورك، وفجأة ثارت حالة من الفوضى أطلق خلالها النار على مالكوم فأردي قتيلاً ليتبين لاحقاً أن الإف بي آي كان أيضاً وراء تدبير الجريمة.

مات مالكوم إكس، ولكن أفكاره المتعلقة بحقوق السود بقيت منتشرة في الشوارع. المبادىء السبعة عشر التي تألف منها برنامج حركة الوحدة الأفريقية الأمريكية التي أسسها بعد خروجه من أمة الإسلام، اعتنقت من قبل جيل جديد من النشطاء السود، حيث احتشد أشدهم التزاماً في منظمة الفهود السود، التي تعتبر الأعمق بين المواطنين السود في الولايات المتحدة، والتي يقال إنها لعبت دوراً هاماً في إحراز الحقوق المدنية لهم في تلك الفترة[2].

يعتبر برنامج المبادىء السبعة عشر التي حددها مالكوم في حركة

(1) م ن، ص 487.
(2) م ن، ص 88.

الوحدة الأفريقية الأمريكية برنامجاً شاملاً. فهو يعالج كل القضايا التي واجهت المواطنين السود في الستينات والسبعينات وما زالت حتى يومنا هذا، كالتعليم والإسكان وفرص العمل والتي اختصت لاحقاً في ما يعرف الآن ببرنامج النقاط العشر.

تعززت حركة الحقوق المدنية التي بدأت في أواسط الخمسينات وبلغت ذروتها في نهاية الستينات، ذلك أنها ملأت الفراغ بين ما يطرح من مفاهيم إنسانية في الخارج، تجاه الحرب الباردة التي كانت الولايات المتحدة تتزعمها في العالم، وحقيقة أن ملايين الأمريكيين السود يعيشون وسط حالة من التمييز العنصري المشابه جداً لما كان يتعرض له السود في جنوب أفريقيا وما يتعرض له العرب في فلسطين.

أُجبر جون كينيدي بعد انتخابه على استقبال مارتن لوثر كينغ، ومائتين وخمسين ألف أمريكي آخر شاركوا في مسيرة نحو عاصمة البلاد، يوم الثامن والعشرين من آب/ أغسطس من عام 1963. عرف ذلك بيوم المسيرة إلى واشنطن. وقد أجبر كينيدي على اتخاذ هذا الموقف تحت ضغوط أجواء الحرب الباردة التي أساء فيها التمييز العنصري الممارس بحق السود لسمعة الولايات المتحدة في الخارج، كما أجبر على استقبالهم أيضاً بفعل التحرك الحاسم والفعال والمنظم الذي انطلقت به تجمعات السود في جميع أرجاء البلاد دون مهادنة، ووقوف الكثير من منظمات الحقوق المدنية إلى جانب مطالبهم المحقة والعادلة.

وقد قال مارتن لوثر كينغ في تلك الوقفة الجريئة المكافحة إن لديه حلماً تغوص جذوره عميقاً في الحلم الأمريكي، وبأن هذه الأمة، سوف تنهض يوماً ما، لتحقق هذا الحلم، بأن جميع الرجال

متساوون. ولكن مارتن لوثر كينغ قد اغتيل على أيد الإرهاب الأمريكي الذي سعى لكبح تحركات حركة الحقوق المدنية التي تعززت بعد توقيع وثيقتين هامتين، وثيقة الحقوق المدنية، ووثيقة حق الانتخاب، في عهد الرئيس جونسون أواسط الستينات. لم تغير وثيقة الحقوق المدنية حياة المواطنين السود فحسب، بل شكلت حافزاً لمجموعات عرقية أخرى كي تتبع التكتيك عينه واللغة ذاتها للمطالبة بحقوقها وحرياتها، فهناك أقليات أخرى كذوي الأصول الآسيوية واللاتينية، والهنود الذين شكلوا مجموعات خاصة بهم ملهمين بكفاح السود.

لهذا، تجمع الدراسات الأمريكية على أن أشكال التمييز النابعة من العبودية لم تنته بعد، رغم ذروة الكفاح من أجل الحقوق المدنية في الستينات، وقد كتبت ماريا نستراس في هذا الخصوص: «في الماضي لم يكن ينظر إلى الأسود إلاّ كأحد عناصر الاقتصاد الغربي بمجمله، فما هو إلاّ أداة أو آلة لا أحد يفكر بالتخلص منه، لأنه كمٌ مجرّد وسلعة ومتاع وأثاث». وحين تداول السياسيون الأمريكيون بعد ما تعرضوا له من ضغوط وفكروا بالتساهل مع السود، لم يتحدث الكثيرون منهم عن دمجهم في المجتمع جدياً ليصبحوا أحراراً، بل طرحوا فكرة إرجاع السود إلى أفريقيا التي جاؤوا منها، أو تخصيص أرض لهم في الغرب «الذي ما زال متوحشاً». أما الدمج بمعناه الصحيح، فقد استبعد باعتبار أن الأسود هو بطبيعته أدنى مستوى وسيبقى، من وجهة نظرهم، كذلك إلى الأبد[1].

تنبع أهمية كفاح السود والأقليات في الولايات المتحدة من

---

(1) أمريكا التوتاليتارية، م س، ص 37.

ضرورتها في مواجهة لما تتعرض له هذه المجموعات من اضطهاد عنصري منظم من قبل الحكومة الأمريكية نفسها، وهناك عدة أمثلة على ذلك نذكر منها ما شهده القرن العشرون من تجربة دامت أربعين عاماً في توسكيغي ألباما حيث كان الذكور من السود المصابين بمرض الزهري جزءاً من تجربة لمعرفة ما يفعله الزهري بالجسم إن لم يخضع للعلاج.

شهدت ألباما في الثلاثينات انتشار مرض الزهري الذي ينقل بالتزاوج حتى بلغ مستوى الأوبئة، إذ أصاب حينها ما يقارب أربعة وثلاثين بالمائة من الشبان الذين في سن الزواج. وقد ساد تلك الفترة اعتقاد عنصري يدّعي بأن ردة فعل الأمريكيين الأفارقة على الزهري مختلفة عن ردة فعل الأمريكيين البيض، مدعين أن الأمريكي الأبيض أكثر ثقافة وذكاء من الأسود، لهذا يهاجم المرض دماغه، وأن الأمريكي الأسود أقوى جسدياً، لهذا يهاجم المرض قلبه.

تطوع بعض الأطباء والممرضين السود لتقديم خدماتهم المهنية، على أمل المساعدة في تطوير الخدمات الطبية اللازمة لمرضاهم، ولكن مشاركة الأطباء السود شكلت غطاء عنصرياً لم يحم المواطنين السود من الاستغلال والمهانة والمرض والموت.

أُخضع ستمائة من الرجال السود لدراسة توسكيغي، ليشكلوا مجموعتين: الأولى من غير المصابين بهدف المراقبة، أما المجموعة الأخرى فكانت من المصابين بمرض الزهري، وقد تم اختيارهم جميعاً من المنطقة نفسها، ومن أشخاص لم يعلم الكثير منهم ما هو المرض الذي يعانون منه.

قيل لهم إن لديهم دماً فاسداً وإن عليهم العودة باستمرار إلى

مركز الصحة لمراقبتهم ومعالجتهم. وقد صدقوا ذلك وأعجبتهم الفكرة لأنهم من مناطق ريفية فقيرة لم يسبق لهم أن حصلوا على أي نوع من الرعاية الصحية الحكومية، كما لم يكن لديهم مستوى تربوي يذكر، ما جعلهم يسعدون لخضوعهم «لبرنامج رعاية صحية» يتمكنون عبره من رؤية الطبيب بشكل دوري؛ ما شجعهم على المشاركة هو أن العائلة قد وعدت بمبلغ هائل قيمته خمسون دولارًا في حال الوفاة، وقد عنى ذلك الكثير بالنسبة لتلك العائلات لأنه يمكنها من دفن فقيدها بطريقة لائقة.

عام 1947 وبعد خمسة عشر عاماً من بدء الأبحاث، دون علم المصابين بما يتعرضون له من تجارب مخبرية، تم اكتشاف الدواء المناسب لمعالجة الزهري. إلاّ أن الرجال السود المصابين بالمرض ممن يخضعون للتجربة، لم يحقنوا به كي لا يفسدوا التجربة التي تجريها الحكومة الأمريكية عليهم.

لا أحد يعرف بدقة عدد الذين ماتوا منهم خلال العقدين التاليين لعدم تلقيهم العلاج اللازم، ولكنَّ آلافاً من المواطنين السود المصابين بالمرض قد سقطوا دون علاج رغم توفر الدواء ومنحه للمصابين البيض وحدهم. وقد استمر الحال على هذا النحو منذ الأربعينات حتى بزغ في الستينات فجر جديد من الكفاح من أجل الحقوق المدنية وبدأ طرح الأسئلة حول تلك الأبحاث العنصرية القاتلة والتي لم ينته العمل بها إلاّ عام 1972 بضغط من المواطنين السود أنفسهم بعد أن اكتشفوا بأنفسهم حقيقة ما يتعرضون له من مجزرة لا أخلاقية.

كما استمرت الضغوط من قبل المواطنين السود الأمريكيين حتى أجبروا الحكومة الأمريكية على الاعتراف بجريمتها، وفي السادس

عشر من أيار/ مايو من عام 1997، بعد بدء «الدراسة» بخمسة وستين عاماً اعتذر الرئيس كلنتون علناً وأمام عائلات الضحايا على ما حدث بالقول: «نستطيع التوقف عن الإشاحة برؤوسنا، لنقول أخيراً باسم الشعب الأمريكي، أن ما فعلته الحكومة الأمريكية كان مخجلاً، وأنا متأسف».

إلا أن هذا الاعتذار لم يغير من الواقع شيئاً لأن 73% من المصابين بفيروس الإيدز في أميركا هم من السود واللاتين، دون ذكر الأقليات الأخرى. وإذا نظرنا إلى أفريقيا سنرى واقعاً أشد رهبة لما فيه من صورة عنصرية مشابهة.

فقد أثبتت الشهادات التي جمعتها «لجنة تقصي الحقيقة والمصالحة» الأمريكية في العام 1998، أن الولايات المتحدة شجعت نظام التمييز العنصري في جنوب أفريقيا على تطوير برنامج أسلحة كيميائية وبكترولوجية بهدف استعماله ضد المواطنين السود في البلاد. وفي هذا الإطار أفاد الجنرال الجنوب أفريقي ووتر باسون، الذي كان يشرف على البرنامج منذ 1981، أنه خلال لقائه مع جنرال في الجيش الأمريكي وليم أوغرسون قال له الأخير إن «الحرب الكيميائية هي أهم سلاح استراتيجي لأنه يقتل فقط الأحياء ويحافظ على البنى التحتية والتجهيزات. وإن مناخ أفريقيا الحار هو المناخ المثالي لمثل هذا السلاح لأنه يسهل انتشار السم وامتصاصه عبر تنفس الجسم وجريان الدم السريع لدى الأشخاص المستهدفين». وقد تم تجريب هذا البرنامج في أكثر من مشروع بالطريقة نفسها التي تم فيها تطوير البرامج الأمريكية، قبل اختيار بعض المواد التخديرية على جنود سود، أو تطوير مادة قاتلة تسبب أزمات قلبية ويبدو كأنه «موت طبيعي». أو تسميم مياه الشرب واستعمال غازات سامة لشل وقتل المعارضين في

جنوب أفريقيا والدول المجاورة[1].

لا شك أن الأفارقة الأمريكيين تعرضوا بعد الحرب لكثير من أشكال العنف والاضطهاد والتمييز العنصري، وهذا ما جعلهم يستثنون من الانخراط في المجتمع الأمريكي وعرضّهم لنوع من التخلف ضمن المجتمع الأمريكي، حتى إنه يمكن اليوم التأكيد بأن أكبر نسبة من السجناء في الولايات المتحدة الأمريكية هم من السود بشكل أساسي، وأن أعلى نسبة من الثلاثين مليون أمريكي الذين يعيشون تحت مستوى الفقر في الولايات المتحدة هم من السود أيضاً، وأن أقل نسبة من المتعلمين الأمريكيين هي من نصيب المواطنين السود الذين عادوا على القارة الأمريكية بكثير من الثروات، ليحصدوا بالمقابل حملات من الاضطهاد التي ما زالوا يتعرضون لها حتى يومنا هذا.

أبسط مقارنة يمكن إجراؤها لإبراز الفرق الشاسع بين تأثيرات العبودية ونتائجها على القارتين الأفريقية والأمريكية هو أن نتائج ما جاءت به العبودية إلى الولايات المتحدة هي: ثروات كبيرة، جني أرباح طائلة تحقيق نمو اقتصادي لا يقارن لم يسبق له مثيل في التاريخ، تحقيق مستوى من التطور الصناعي والنمو الصناعي لم تعرفه لا أميركا ولا بلدان أخرى ولا أي دولة بهذه الفترة القصيرة وبهذا الجهد الكبير. هذا بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية، أما بالنسبة للأفارقة السود في أميركا فقد عنت لهم مشقة كبيرة قد لا تقتصر على ساعات العمل الطويلة جداً والجهد المضني، إذ كانوا يبدأون العمل منذ ما قبل ساعات الفجر وحتى ما بعد المغيب، وقد شمل ذلك العمل في بعض الصناعات الأولية وتحديداً في مجال سكك الحديد

(1) المحرر العربي عدد 316، 18 تشرين أول/ أكتوبر 2001، ص 16.

والأعمال الشاقة المشابهة كما هو حال المجال الصناعي والزراعي وتحديداً في زراعة القطن، إلى جانب زراعة التبغ، حيث شكل العبيد عاملاً أساسياً في تطورها ونموها. أما القارة الأفريقية فكانت ترزح تحت وطأة الفقر التام، وعدم الاستقرار الأمني، والحرب المستمرة بين القبائل، وغياب الأمن الكلّي وعدم القدرة على تطوير أي نوع من الصناعات البسيطة الخزفية التي كانت سائدة، وإهمال كلّي للمجال الزراعي رغم الأراضي الشاسعة الخصبة الموجودة هناك، أي إنه أوقف تطور القارة ونموّها كلياً إلى جانب حقيقة فساد الزعماء المحليين الذين كانوا يخوضون المعارك من أجل أسر المزيد من السود، مواطنيهم أبناء القارة، وبيعهم بأسعار بخسة جداً للأوروبيين. هذه هي أبسط الطرق المباشرة للمقارنة بين التأثير الفعلي والمباشر لثلاثة قرون من الزمن، حوالي ثلاثمائة عام أو أكثر من العبودية سادت وأثّرت بشكل إيجابي كلياً على القارة الأمريكية وبشكل ما زالت تعاني منه القارة الأفريقية.

يعتمد النظام الذي أقيم بسبب العبودية على بعض العوامل التي تحد وتمنع كلياً من هذا التطور أو من أي نوع من التطور: أولاً مقايضة العبيد بالأسلحة، فالقبائل التي كانت تبيع العبيد كانت تحصل في المقابل على بعض الأغذية المستوردة ـ علماً أن أفريقيا قادرة على إنتاج هذه الأغذية ـ وعلى الأسلحة وعلى المشروبات الكحولية التي تحول دون القدرة على العمل، وبالإضافة إلى الأسلحة التي كانت تحفّز على القيام بالمعارك، يأتي ثانياً، عامل آخر وهو الأهم: إن هذه الحروب التي كانت تقوم نتيجة لعملية التبادل السائدة كانت تؤدي إلى غياب كلّي للأمن والاستقرار في القارة فكان أي مواطن يسعى للخروج للتجارة أو للزراعة أو لأي سبب كان، لا ينعم بالأمن للعمل

أو القيام بوظائفه، وبالتالي كان يفضل البقاء ضمن إطار القبيلة وأحياناً ضمن إطار منزله لا أبعد. وهكذا إذا أخذنا بعين الاعتبار هذه العناصر مجتمعة يمكن أن نختصر المقارنة مرة أخرى بالقول إنه في حين كانت القارة الأمريكية منشغلة في الاعتماد على النخبة في قوة العمل للعبيد السود الأقوياء والأشداء الذين اختارتهم والذين تمكنوا من الصمود رغم صعاب عبور المحيط الأطلسي استغلتهم أقسى استغلال على مدار ثلاثمائة عام ضمن نظام اقتصادي مقبول نشط، نما وعزز التطور في الولايات المتحدة الأمريكية وحرم بالمقابل القارة الأفريقية من هذه الطاقة وساد نظام من مبادلة البشر بالأسلحة والكحول على مدار ثلاثمائة عام من بسط نظام القتل والتهجير واقتلاع الناس من قراهم وبيوتهم.

وما زالت القارة الأفريقية تخضع حتى اليوم لمختلف أشكال التمزيق بهدف السيطرة على ثرواتها ومواردها الطبيعية من قبل القوى العظمى وعلى رأسها الولايات المتحدة التي لا تتوقف عن التآمر على بلدان القارة السمراء والمساهمة في إشعال حروبها الداخلية بهدف إضعافها لإخضاعها. وكان ما نفذته عام 1959 من عمليات استخباراتية وتهريب الأموال إلى الكونغو لإسقاط حكم باتريس لومومبا بعضاً من هذه العلميات القذرة التي دفعت خلالها مائة ألف دولار خلال شهر واحد، ما يساوي عشرات الملايين في الوقت الراهن، لتصبح محطة السي آي إيه في الكونغو شريكاً في كل المؤامرات الجارية ضد بلدان تلك المنطقة ورؤسائها[1].

(1) عن كتاب (L'Etat Voyou "William Blum") صحيفة السفير، بيروت، 15 ـ 1 ـ 2003، عدد 9398.

وبعد اجتياح الصومال في عامي 1992 و 1994 قامت السي آي إيه بإرسال المعدات العسكرية إلى أوغندا وأثيوبيا وأريتريا ودعم العصابات المسلحة المعارضة لنظام الخرطوم، حيث كان الدعم العسكري يتجاوز أغراض جيش صغير في الجنوب السوداني. وفي نيسان/ أبريل من عام 1996 زار جون دويتش، رئيس السي آي إيه، أديس أبابا سراً وبذل جهداً محموماً شاركت فيه وكالة الأمن القومي (NSA) لتعزيز قوات الجنوب السوداني وحث قادتها على التصلب. وقام تنسيق بين السي آي إيه وأثيوبيا وأريتريا للاستمرار بالضغط على الخرطوم، وقد أعدت الاستخبارات الأمريكية حينها 3000 مقاتل داخل أريتريا لقطع الطريق بين العاصمة وميناء بورت سودان، وما زالت الضغوط مستمرة على حكومة الخرطوم تمارس حتى الآن[1].

من المشكلات السائدة في القارة الأفريقية اليوم أن هناك مدناً أساسية وعواصم في أفريقيا ما زالت شوارعها غير معبدة، وقد لا تختلف عمّا كانت عليه مع بدء تجارة العبيد، ولا نتحدث هنا عن الضواحي بل إن شوارع المدن الرئيسية ليست معبدة كما لا يوجد نوع من الاتصالات الداخلية والهاتفية عبر القارة الأفريقية. هناك أعداد هائلة بل النسبة الأعلى من أبناء القارة لا يعرفون الاتصالات الهاتفية ولا يعرفون ما هو الكمبيوتر ناهيك عن التكنولوجيا الحديثة من تلفزيون وستالايت وأقمار صناعية وغيرها. هذه من الوسائل والحاجات البشرية التي أصبحت من احتياجاتنا اليومية الآن، وهي ليست متوفرة إطلاقاً في مناطق شاسعة من أفريقيا. حتى إن المسافر الأفريقي الذي يحتاج للانتقال من (طوغو) إلى (بينين) أو إلى أي بلد

(1) صحيفة واشنطن بوست، 1996/ 11/ 10.

من القارة الأفريقية، وهي بلدان قد لا تكون بعيدة عن بعضها البعض، يضطر أحياناً، بل غالباً، للذهاب إلى فرنسا أولاً والهبوط في مطار أورلي، ثم العودة إلى القارة الأفريقية من جديد للذهاب إلى بينين أو غينيا بيساو أو كوناكري الخ. هذا بالإضافة إلى ما تعانيه شعوبها من مجاعة تنتشر في تشاد وزائير والصومال والسودان وأخيراً وليس آخراً ما يصيب سكان القارة من مرض الإيدز الذي يجد علاجاً نسبياً في أوروبا والولايات المتحدة بينما يحرم المرضى في القارة الأفريقية من وسائل العلاج المتوفرة بأسعار خيالية.

بما أننا الآن بصدد المقارنة، لا بد من إجراء مقارنة بين الحالة الأفريقية والحالة اليهودية وما يقال عن (الهولوكوست) وما يشاع حول ما أصيب به اليهود من كوارث وما يقال عن المرتدين وما يطلبه الباحثون من جارودي ومناهضيه وما يقوله البعض من أن هذا (الهولوكوست) كان واقعاً قائماً، والبعض الآخر يقول إنه لم يحدث بهذا الكم. البعض يتحدث عن ستة ملايين ضحية والبعض الآخر يقول إن هذه أعداد مبالغ فيها جداً.

هذا ما يشير إلى المفهوم العنصري للتعامل على المستوى الحالي بين الشعوب وبين الدول، إذ تجبر ألمانيا وبعض الدول الأخرى على تقديم المعونات والتعويضات للدولة الصهيونية، ضمن عملية ابتزاز واستغلال كبيرين لفكرة (الهولوكوست) من قبل الصهاينة لصالح الكيان الاستيطاني الغاصب لفلسطين، بينما تعيش أفريقيا أزمات كبيرة ومستمرة نجمت عن العبودية المؤكدة طوال ثلاثة قرون استهلك طاقتها وقوتها، لنجدها اليوم تتسول من الدول الغربية، ما يحول، على ما يبدو، دون طلبها لحقها ليس في الاعتذار فحسب - فالاعتذار مسألة معنوية ولا بد منها بالطبع - بل ولضرورة التعويضات

الكفيلة بإلحاق القارة السوداء في ركاب العالم المتحضر. قد لا نجد أي عواقب نجمت حتى اليوم على ما يسمى بكارثة (الهولوكوست) سواء بلغ عدد الضحايا ستة ملايين أو أكثر أو أقل.

لسنا هنا بصدد التقليل من همجية ما تعرض له اليهود في الحرب العالمية الثانية التي لا شك في ظلمها وما التهمته من مدن ومناطق أزالتها عن الخريطة في العالم وشعوب تشتتت، وأبلغ مثال على ذلك ما أصاب سكان هيروشيما وناغازاكي، وكتائب كاملة من الجيوش التي فتك بها الطاعون وضاع أثرها وسط صحراء العلمين.

كثيرة هي الشعوب التي عانت وشردت، ولكن يبدو أنه في عالم تحكمه عدالة ناقصة يتمكن الصهاينة من إقناع الجميع بعدالة قضيتهم وتغلبها على جميع القضايا بما في ذلك القبائل الأفريقية التي أبيدت عن بكرة أبيها وأزيل موطنها من الوجود بعد انتزاع أطفالها عن صدور أمهاتهم وبيعهم في سوق النخاسة مع أمهاتهم، ليتوارثن عبودية حطمت البنية القبائلية والعائلية والاجتماعية لبلدان أفريقيا التي ما زالت تعاني من آثار ذلك حتى اليوم.

العبودية ليست قضية أفراد تحولوا إلى سلع تجارية وتم استعبادهم، بل هي تحطيم الذات الإنسانية لقارة بكاملها حرمت الشعور بالأمن وتعرضت لتعقيدات في العمق النفسي والوجداني وستبقى حاضرة في أبنائها أينما كانوا.

المهم هو أنه لم تلحق بهؤلاء السكان عواقب وخيمة تشبه ما أصاب القارة الأفريقية بكاملها من كوارث على الصعد كافة. وهناك أدلة كثيرة تثبت المسؤولية المباشرة والأخلاقية للدول الغربية، والولايات المتحدة على رأسها، تجاه ما تعانيه الشعوب الأفريقية حتى

اليوم نتيجة كارثة العبودية التي حلت بها، وهي كارثة مؤكدة لا لبس فيها، كما أنها معزّزة عبر أدلة ومصادر موثقة من قبل الأوروبيين والأمريكيين أنفسهم الذين يتحدثون عن 12 مليون أجبروا عنوة وبيعوا وتمت المتاجرة بلحمهم ودمهم ونسلهم حتى فترة وجيزة.

ويتطلب ذلك رد اعتبار لهذه الأمم والشعوب الأفريقية لما حل بها، وهي لا يكفيها مجرد اعتذار لها كمسألة معنوية فحسب، بل لا بد من التعويضات، وهذه التعويضات ليست فردية بل هي مطروحة أيضاً على المستوى التكنولوجي. هذه القارة لم تتمكن من اللحاق بركب العالم بسبب هذه الكارثة ولها الحق في إلغاء جميع ديونها، فالديون التي ترزح تحت وطأتها اليوم ناجمة عن العبودية ويحق لهذه الشعوب الحصول المجاني على جميع الوسائل التكنولوجية المتوفرة في الغرب كجزء بسيط من رد الجميل لمساهماتها في تطوير الحضارات الغربية رغماً عنها، ورد الاعتبار إليها للإهانة التي لحقت بها.

يتضح من التعرض إلى بعض من جوانب العبودية وآثارها على القارة الأفريقية من جهة وعلى أجيال استعبدت لأكثر من ثلاثمائة عام من جهة أخرى، أن المنطق الأمريكي في التعامل مع الآخر يعتمد منذ قيامه على الهيمنة والإخضاع بوسائل أساسها القوة، وقد لا يمكن وصفها إلاّ بالعنف والإرهاب اللذين اتّبعا مع حضارة السكان الأصليين التي واجهت المستوطنين في القارة الجديدة فعملوا على سحقها وتحطيمها وما زالوا يسعون إلى تشتيتها وإبادتها بشتى السبل.

هذا مصير الحضارة الثانية التي قوبلت بالعبودية والمهانة والتخلف والأحقاد وما زالت تمارس حتى اليوم على المستويين

الرسمي والشعبي بأنواع مختلفة من التمييز العنصري التي تخطت حدود المواطنين السود في الولايات المتحدة لتزرع التخلف والتبعية والحروب في قلب القارة الأفريقية نفسها.

ولم تكن مصائر الشعوب الأخرى التي هبت عليها رياح الشمال الأمريكي أوفر حظاً، ذلك أن الجذور التي رسخت في تاريخ هذا الكيان وبنيته تنذر بأطماع لا حدود لها، فهي لا تؤمن ولن تقبل بحوار الحضارات بل بسحقها وإخضاعها أولاً كخطوة أولى على طريق إلغائها كلياً. وإذا كان إلغاء حضارة السكان الأصليين والأفرو أمريكيين في الولايات المتحدة قد استغرق خمسمائة عام، فلا شك أن عصر السرعة الذي نعيشه اليوم ينبىء بخطوات أشد عنفاً لحرق المراحل في إخضاع شعوب الأرض قاطبة.. دون أي استثناء، فمن يقف ضد الولايات المتحدة اليوم مشروع إخضاع مباشر، ومن يقف معها مشروع إخضاع مؤجل، ولكن ليس طويلاً.

مشاريع أميركا في الهيمنة بدأت منذ نشأتها ومن داخلها، ويبدو أنها حملت بذور الأحقاد عبر موجات هجراتها الأولى، وهي تصر على السير بها قدماً تماشياً مع متطلبات عصر الفضاء، وكأنها تعد لإخضاع شعوب الأرض وفرض الهيمنة الأمريكية على العالم بحجة الدفاع عن الديمقراطية والعولمة والنظام العالمي الجديد وغيرها من المسمّيات المشبوهة.

قضية الزنوج والرقّ

الحرب الأهلية (1861 ـ 1865م)(*)

في الحرب الأهلية كان التخلص من الرق لا يكاد يتجاوز كونه نتاجاً ثانوياً، لأن الحرب لم يجرِ خوضها لتحرير الرقيق، بل للحفاظ على الوحدة، وعلى الاتحاد. ففي المقام الأول كانت مسألة الرقيق لا تثير اهتمام ولايات الشمال، ولا اهتمام ولايات الجنوب، بل كان يهم كليهما في المقام الأول مسألة السلطان، وكان يهم الشمال قبل كل شيء السيطرة على الجنوب.

وكانت المسألة، في جانبها الحاسم، تتعلق بمجادلة بين وَسَطَيْن اقتصاديين متخاصمين. وكانت في الشمال والجنوب بُنىً اقتصادية واجتماعية مختلفة كل الاختلاف. ففي الشمال كانت تسود الرأسمالية الصناعية التي كانت تتطور تطوراً مطرد الزيادة، والزراعة، وفي الجنوب كان يسود مالكو المزارع، وهم أرستقراطية نخّاسين معهم الطبقة الوسطى من أهل الأموال الذين يتداخل بعضهم في بعض في

(*) **المرجع**: كارلهاينتس دشنر «المولوخ: إله الشر/ تاريخ الولايات المتحدة». ترجمة محمد جديد. مراجعة وإعداد زياد منى، دار قدمس. دمشق. الطبعة الأولى 2003، ص 181 ـ 211.

بلبلة وتشوّش. وما كان يعنيه للشمال المصنَّع تقنيته المتطورة، ومصانعه، كان يعنيه للجنوب ذي التوجُّه المبني على الاقتصاد الزراعي الصرف، والاجتماعي الزراعي الصرف، بالاتُ قطنه ورقيقه الزنوج. وكان القطن يتبوّأ مكانة «مَلِك ولايات الجنوب»، ولم تكن الأرباح الكبرى ممكنة إلاّ بالرق، ولذلك كان الجنوب يصرّ على الرق، بل كان يصرّ على إلغاء حظر تجارة الرقيق الصادر في عام (1807م).

ومع ذلك فقد كان توسُّع الرق خليقاً بأن يتيح للجنوب على الأقل، إمكانية السيطرة الاقتصادية، ولذلك كان الشمال يعارض هذا، إذ كان عالمه الصناعي والمالي الكبير الذي يزيح الطبقة العليا في ولايات الجنوب عن المواقع ذات الشأن والنفوذ في الولايات المتحدة، يريد أن يخضعها أيضاً. ولم تكن الأهمية الحاسمة للجوانب الأخلاقية، بل كانت للجانبين الاقتصادي والسياسي وحدهما.

أما إلى أي مدى كان يهمّ كل جانب منفعته الخاصة وعمله الخاص وماله الخاص فقط، فذلك ما يكشف عنه السلوك الانتخابي للناخبين ذوي الأصل الألماني في الشمال والجنوب في أثناء معركة انتخابات الرئاسة عام (1860م). لقد انتصر أبرهام لنكولن في ثماني عشرة ولاية، وكان ينتخب بفارق كبير حيثما كانت ترجح كفة الألمان، وفي مقابل ذلك لم يحصل في الجنوب على صوت ألماني واحد.

وبعد الحرب يصبح الجنوب بالقياس إلى زمرة أهل الصناعة والزراعة في الشمال المتنصّر مجالاً لاستثمار رأس المال واحتياطياً للقوى العاملة. وما من شك في أن القوم يتصالحون مرة أخرى مع منهكي الرقيق السالفين الذين يحتفظون بملكيتهم من الأراضي أيضاً.

وفتح عودة الاندماج للاتحاد الطريق إلى دولة عظمى توسُّعية، وإلى الارتقاء إلى إمبراطورية.

أسطورة لنكولن

كانت المقدمة السياسية المباشرة للحرب معركة انتخابات الرئيس في عام (1860م) وانتخاب الجمهوري أبرهام لنكولن في (6) تشرين الثاني/ نوفمبر ليكون الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة. وكانت هذه أيضاً هي السنة التي أرادت فيها الولايات المتحدة أن تغني تاريخ الحضارة بالروايات الرخيصة (Dime Novels) وتسجيل اختراع البندقية التكرارية التي اخترعها أوليفر ونشستر (Oliver Winchester)، وهي المسماة بندقية ونشستر التي لم تكن تريد أن تستأصل بها آخر الجواميس فقط..

وتفيد أسطورة ذائعة، وما زالت تلقى تصديقاً، أن رئيس الولايات المتحدة النبيل ابن الحطّاب، (أبرهام الشريف) محرر الرقيق (الذي ما زال حتى اليوم يجسِّد لدى الأمريكيين الشماليين أفضل الخصال في أمتهم) خاض الحرب كلها منذ بدايتها الأولى من أجل تحرير الرقيق السود فقط. وفي الواقع لم يكن لنكولن منذ البداية يريد سوى أن يحول دون انقسام الاتحاد، بأي ثمن، ولم يكن هذا الثمن بخساً.

ولئن كان لنكولن فكر في تحرير الرقيق فإن هذا لم يكن إلاّ من أجل وحدة الاتحاد ومن أجل سيطرة الشمال، وهذا ما قاله في كلمة له في حزيران/ يونيو عام (1858م) في سبرِنغفيلد/ إلينويز: «إن البيت المنقسم على نفسه لا يستطيع الصمود. وأنا أعتقد أن هذه الحكومة لا تستطيع أن تحتمل البقاء دائماً وشطرها رقيق والشطر الآخر حر».

وحتى في عام (1860م) عندما تعلن كارولينا الجنوبية انفصالها عن الاتحاد في كانون الأول/ ديسمبر بعد انتصار لنكولن، يقول الأخير مؤكِّداً: «لا أنوي التأثير المباشر في نظام الرق في الولايات التي هو فيها، غير أننا لا نستطيع أن ننفصل، ولا بد للاتحاد من أن يظل قائماً». وفي رسالته الأولى إلى الأمة يصرح الرئيس قائلاً: «أنا لا أتابع، لا مباشرة، ولا غير ذلك، الرغبة في مهاجمة مؤسسة الرق، ولا أملك حقوقاً شرعية في فعل هذا، وليس لديَّ أيضاً ميل لفعل هذا». وفي مرة أخرى يؤكد أنه لو كان في وسعه أن ينقذ الاتحاد بتحرير الرقيق لحرَّرهم، ولو استطاع أن ينقذه من دون أن يحرر عبداً واحداً لفعل ذلك أيضاً. ولكن سرعان ما أخذ القوم ينشرون في العالم أحاديث مفادها أنهم خاضوا الحرب لأسباب أخلاقية فقط.

أما حالة أخلاق الأمريكيين البيض تجاه السود، فذلك ما لا يزال الحاضر يعلمنا إياه على نحو مفزع بما يكفي. ولم يكن لنكولن في تلك الأيام يفكر قط بالطبع في مساواة بين الأسود والأبيض، بل كان (أبرهام الشريف) يصرّ، مثل كل متعصب عرقي، كائناً من كان، وهو محرر الرقيق الذي كان جون هيْه (John Hay) مساعد أمين سره الخاص، على أن يد الرب هي التي أنزلته هذا المنزل، على أساس اختلاف الأسود والأبيض، ويرى كل مساواة اجتماعية أو سياسية بينهما مستبعدة «إلى الأبد». فهو يؤكد في إحدى خطب معاركه الانتخابية، قائلاً: «أنا لا أقف اليوم، مثلما لم أقف في أي يوم سَلَفَ من الأيام إلى جانب الفكرة القائلة إنه يمكن تحقيق مساواة اجتماعية أو سياسية بين العرقين الأسود والأبيض بأي شكل كان، وأنا لا أقف اليوم، مثلما لم أقف في أي يوم سلف من الأيام إلى جانب فكرة جَعْل الزنوج ناخبين أو محلَّفين أو إعلان أنهم ملائمون لتولي

الوظائف أو الزواج من النساء البيض، فهناك اختلاف طبيعي بين العرقين الأبيض والأسود سوف يستبعد إلى الأبد، فيما اعتقد، أن يعيش كلا العرقين على قدم المساواة الاجتماعية والسياسية» وبكامل الوضوح يعلن لنكولن أن «المكانة الأعلى للعرق الأبيض».

ومن البدهي أن القوم في الشمال كانوا يفكرون تفكيراً مماثلاً إلى حد كبير لتفكير الرئيس، كانوا يفكرون في الحفاظ على الاتحاد، وقلّما كانوا يفكرون في تحرير الرقيق الذي نادَوا به بعد ذلك. فمنذ أيام الحرب الأهلية ذاتها، تروي كيتْ كمنغ (Kate Cumming)، التي كانت تعمل في رعاية الجرحى في يومياتها، قائلة، تحت تاريخ «الثالث عشر من نيسان/ أبريل عام (1862م)»: إن أسيراً جريحاً من ولايات الشمال يقول إنه يكره لنكولن وتحرير الرقيق على نحو مماثل لنا على نحو دقيق، وإنه لا يقاتل إلاّ لإنقاذ الاتحاد. وهكذا يقولون جميعاً الشيء ذاته.

من دون وخزاتٍ من الضمير

وفي الجنوب قرر القوم، حتى قبل أن يتسلّم لنكولن، الرئيس المنتخب في السادس من تشرين الثاني/ نوفمبر عام (1860م) مهامّ منصبه، ترك الاتحاد بسلام إذ لم يكن هناك شك في أن انتخاب لنكولن يعطي إشارة البداية السياسية للحرب الأهلية. ومنذ العشرين من كانون الأول/ ديسمبر تفتتح كارولينا الجنوبية، في كولومبيا الانفصال بالإجماع، وفي كانون الثاني/ يناير تلحق بها الولايات التالية ولاية مِسسيسيبِّي، فلوريدا ألاباما، جورجيا لويزيانا، وفي أول شباط/ فبراير تنضم تكساس إليها. وفي الثامن من شباط/ فبراير عام (1861م) تؤسس هذه الولايات اتحاداً مستقلاً قائماً بذاته، وتضع

دستوراً، وتشكل حكومة مؤقتة وتطلق على نفسها اسم (الولايات الاتحادية الأمريكية/ Conferderate States of America). ويصبح رئيسها، في اليوم التالي وزير الدفاع الأمريكي السابق جيفرسون دافيس (Jerfferson Davis). ويتخذ القوم علماً خاصاً بهم، وعاصمة خاصة، كانت أول الأمر منتغمري. ويأخذون عن الاتحاد كل مؤسساته العامة التي كانت قائمة حتى الآن، بما فيها الترسانات والحصون.

ولم يبق سوى حصن سامتر (Fort Sumter) قبالة ميناء تشارلستون في كارولينا الجنوبية يحتله جند الاتحاد. ولمّا كانت المؤونة خليقة بأن تنفد لديهم خلال أجل قريب، فقد كان من المحتمل أن يضطروا إلى الاستسلام عمّا قريب، فلجأ لنكولن إلى حيلة واستفزَّهم فأرسل مجموعة من سفن القتال الصغيرة لتزويد الحامية بالمؤن. وعلى إثر ذلك أخذوا يطلقون نيرانهم على بطاريات الساحل بقيادة القائد الكونفيدرالي بيير بوريغار (Pierre G.T. Beauregard)، في مطلع الفجر على حصن سمْتَر، حيث كان ضباط الاتحاد في المطعم، عند الإفطار يقوم على خدمتهم عبد أسود «بل كانوا يجدون شيئاً من السرور». بعد الإفطار يروي نائب القائد الكابتن دابْلداي (Doubleday)، روايته، ويرد القوم، «من دون وخزات ضمير» على نيران «المتمردين. . ردًّا منتظماً» كل الانتظام. ومع ذلك يستسلم الحصن منذ اليوم التالي. وبكل مظاهر الشرف العسكري ينسحب الأبطال، ومعهم راية ممزَّقة في الحقيقة غير أنها تطير «خفاقة»، ينشدون نشيد (اليانكي دودل/ Yankee Doodle) على قرع الطبول.

وكان كل شيء خليقاً بأن ينتهي بهذا الآن.

ولكن في الحقيقة كانت الحرب قد بدأت عسكرياً، لأن لنكولن

الذي كان انتخابه قد افتتح هذه الحرب سياسياً كان يريد الحرب. وكان يصرح قائلاً: «الانفصال غير شرعي، والاتحاد باقٍ على مدى الدهر». لقد كان خوض الحرب، وكان يريدها كما اعترف هو نفسه، للحفاظ على الاتحاد، لا لتحرير الرقيق. وكان هذا وحده هو هدفه الحربي، منذ البداية الأولى وكان يظهر فزعه إلى أقصى الحدود من إطلاق النار، ولئن كان أكّد في خطبة افتتاح عهده، في الرابع من آذار/ مارس عدم تدخله في مسألة الرق(!) وعدم قبوله الانفصال مع ذلك، فقد كان يتصرف وفقاً لذلك. لقد أوضح أن ثمة تمرُّداً يوشك أن يظهر. وكان يتصرف تصرُّف الحاكم المستبد، ومن دون موافقة الكونغرس، وأمر بحصار للموانىء العائدة للولايات الجنوبية، ودعا (75,000) من جنود المقاومة الشعبية مدة ثلاثة أشهر للسلاح، لإخضاع «العصيان». وفيما بعد تمّ سحب كل الرجال بين العشرين والخامسة والثلاثين، بل سحب غير المتزوجين حتى سن الخامسة والأربعين. وكان في وسع الموسرين أن يتهرَّبوا من الخدمة العسكرية بالطبع، إذ كانوا يدفعون (300) دولار لرجل بديل. وهذا هو أجر عامل على مدى نحو ثمانية أشهر، ولا عجب في أن العمال تحديداً هم الذين كانوا يحتجون على أن استدعاءهم قادهم في مدينة نيويورك، في منتصف تموز/ يوليو عام (1863م) إلى المتاريس، وأنهم يحرقون المنازل، وينهبون ويقتلون، وأن الشرطة والقوات العسكرية تطلق النار عليهم: إذ يُقْتل ويصاب أكثر من ألف نسمة، وهذا بالطبع أمر يسير تقريباً في هذه الحرب. ولكن لننظر إلى ما يقوله أغسطين: «بماذا يعترضون على الحرب يا ترى..». واتخذ لنكولن إجراءات عنيفة قاسية أيضاً ولا سيما في بعض الولايات الحدودية، التي كانت من ولايات الرقيق. وفي ميريلاند تنتهي الأمور إلى حالات من الصدام،

كما تنتهي في ميسوري، التي فَرَض عليها الأحكام العرفية، إلى حرب عصابات بكل معنى الكلمة.

ويشعر الجنوب بحق، أنه مهدَّد وتخرج ولايات أخرى من الاتحاد، وكان أولها ولاية واشنطن وجيفرسون وفرجينيا حيث تصبح عاصمة الاتحاد الكونفيدرالي بعد بعض الوقت رتشمُند ثم أركنساس، تينيسي وكارولينا الشمالية. وعلى النحو ذاته يغادر جيش الولايات المتحدة بعض أكثر ضباطه كفاءة ومنهم جوزف جونستون (Joseph E. Johnston) وروبرت إدوارد لي (Robert Edward Lee)، لأنهم، كما يكتب الأخير في العشرين من نيسان/ أبريل عام (1861م) من فرجينيا إلى أخته قائلاً: «لم أستطع أن أقرر أن أرفع يدي ضد والديَّ وأبنائي ووطني، ولذلك ودعت الجيش آملاً أن لا أضطر إلى اللجوء إلى السيف، إلاَّ أن يكون ذلك دفاعاً عن وطني، حيث تنطوي النفس على الأمنية الصادقة، وهي ألا يحتاج القوم أبداً إلى خدماتي المتواضعة». وقد أصبح لي في غرة حزيران/ يونيو عام (1862م) قائداً أعلى لقوات الجنوب في الشرق، وسرعان ما أصبح واحداً من أشهر القادة في كل العصور.

ولم يستطع لنكولن أن يخوض الحرب بسهولة ومن أجل ذلك فقط خاضها بالطبع، مثلما خاض رؤساء الولايات المتحدة اللاحقون الحروب الأخرى، كالحرب العالمية الأولى مثلاً، والحرب العالمية الثانية، وحرب الخليج، وكان رئيس الحرب الأهلية يعلم أنه خليق بأن يكسبها.

وكانت ثلاث وعشرون من ولايات الشمال (بما فيها كاليفورنيا وأورغن اللتان لم تقاتلا) تقف في مواجهة إحدى عشرة ولاية من الجنوب. وبينما كان الشمال يضم (22) مليوناً من المواطنين كانوا

يزدادون، حتى في أثناء الحرب، على نحو مستمر بالمهاجرين، كان الجنوب لا يضم سوى خمسة ملايين ونصف من البيض، وثلاثة ملايين ونصف إلى أربعة ملايين من الرقيق السود. وكان الشمال يتميز بتقنية متطورة واقتصاد سليم، إذ كانت صناعة الحديد والتسلُّح تحديداً قد حققت تقدماً لا يستهان به منذ بداية الأربعينيات، نتيجة لطرق الإنتاج المحسَّنة، واستخدام فحم الأنتراسيت وطاقة البخار، وإن كان التصنيع الحقيقي لم يبدأ إلاّ بعد الحرب الأهلية. وعلى النحو ذاته شرع القوم في مَدّ شبكة الخطوط الحديدية التي أمَّنت الإمدادات وعمليات التحويل السريعة للقوات، وكان هناك فوق ذلك، مصارف ذات رأسمال قوي. ونشأت ترسانات بحرية وسفن حصار، ونمت البحرية التجارية، وزادت عليها أيضاً البحرية الحربية المتفوقة عليها إلى حد كبير، وهي البحرية التي حاصر بها القوم سواحل ولايات الجنوب.

وعلى العكس من ذلك، فإن الجنوب كان متخصصاً في الإنتاج الزراعي، في القطن والتبغ والرز، وقصب السكر، وفي مقابل ذلك كانت تُفتقد الاحتياطات الصناعية إلى حد كبير. وكانت تُفتَقَد على النحو ذاته صناعة تسلُّح حقيقية. وكانت شبكة الخطوط الحديدية ناقصة، وكان رأس المال المصرفي لا يتجاوز ثلث رأسمال الخصم. وبينما كان الشمال يشتري كل شيء في أوروبا، من زر السروال إلى الباخرة التجارية، كانت تغلق الأبواب في وجه الجنوب تلك السلسلة من أسطول الحصار التي كانت تزداد كثافة على نحو مطرد. وكان يجري الاستيلاء على سفنه في مكان ما، بين أوروبا وأميركا، وهي أمْضى الأسلحة في هذه الحرب التي كانت تُحْسَم في البحر أكثر مما تحسم على البر.

بل كان الشمال يطمح إلى أن يجعل من غارته على الجنوب حرباً يشنها شطر العالم على الجنوب، ويحوِّلها إلى (حرب دولية). ففي (فرقة أجنبية) تضم كتائب كاملة، تجمَّع أمراء فرنسيون (حقيقيون) مع (مستشار أميري)، و (خدم) أميريين، ومعهم أيضاً جنود من البربر، من جنود المستعمرات الفرنسية، من الجزائر، ومدمنو خمر بافاريون، وكرواتيون، وقوزاق، وصينيون وإسكيميون وسويسريون، وهاربون بريطانيون، من الجندية، وفصائل من جيش دوقية غيرولشتاين، وألمان شماليون وألمان على الأغلب مطلقاً مِمَّن كانوا بالمناسبة يوجهون مدافعهم من حين إلى آخر، على الأقل، على ضباطهم هم. ولا عجب من أن هؤلاء كانوا بلا ريب، فيما يقول قائد الاتحاد جورج مكلِلَن (George B. McClellan) «في كثير من الأحيان رجالاً من دون شخصية» مثلما كان حال معظم هؤلاء الضباط على نحو مطلق، مهما تكن أصولهم «إذ غادروا جيوشهم السابقة من أجل مصلحتهم الخاصة».

تحرير الرقيق:

ولأسباب كثيرة لم يظهر الجنوب اهتماماً بالحرب، وكان أيضاً على يقين راسخ أن المسألة لن تنتهي إلى هذا أبداً. والحق أنه قد سئم أن يترتَّب عليه تغذية الشمال الذي كانت تنتشر فيه المصانع وكان يريد استقلاله غير أنه لم يُرِد الحرب حتى وإن كان آنئذ يقدر إمكاناته فوق قدرها. مع ذلك فقد كان يتوقع في أسوأ الأحوال تدخل بريطانيا وفرنسا اللتين كانت كلتاهما تعتمد على منتجاته الزراعية في شطر لا يستهان به منها، ولا سيما على القطن الذي يعد ثميناً إلى أقصى الحدود من وجهة نظر الاقتصاد العالمي والتي كانوا يطلبونها، بالطبع

أيضاً، (مثل القمح ذي الأهمية من أجل موقف إنكلترا) وكانوا يطلبونها فيما بعد من مصر والهند. وما من شك في أنه لم يكن من المستبعد إطلاقاً أن يحدث تدخل للدول الأوروبية لمصلحة الجنوب الأمريكي، وذلك تحديداً لأنها لم يكن من مصلحتها، منذ البداية الأولى أن يكون هناك اتحاد قوي.

ومنذ أيار/ مايو أخذت أوروبا تعدّ المتحدين الكونفيديراليين طرفاً محارباً. ولكي يصرف لنكولن أوروبا عن دخول الحرب، على الأقل، وهو الأمر الذي كان خليقاً بأن يخلِّد انقسام الولايات المتحدة قدر الإمكان، ويا لها من سعادة كانت خليقة بأن تحل بالعالم، نشر لنكولن الذي لبث وقتاً طويلاً يتردد، في الثاني والعشرين من أيلول/ سبتمبر عام (1862م) مرسوم (التحرير المؤقت)، فأعلن بموجب «سلطانه المطلق، من حيث كونه رئيساً للولايات المتحدة» أن كل الرقيق في المناطق الثائرة أحرار بدءاً من أول كانون الثاني/ يناير عام (1863م). وسرى مفعول مرسوم التحرير الشهير في هذه الأثناء على المناطق التي ليست تحت سيطرة الاتحاد، واستبعد الأجزاء المحتلة. وفي هذا مراعاة للولايات الحدودية: ديلاوار، ومريلاند وكنتكي وميسوري.

وفي الشمال لم يكن القوم يعاملون الرقيق معاملة تختلف عنها في الجنوب، فكانوا يتقاذفونهم بأرجلهم وبضربات السياط، وكانوا يمزقون شمل العائلات، وكانوا، إجمالاً، يعاملون الرقيق كما يعاملون الأشياء، أو معاملة «المواشي» وكانوا، بالطبع، يغرسون في نفوسهم أيضاً، الثقة بالرب. ويتحدث واحد من أهل ولايات الشمال قائلاً: «الرب عند السود سيد كل شيء». لقد ظلت ثقتهم بأن الرب سيعينهم قائمة على مدى مئتي عام. وفي بعض الأحيان أسائل نفسي: هل

يقف الرب، يا ترى، إلى جانب العرق الأبيض، ويُخيَّل إلى السود شيئاً ما، وذلك لأنهم سود، ببساطة، وهم لا يستطيعون أن ينطقوا بعشر كلمات عن الرق و (الرب القديم/ Old Massa, Old Missus) ولا يلبثون أن يبدأوا مرة أخرى بقولهم: «الحمد لله وليسوع الجميل، ومع ذلك فقد أتاح الرب في هذه البلاد لواشنطن أن يُشرَوْا ويباعوا بالمزاد منذ أكثر من مئتي عام مثلما تباع وتُشرى خرافنا وخنازيرنا».

وكان القوم ما زالوا حتى في الحقبة الأولى من الحرب، يعترفون اعترافاً رسمياً أيضاً، في الشمال، بحق ملكية الرقيق على أنه حق من حقوق الملكية. بل كان لضباط ولايات الشمال في الحرب «خدمهم من الزنوج» معهم (شأن كل جندي تقريباً في دول الجنوب، بالطبع) ولم يجر إلغاء الرق في منطقة الاتحاد إلاّ في وسط المذبحة، في التاسع عشر من حزيران/ يونيو عام (1862م).

وفي الجنوب كثيراً ما يشعر القوم بالامتنان، بل بالتأثر البالغ لما أسدى السود من العون إلى عائلات البيض. غير أن آخرين منهم يستغلون فرصة الساعة الدموية، فينزعون إلى الرفس والمناطحة، ويتذمرون. وكذلك يروى «أنهم علقوا الزنوج، عقاباً لهم، على ما حاولوا من الثورة، في لويزيانا والمسيسيبي، على أعواد الشجر مثلما تعلق الطيور على الأشجار». وشيئاً فشيئاً بات لدى القوم، بلا ريب، في كل مكان، في الجنوب، سبب يحملهم على الخوف من السود في حالة ثورتهم، بل باتوا يخشونهم أكثر مما يخشون «جنود أمريكيي الشمال الفوضويين».

وتسجِّل جوليا لُغران (Julia LeGrand)، وهي ابنة صاحب مزارع كان فيما سلف غنياً، في (31) كانون الأول/ ديسمبر عام (1862م)

عن قوات ولايات الشمال: «كان معظم الجند يكرهون الزنوج ويعيِّرونهم حيثما استطاعوا فقط». بل تكتب في صدد تمرد للرقيق كانوا يتوهمون أنه وشيك: «أمر رئيس الشرطة العسكرية في الاتحاد بأن ترد إلى المتحالفين المجردين من السلاح الآن أسلحتهم، وأن يُرْدوا الزنوج الثائرين قتلى (مثل الكلاب). وكان هذا بعد أن كان القوم قد أثاروا الزنوج بكل الوسائل لحملهم على الثورة على أسيادهم».

أما من حيث السياسة الداخلية فكان مرسوم لنكولن في حكم المرسوم الذي انتهى إلى الإخفاق، غير أنه أظهر مفعولاً في مجال السياسة الخارجية. فقد بات تدخل إنكلترا وفرنسا لمصلحة ولايات الرقيق الآن في حكم المستحيل، لأسباب أخلاقية، ما دام الاتحاد يخوض الآن حرباً لتحرير الرقيق (أيضاً).

وفي هذه المناسبة كان الرئيس قد أعلن، حتى قبل أشهر قلائل من مرسومه، أن الكونغرس ليس له أي حق في تحرير الرقيق في أي ولاية كانت. أجل بل كان لنكولن، حتى بعد تحرير الرقيق في جورجيا وفلوريدا وكارولينا الجنوبية، نقض أمره بوساطة قائد الاتحاد هنتر في التاسع من أيار/ مايو عام (1862م)، ولذلك اعترف، حين وُجِّه إليه اللوم في صحيفة «نيويورك ترِبُين/ New York Tribune» قائلاً: «إن أسمى هدف لي في هذا النضال هو إنقاذ الاتحاد، لا إفساد نظام الرق، أو إنقاذه. ولو كان في وسعي أن أنقذ الاتحاد من دون تحرير عبد واحد لفعلت، ولو كان في وسعي أن أنقذه بتحرير كل الرقيق لفعلت، ولو كان في وسعي أن أنقذ الاتحاد بتحرير بعض الرقيق وترك الآخرين لفعلت هذا أيضاً».

ومن البدهي أن الشمال ترك الرقيق الذين حررهم الرئيس (بجرة

قلم) يقاتلون عنه مباشرة. وأشاد لنكولن نفسه بهم «وبالشجاعة التي عزّوا بها أنفسهم للضرب» وقال: «لقد تقدم الناس باعتراضات من كل حدب وصوب عندما اقترحت أول مرة تجنيد كتائب من الملوَّنين، غير أنهم برهنوا الآن على كفاءتهم. وإنه ليسرني أنهم كانوا أنداداً للبيض في الاشتباكات الأخيرة، ولا شك في أننا نود أن يذهب إلى الجبهة كل رجل موجود تحت التصرف فقط، ولقد دأبت على أن أقول لخصومي الذين ما زالوا يعارضون تعبئة الزنوج إنه قد يكون من المُستحسن في أمثال هذه الأيام أن يكون المرء مصاباً بعمى الألوان إلى حد ما».

أجل، وكما حكم واحد من زوّار البيت الأبيض حسن النية بلا ريب، لم يلاحظ في الحقيقة عند الرئيس حكمة مطالعي الكتب، ولكنه لاحظ بلا ريب «نوعاً من مَكر الفلاحين»؟. وقال: «إنه صادق في أعماقه وهو مع ذلك داهية محنك بطريقة معينة.. قد أوتي موهبة الحكمة التي تكاد تقارب الخبث أو المكر.. وهو ممثل حقيقي لكل أمريكيي الشمال» ويعد نسخة أنموذجية أصلية..

ولكن مهما يكن من المكر الفلاحيّ، الذي كان يتسم به هذا الممثل الشريف في أعماقه، لأمريكيي الشمال، وهذه النسخة الأنموذجية الأصلية، فقد كان القوم يكشرون له عن أنيابهم، ويلوّحون له بإشارة المقاومة، في تصميم جامح. ولم يكن سوى ابن الولايات الجنوبية جون تايلور (John Taylor)، الرئيس السالف للولايات المتحدة، ذلك الذي يكتب في السابع عشر من نيسان/ أبريل عام (1861م) في رتشمُند، قائلاً: إن القوم تخلَّصوا من «هذه الحفنة من محرري الرقيق» ويقول مؤكداً: «يسود في فِرجينيا بأسرها روح لا يمكن إبادتها إلى أن تنطفىء جذوة حياة آخر رجل فيها».

الرعاية الدينية العسكرية، أو «فَلْتَحيا حياة العظماء..»:

وفي النهاية كانت الحماسة للحرب في الجنوب كبيرة أكثر منها في الشمال، حيث لم يكن للمرء بدّ من أن يستثير الشعب حق الاستثارة للقتال أوّلاً بالاجتماعات التي يغلب عليها صليل السيوف، وبأولئك الذي يحشدون الأنصار، والخطباء، والجوقات، حيث يزعق القوم بأصوات مبحوحة كالعربدة، وينشدون. وكانت الرعاية تعمل بالرايات الخفاقة، والموسيقى العسكرية، والأناشيد الوطنية. وكان القوم يستعرضون المحاربين القدماء، القادمين من حمامات دم جفت منذ عهد قريب. ويروي شاهد عيان من ماستشوسيتس، أنه كان هناك على الأغلب «رجل طاعن في السن.. يطلق عقيرته بالصراخ عند أقل حافز، مثل الضبع، قائلاً: إنه خليق بأن يكون على أهبة الاستعداد لأن يشد بندقية المِسْكيت على كتفه، لولا أنه طعن في السن، مع الأسف». وعلى النحو ذاته كان صنيع فتاة عانس، وطنية، تلوِّح براية أو بمنديل جيب، وتزعق زعيقاً حاداً قائلة: إنها ودَّت لو تخرج للمشاركة «لو كانت رجلاً فقط».

وبحكم البدهية كان رجال الكهنوت أيضاً وقبل كل شيء يدقّون الطبول للحرب.

بل كان هناك، في الشمال، الذي يتحلى بالورع، على الأقل، قساوسة خصوصيون للرعاية لم تكن أحوالهم سيئة على كل حال كما يحق ذلك لسدنة الرب، بالطبع. ويعلن واحد منهم في مذكراته: «فرغنا من الغداء. وجبة ممتازة: هليون، وشرائح خُضر من الشمندر ولحوم مملَّحة من فخذ الخنزير مشوية على نحو جيد، وخبز من الذرة الصفراء والقمح، ولبن بالزبدة، ولديّ هنا مبيت كامل بالأكل والنوم،

وامرأتان من السود تقومان على خدمتي وأنا أعيش حياة ممتازة بالقياس إلى جندي. ولم تكن صحتي قط أفضل مما هي عليه الآن».

وكان القس قد ضمّ إلى رهطه زنجياً أيضاً، غير أن هذا كان ضد الرق، ومع ذلك فلم يكن له بدٌّ من أن يستمع إلى سيدة في تينيسي المحتلة، عام (1863م) تقول له: إن الرق من تعاليم الكتاب المقدس: «الكتاب المقدس حافل بالرق، من سفر التكوين إلى نهاية سفر رؤيا يوحنا، وكان أفضل الرجال يملكون رقيقاً. كان إبراهيم وإسحق، ويعقوب، وكل الآباء الأوَّلين والمسيحيين يملكون الرقيق». على أن الرجل الذي يؤمن هو نفسه بالكتاب المقدس، بل يتصرف تبعاً له «إلى درجة معينة على الأقل» يعرف من ناحيته، بالطبع، أن الكتاب المقدس حافل بالحرب أيضاً وبغشيان المحارم وينظر إلى نساء سليمان الثلاثمئة، إضافة إلى المحظيات السبعمئة، ويتهكم قائلاً بظُرف: «والآن، سيداتي ما قولكن مع كل الإرادة الطيبة، لو أعيد إدخال نظام الألف زوجة من جديد»؟.

لقد كانت الكنائس، كما كان مألوفاً على كلا الجانبين، متورطة في مهرجان معارك كان الرب يريده بالطبع، وفي مواعظ تحريضية مثيرة، وأناشيد رقيقة مثل (الوداع) و (إلى اللقاء). وكان يُحتَفَل بالقُداسات وتقام الصلوات، والآن يهرع الناس جميعاً، من الجندي العادي إلى أعلى ضابط، إلى معابد المسيح، بل يمجد القوم حتى صالات عبادة العدو. فحين يأتي قائد الاتحاد فان رنسلر (Van Rennselaer) في أيار/ مايو عام (1862م) في فريدريكسْبرغ بولاية فرجينيا، للعبادة، يحذف القس، بدافع مراعاة الخواطر فقط، حتى الصلاة لرئيسنا والنجاح لقضيتنا. ولا عجب في أن الجنوب يخسر الحرب، وكان في هذه المناسبة قد تصدَّق حتى بكل أجراس الكنائس

البرونزية وصَهَرها لتصنع منها مدافع أو رصاصات. وعلى هذا النحو يتغلغل الدين بالفعل في سريرة الإنسان. وثمة رجل في الستين ما زال يتنكَّب بندقية المِسْكيت، ويخرج مثلما يخرج ولداه كلاهما إلى المعركة التي تجشِّمَه خسارة إحدى ساقيه، فيقضي الليل كله على إثر ذلك يئن ويتوجع ويدعو، وهو «المسيحي عميق الإيمان». ومع ذلك يزحف القوم نساءً منطلقات بكتاب الصلوات وفي أيديهن المسدسات والمُدى.

ويتحدث جندي من ولايات الجنوب، في العشرين من شباط/ فبراير عام (1863م) لصديق له عن أغانٍ وأناشيد تصدح عند كل مساء قبل نوبة النوم، ويسبح في خياله وهو يتصوَّر انصباب الروح القدس على الجيش كله، ولا سيما على شعب الجنوب. «المؤمنون المعترفون، القدماء، الذين سرت البرودة إلى همتهم منذ عهد بعيد، يستحوذ عليهم شعور بالواجب جديد، وكثير من الخاطئين المعروفين يجنحون إلى كبح جماح أنفسهم. وفي كثير من الأحيان تتلى الصلوات الآن في المعسكر تلاوة مشتركة، بصوت عال، وهناك صلوات في أوقات منتظمة أو بين حين وآخر على الأقل، وقد ذهب كثير من رجال الدين إلى الجيش وُعّاظاً ميدانيين، بل لقد انخرط بعضهم في صفوف الجيش، جنوداً عاديين. وهو يتجلى أيضاً في صورة تلميذ نجيب تعلّم من أقوال القساوسة القديمة: الجندي يمكنه أن يقاتل، وأن يكون مع ذلك رجلاً متديناً يخاف الرب».

ومن الذين يتحلَّون بالتقوى تحديداً قائد ولايات الشمال، توماس جاكسون (Thomas J. Jackson). ويحدثه واحد من ضباطه يقول: «كانت الصلاة والقتال، في رأيه، مضمون حياة الرجل الحق»، وهو نفسه يعتقد جاداً كل الجد أن لواءه «مفضَّل» عند الرب أكثر من

سائر الألوية. لقد كان الجنرالات دائماً مفكرين عظماء. «وبالأمس خضنا معركة كبرى، وأحرزنا نصراً كبيراً يعود مجده إلى الرب وحده تماماً». وكان يدلي بهذا الكلام منتفخاً بالكبرياء، ومفعماً بالخشوع في وقتٍ معاً، تجاه السيدة المحبوبة أكثر من أي سيدة سواها «أنا أدين بحياتي، كما أدين بالنصر المجيد، على النحو ذاته، للرب الذي له الشرف كله، والشكر كله، والمجد كله». وفي معركة لاحقة يطلق النار عليه جندي من جنده نتيجة لخطأ في البصر، وما زال لديه على نحو خاص، بعدُ، من الوقت خمسة أيام للتفكير وإمعان النظر في طُرُق الرب الغريبة.

أمّا أن المصلّين لا يفكرون فذلك ما تكشف عنه التنهيدة العميقة، السعيدة التي يطلقها جندي المقاومة الشعبية الأمريكي، فرانس وورث (Fransworth)، وهو مزارع، في حرب الاستقلال (حزيران/ يونيو 1775م) إذ يقول: «يا لرحمة الرب التي تلقَّت حياتي مع أنها كانت تتساقط عني من اليمين والشمال، ألا فعسى ألا يدعني هذا الإنقاذ أرتاب فيك أبداً، وألا يدعني أضع ثقتي أبداً في ذراعي المكوَّنة من اللحم». إن موت أولئك الذي تساقطوا عن اليمين وعن الشمال لا يزعزع الثقة بالرب عند المصلّي، بل على النقيض. وكلما ازداد من يسقطون ازدادت رحمة الرب، ولم يسقط المرء هو نفسه. ويقول نيتشه: إن الإنسان المتدين لا يفكر إلاّ في نفسه.

ومثلما لم تكن الحماسة للحرب كبيرة عند أهل ولايات الشمال لم يكن مجهودهم الحربي كاسحاً، أو ساحقاً. ولما كان القوم قد دعوا قواتهم من أجل ثلاثة أشهر فقط، فقد عاد كثيرون أدراجهم إلى موطنهم، كما يقول الجنرال ماك دو ويل (McDowell)، مع ألوان الرجاء الملحّ، وتدخُّل وزير الحرب حتى على نحو خاص «عندما

زحف الجيش. . ليدخل المعركة تحت قصف المدافع المعادية».

على أن هذا كان يبدو مختلفاً بعض الاختلاف عند أهل الاتحاد، إذ لم يكن يعدُ من قبيل الأقوال الموضوعة في غير محلها، تلك الجملة المجنَّحة: «القادم من ولايات الجنوب يعادل خمسة من أمريكيي الشمال» (وكان كل الأمريكيين القادمين من الشمال يعدون بالقياس إلى أهل ولايات الجنوب يانكي (Yankees) وهي كلمة تمثل التحوير الهولندي لعبارة جون تشيز (John Cheese).

ومن الأمور ذات الدلالة، بالطبع، أن الهرب من خدمة العلم كان واسع الانتشار في كلا الجيشين، وكان يُعاقَب عليه بالإعدام.

الحرب الحديثة الأولى:

كانت الحرب الأهلية الأمريكية أكبر الحروب الأهلية قاطبة، بل كانت الحرب الأغنى بالعنصر البشري من بين كل الحروب التي تمّ خوضها مطلقاً، حتى الآن. وفضلاً على ذلك تعد هذه الحرب أولى الحروب الحديثة. وهذا يعني أن المُعوَّل كان على التفوُّق التقنيّ وحده، وعلى كمية المواد المعبأة، كما بات يحدث بعد ذلك في معظم حروب القرن العشرين، إذ يقال: إنه استخدمت فيها قذائف متفجرة، ورمّانات يدوية، وقاذفات لهب، وألغام، وألغام بحرية، ومناطيد، وسفن مدرَّعة. بل استعملت غوّاصة أنشئت في ألاباما، أغرقت في عام (1864م) قبالة تشارلستون، سفينة حربية، فغرقت هي معها. وفي مقابل ذلك كان القوم يهتمون بالبندقية الآلية التي «حَسَّنها» غاتِلنغ (R.J.Gatling) عام (1862م) والتي كانت تطلق (350) طلقة في الدقيقة، فيما بعد فقط.

وقد هبَّت عاصفة الحرب قبل كل شيء بالقرب من كلا

العاصمتين واشنطن ورتشمُند، كما هبَّت أيضاً بين المرتفعات الغربية والمسيسيبي. غير أن الأمر الحاسم تمثَّل في الحرب البحرية، إذ أجبر الاتحاد الجنوب على الركوع على ركبتيه خصوصاً بالحصار. فَبِهِ وبتعديل خطط الأسواق هبط على سبيل المثال، إنتاج قطنه من (4,5) ملايين بالة في العام (1860م) إلى (1,6) مليون عام (1862م)، وإلى (300,000) فقط في النهاية عام (1864م).

ومنذ المعركة الأولى، معركة بول رَنْ/ فرجينيا، في الحادي والعشرين من تموز/ يوليو عام (1861م) التي تنهزم فيها قوات الاتحاد المفتقرة إلى الخبرة، وتهرب إلى واشنطن القريبة، تتوالى المعارك واحدة إثر أخرى، وتكون معارك بعيدة المدى تقوم على عمليات حصار بحري ونهري. كما تقوم على عمليات حرب برية متوسِّعة.

على أن اللقاء الدامي في أنتيتام/ ميريلاند من (15) إلى (17) أيلول/ سبتمبر عام (1862م) الذي كان فيه مئة ألف جندي من جيش الاتحاد لا يكادون يواجهون (15,000) من قوات المتحدين (the Confederates)، هذا اللقاء وحده يكلف نحو (21,000) قتيل وجريح. ومع أن الفتك المتبادل يظل غير محسوم، فإن الجنرال لي (Lee) تُرغمه الخسائر الكبيرة على الانسحاب إلى فرجينيا، ومع ذلك فهو يضرب الجنرال برنسايد (Burnside) في الثالث عشر من كانون الأول/ ديسمبر عام (1862م) ضربة فادحة عند فريدريكسْبرغ، وعند تشانسلر فيل يهزم خليفة برنسايد أيضاً، وهو الجنرال جوزف هوكر (Joseph Hooker) في (2/ 4) أيار/ مايو عام (1863م).

وفي صيف عام (1863م) يتوغل المتَّحِدون حتى بنسلفانيا،

ويهددون واشنطن. ولكن هنا تأتي المعركة التي تدور عند غتيزبورغ من الأول إلى الثالث من تموز/ يوليو، بنقطة التحوُّل، وما من شك في أنه أسوأ اشتباك في الحرب الأهلية، ظل وطيسه حامياً ثلاثة أيام بطولها على المرتفعات في جنوبي المدينة الصغيرة. والحق أن جيش الاتحاد يتجشَّم خسائر فادحة أول الأمر، غير أنه يتلقى تدعيماً ويستطيع الآن أن يطرد لي، إذ بات يتميز بتفوُّق عددي كبير.

وكان قائد ولايات الجنوب بيكيت (Pickett)، الذي كان الجنود يسمونه (مارسي جورج/ Marse George) يرى في هذه المجزرة المفزعة، رجاله يهاجمون في عَرْض يقارب الميل، مزهوّين رائعين، كما يكتب، ثم لا يلبثون بعدها أن ينطفئوا. ثم يشكو الآن باختصار إلى خطيبته: ما زلت أسمع هتافهم، عندما أصدرت الأمر قائلاً: إلى الأمام، والانفعال في أصواتهم المهللة، عندما صاحوا بي: مارسي جورج، سمعاً وطاعة. واعجباً، يا لتلك الثقة التي كانوا يتابعونني بها، إلى الأمام، وإلى الأمام حتى إلى الموت، وكنت أقودهم إلى الأمام إلى الأمام، إلى الأمام، يا إلهي.

وبعد صِدام بدا المشهد فظيعاً رهيباً على نحو قياسيّ. ويروي مدفعيّ من المتحدين بعد الموقعة الثانية في بول رَنْ (Bull Run) حيث انهزم الاتحاد مرة أخرى (30 آب/ أغسطس عام 1862م) قائلاً: «على مسافة لا تتجاوز خمسمئة متر، قبالة جسر الخط الحديدي، حيث هوجمت فرقة جاكسون القديمة، كان ثلاثة أرباع الرجال الذي أسهموا في الهجوم العاصف قد قُتلوا، وكانوا راقدين هنا في صفوفهم، في المكان الذي سقطوا فيه، وقد كان في وسعي أن أمشي قُدُماً إلى الأمام، مسافة أربعمئة متر فوق الجثث، من دون أن ألامس الأرض بقدمي». وبعد المعركة حول رتشمُند (أيار/ مايو عام 1862م)

يروي أن «الشوارع كانت مستشفى هائلاً». وبعد مذبحة أخرى تسجل سيدة من ولايات الجنوب قولها: «كنا نغوص في الدم والماء، وعندما نعالج الجرحى نضطر إلى الجُثُو داخلين في هذه البرَك، ومع ذلك فما عاد يدور في عقولنا شيء في أثناء ذلك».

وسرعان ما تفتقر قوات المتحدين بقيادة الجنرال لي، التي كانت منذ ربيع عام (1862م) في حالة تعبئة لا تنقطع، إلى كل شيء ويعترف، وهو الذي كان نفسه طبيباً في جيش الشمال، بإعجاب واندهاش قائلاً: «إن كَوْن هؤلاء الرجال الملطخين بالأقذار، والمرضى الجائعين البائسين هم أمثال أولئك الأبطال في القتال أمر يستعصي على كل تفسير». وأخيراً فقد كان الكثيرون منهم بلا أغطية ولا معاطف، ولا حتى أحذية، بل كان الجنود يقفون حفاة في خنادق الرماة حتى في الشتاء. وكان هناك أورام من الصقيع، وفي كل يوم حالات فرار من الخدمة. وكانوا يفتقرون إلى السلاح، والذخائر، والرعاية والأدوية ووسائل التضميد. وكان من النادر أن يخرج جريح عندهم سالماً من عملية بَتْر. وفي النهاية دعا القوم، حتى الأطفال والشيوخ إلى حمل السلاح، مثلما فعل ذلك هتلر فيما بعد، وقيل إنه حتى في المهد واللحد يُجَردان من أهلهما.

وكان أهل ولايات الجنوب، الذين كانوا هم أنفسهم يعانون من الجوع وخطر الموت من الجوع يدعون بالطبع، أسرى حربهم أيضاً يجوعون ويموتون من الجوع. ففي معسكر أنديسونفيل (Andesonville) كان كثيرون لا يكادون يرتدون قميصاً، وكانوا عراة تماماً، وكانوا يرقدون بين الحشرات التي يعجُّ بها المكان، ويموتون في وسط أقذارهم وأبوالهم، وكانت تفوح رائحة منتنة كتلك التي تكون في قاعات الجثث. وكان يموت هناك بين الآونة والأخرى، في اليوم مئة

وخمسون رجلاً، ومن بين المُسَلِّمين الخمسين ألفاً، مات ثُلثهم. وتكتب سيدة من ولايات الشمال في السابع والعشرين من كانون الثاني/ يناير عام (1865م) قائلة: «إن قلبي ليشارك في معاناة هؤلاء التعساء، وإن كانوا من أهل الشمال أيضاً، ومع ذلك فماذا نستطيع أن نفعل؟. فأهل الشمال أنفسهم يتحملون من الوزر أكثر مما نتحمل، لأنهم لا يريدون تبادل الأسرى».

وكان هذا صحيحاً، فقد رفض الاتحاد تبادل الأسرى، وفضَّل أن يدع الأسرى من أهله يهلكون.

ولكن هؤلاء العفاريت «كانوا يبدون أقوياء ذوي تسليح حسن» كما يروي الناس في الجنوب، وهذا يذكِّر بجنود الولايات المتحدة في الحربين العالميتين الأولى والثانية. و«كانت لديهم أعداد لا تحصى من عربات الحاجات والأمتعة». وفي بعض الأحيان يستمتع الجند في الشمال بأن يتخذوا من صورة رئيس ولايات الجنوب دريئة مستهدفة، ويُثَقِّبونها تثقيباً كاملاً.

وعلى مدى عام (1864م) ينتقل جيش الشمال، في كل الجبهات، إلى الهجوم، ويُستنزَف جيش الجنوب.

وفي التاسع من آذار/ مارس يحصل الجنرال أُوْلسس سمبسن غرانت (Ulysses Simpson Grant)، الرئيس اللاحق، على درجة القائد الأعلى لكل قوات الاتحاد. وبتفوُّق عددي هائل يشن هجوماً بعد آخر، حيث تتجشَّم كتائبه الزاحفة أبداً على خطوط الجبهة، على يد جيش لي، في كل مرة، خسائر فادحة. ومِنْ ذلك أن أكثر من ثلاثين ألفاً يقضون نحبهم في المعركة، في الأرض المقفرة، أو في الاشتباكات حامية الوطيس في كولد هاربر/ فرجينيا (Cold Harbor,

Va.) من الأول إلى الثالث من حزيران/ يونيو عام (1864م). ويظل ما يقارب (90,000) رجل في ميدان المعركة، ويخسر الاتحاد ستين ألفاً، ويخسر جيش الجنوب (25,000) إلى (30,000). على أن هذا كله يفيد، كما قال الرئيس لنكولن في وسط المذبحة الهائلة بمناسبة تدشين مقبرة الجنود في غتّزبرغ (Gettysburg)، في انبعاث الحرية من جديد.

ويكلف هجوم عاصف على مواقع لي، في الثالث من حزيران/ يونيو وحده، غرانت، خلال وقت قصير ما يقارب عشرة آلاف من الجند. ومن أمثال هؤلاء القادة يخرج الرؤساء. غير أن قائد لوائه الخاص، إموري أبْتن (Emory Upton) يعترف قائلاً: «كانت خسائرنا فادحة جداً وعبثاً لا طائل منه مطلقاً، وإني لآسف أشدَّ الأسف إذا أضطر للقول: إنني لم أر إلاّ القليل من هيئة أركان الحرب في أثناء المعركة. وكان بعض قادة الكتائب عندما لا يتميزون حتى بالكفاءات اللازمة لضابط صف، فهم كسالى مولعون بالنوم، وهم لا يفكرون في استعراض صفوفهم على ظهور الخيل مرة واحدة فقط. غير أنهم يصدرون أمر الهجوم بلا تردُّد، مهما تكن قوة العدو ومهما بدت عليه مواقعه، وقد كان من الممكن لعشرين ألفاً من قتلانا وجَرْحانا أن يكونوا اليوم في صفوفنا».

ومن أجل ذلك يكون القادة أكثر نشاطاً وانطلاقاً إلى الهرب، كما في كل الحروب. وفي الجنوب، في نيو أورلينز (New Orleans)، يصرخ الناس قائلين: «القادة الملاعين، الذين كانوا يأمرون قواتنا هنا، يهربون من هنا، ويَدَعونهم وحدهم». وإذا كان جنود الشمال هاربين قيل لهم: «أفسحوا هنا أفسحوا للقائد» كما يروي مراسل مجلة «تايمز/ Times» الإنكليزي راسل (H.W.Russel).

أداة العدالة الربانية:

وفي هذه الأثناء يتولى القيادة العامة في مسرح الحرب الجنوبي الغربي الجنرال وليَم شيرمن (William T. Sherman). وهو لا يحارب قوات الجنوب فقط، بل يحارب، بالفظاظة ذاتها، السكان أيضاً، وكان شعاره: «نحن لا نحارب الجيش المعادي فقط، بل نحارب شعباً معادياً أيضاً. ويجب علينا أن ندع الناس جميعاً، شيوخاً وشباباً، أغنياء وفقراء، يشعرون بيد الحرب القاسية». وعلى هذا فهو لا يمارس شيئاً سوى الإرهاب، والبربرية الصرفة. ويسير وراء جنده الألوف من السود الناهبين ومُشعلي الحرائق.

وفي الثاني والعشرين من تموز/ يوليو عام (1864م) يضرب شيرمن أهل ولايات الجنوب بقيادة الجنرال جون بل هود (John Bell Hood)، وبعد اشتباكات حامية الوطيس تسقط أطلنطا نفسها في الثاني من أيلول/ سبتمبر، وهو نصر رفع من «الروح المعنوية» في الشمال، وشجَّع على انتخاب لنكولن مرة أخرى في الثامن من تشرين الثاني/ نوفمبر. ويوعز شرمَن بطرد كل سكان أطلنطا، حتى الشيوخ والضعفاء، وإحراق المدينة، ولا يفكر، كما يعترف هو نفسه، «في مراعاة الجانب الإنساني للمسألة» إذ لا يريد هذا إلاّ في السلم، ثم يقتسم آخر كسرة خبز.

ويسير الجنرال وقد خلَّف وراءه المدينة المحطمة تستعر لهيباً، منذ السادس عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر، بجيشه الذي يناهز عدده اثنين وستين ألف رجل، يسميهم أمريكيي الشمال الأصليين وأداة العدالة الربانية عبر جورجيا، على أربعة طرق كبرى، حتى الأطلسي، على عرض يبلغ (500) كيلومتر ويُباد في أثناء ذلك، على عرض

(100) كيلومتر كل ما يمكن إبادته: من المدن والمحاصيل، والمصانع والمخازن، والجسور، والمزارع، والماشية، ومنشآت السكك الحديدية التي كان القوم يلوون خطوطها الملتهبة التي كان شيرمن يرقبها بشخصه، في كل مرة حول أقرب شجرة.

ويُعْقب تدميره جورجيا، بعد الاستيلاء على السهوب، تخريبه كارولينا الجنوبية والشمالية، وهنا أيضاً يُصار إلى تدمير كل ما يمكن أن يفيد الجنوب وتبلغ الأضرار المادية أكثر من (100) مليون دولار.

وإنما يكون تعلُّق الأمور دائماً بالسلطان، ومن أجل ذلك يكون التصرف على هذا النحو في العادة. مع الهَنَادِرَة مثلاً، وهم الذين يذبحهم القوم في وقتهم تحديداً في مذبحة (ساند كريك/ Sand Creek)، أو فيما بعد، مع هيروشيما، ومع نغازاكي، أو مع الفيتناميين، ومع العراقيين. وهذه أمثلة ليس إلا، أمثلة.

وكان دعاة حقوق الإنسان ينهبون إخوانهم نهباً لا يُبْقي على شيء. وكان الذين تعوَّدوا من الحرب على الهَنَادِرَة، النهب منذ عهد بعيد، وكانوا ينتزعون كل شيء بعيداً، من الحصان إلى آخر سُترة. كانوا يأخذون معهم كل شيء، يأخذون ما كان ثابتاً، فلم يخلفوا وراءهم فرخ دجاجة. وكانوا يجرفون السود أيضاً من أمكنتهم، إذ كانوا قد حرّروهم وهذا بدهي. وقتلوا اثنين رفضا ذلك، كما تؤكد ذلك شاهدة العيان ذاتها.

وتكتب فتاة شابة من جورجيا، في (24) كانون الأول/ ديسمبر عام (1864م) قائلة: «ودخلنا الأرض المحروقة كما سمّاها سكانها، مصيبين، على بُعْد نحو ثلاثة أميال من اسبرطة (Sparta). ولقد كان يسرني لو أشنق واحداً من اليانكيز بيدي.. قد خرَّبوا كل شيء،

الأسوار، والحقول، ومخازن العشب اليابس، وأكداس القمح، وكل بالة قطن. وأحرقوا كل مزرعة حتى تفحَّمت. وفي بعض الأحيان لم يكن هناك بعد سوى مداخن عالية وحيدة، (حرس شيرمن) وعلى طول الشوارع: خيول وخنازير، وأبقار أُرْديت قتلى، وكل ما لا يستطيع العدو أن يستهلكه بنفسه أو يأخذه معهم هؤلاء الأوغاد السَّفَلة». لقد بات في وسعي الآن أن أفهم أن الناس المساكين هنا كانوا يرون أحب الأمور إلى نفوسهم أن يشدوا الخيط على عنق هذا «الكلب مباشرة». وتقول شاهدة عيان أخرى: «وحتى أولئك الذين كانوا يتقاضون الألوف، وعشرات الألوف من الدولارات، باتوا في مثل فقر أشدهم فقراً، وفي مثل جوعهم». وتكتب زوجة واحد من ولايات الجنوب لزوجها قائلة: «وأنا لا أودُّ بالطبع أن تمسك عن خوض المعارك قبل أن يموت آخر هؤلاء الأمريكيين الشماليين، ولكن فلتحاول، ولتأتِ، ولتأتنا بشيء نأكله، ولكن يا أعز الأحبة، إذا أجلت المجيء فلن يكون لمجيئك غرض إطلاقاً لأننا سنكون عندئذ راقدين جميعاً في المقبرة القديمة، إلى جانب أمك وأمي».

وعلى كل حال، الحرب شاملة، وغرض التدمير كامل، وتحديداً لأن القوم في الجنوب يدمرون أملاكهم هم أيضاً. ومثال ذلك أنهم يحرقون القطن أكواماً أكواماً، لكيلا يستطيع الغزاة أن يصلوا إلى الغِنى به. ومن حين إلى آخر يحملون به أخشاباً يحملها التيار على المسيسيبي، ويقلون عليه براميل الويسكي، ويوقدونه في كل الزوايا ثم ينظرون إليه سكارى، ينحدر في ضوء الشمس. وهذا يكشف عما تستطيع أمة أن تفعله إذا ما جدَّ الجد. بذلك كانت سيدة من الوطنيين تهتف وقلبها يزغرد فرحاً، وتضيف قائلة: «في الليل سوف ينتهي هذا نهاية رائعة. ولكن عندئذ سوف نشهد هذه المتعة مرة

أخرى، لأنهم لن يفرغوا، في النهار من عملهم (أي التدمير) مهما يمعنوا في الإسراع». وهذا برهان آخر فائض عن الحاجة على أن المجانين لا ينقرضون أو يتولاّهم الفناء. «لقد تمَّ اليوم تدمير ثروة تقدَّر، ولكن ما من أحد يأسف لها». وكان من بواعث العزاء عندها أن كانت هناك بعد مئاتٌ من البالات ترقد هنا من دون أن تمسها يدٌ، وفي وسعها أن تبعث بنورها عما قريب إلى وطنية الجنوب، على النحو ذاته، حين تتصاعد منها ألسنة اللهيب.

«انبعاث الحرية»، وتكاليفه:

وكانت ولايات الجنوب قد تمّ الفراغ من أمرها بالطبع، بعد أربع سنوات من التقتيل الهائل، من أجل «انبعاث الحرية» (لنكولن) ووضعت خارج إطار القتال بالمعنى الحرفي للكلمة. لقد قضي عليهم ولم تبق منهم بقية، وليس ذلك من الوجهة العسكرية فقط، بل من الوجهة المالية أيضاً. ولم يتجردوا من كل وسائل الحرب فقط، بل استنزفت دماؤهم وتمّ تجويعهم حتى استسلموا. وتم غزو آخر الموانىء الهامة، وتخريب قطاعات شاسعة من الأراضي، تخريباً كاملاً، وانهار نظام النقل، واستنزفت إرادة الصمود عند السكان، وبات كثير من الجند يهربون من الجندية الآن، وما عاد من الممكن الآن أن تتم تعبئة السود التي كان مخططاً لها، وكانت قوات لي التي ما عادت تبلغ الآن سوى (30,000) رجل، تقل عن قوات غرانت بمقدار (115,000).

وفي موقعة فايف فوركس (Five Forks) في أول نيسان/ أبريل عام (1865م)، وهي آخر عملية تقتيل كبرى في هذه الحرب، وكانت هي (واترلو) المتحدين يخترق الخصم المتميز بتفوق عددي كبير للغاية

خطوط لي في ثلاثة مواضع، ولم يكن هناك بدٌّ من التضحية برتشمُند. ويدخل جنرالات الشمال منزل جيفرسون ديفيس رئيس ولايات الجنوب. وكان المنزل يحدث في النفوس، كما يقول الأميرال / دِفيد بورتر (David Porter)، الذي يصطحب لنكولن إلى رتشمُند، «إذا ما قورن بالبيت الأبيض، أثراً يوحي بالتواضع الشديد. ولوحظ أن جفرسن دِفيس لم يكن فيه اعتزاز بنفسه أبداً، وأنه كان يعيش حياة مواطن عادي».

وفي التاسع من نيسان/ أبريل يلقي الجيش الرئيس الذي ذاب حتى وصل إلى (28000) رجل بقيادة الجنرال لي في فرجينيا، السلاح بين يدي الجنرال غرانت. وتبدأ الآن لجان احتلال فاسدة من وجوه عديدة مباشرة بإعادة تربية الجنوب، الذي ينطوي منذ ذلك الوقت على استياء عميق الجذور تجاه الشمال.

ومن الأمور التي يمكن إدراكها أن الخسائر في هذه الحرب الأهلية كانت هائلة. ولكن ألم يكن الرئيس توماس جيفرسون قد رأى مسبقاً، إذا لم نقل إنه تنبّأ، بل طالب، بأن «شجرة الحرية» (= عند لنكولن «انبعاث الحرية») لا بد من أن تُروى، من حين إلى آخر بدم الوطنيين والطغاة؟. لقد فعل. وربما كان هذا أيضاً يفسح المجال لتوقُّع مزيد من الأمور في المستقبل..

على أن الحرب الأهلية الأمريكية لم تكن أول حرب «حديثة» وأول حرب «شاملة» فقط بل كانت أيضاً واحدة من أكثر الحروب فتكاً بالأرواح على نحو مطلق، وواحدة من الجرائم التاريخية الكبرى، كلفت أميركا الشمالية من الضحايا أكثر مما كلفتها كلا الحربين العالميتين معاً. إذ بلغت خسائر الجيوش وحدها (33%) إلى (40%).

وكان لدى الاتحاد (359,528) قتيلاً (فيهم نحو 110,000 ممن يقال عنهم: سقطوا، وهذه كلمة تستحق الإعجاب يشيد فيها التعبير المزوَّق بانتصارات: وكأن امرءاً قد زلَّت به قدمه أو سقط هنيهة). وتحمَّل الجنوب (258,000) قتيل (فيهم 94,000 ممن «سقطوا»، وكان العدد الإجمالي للجرحى عند كلا الجانبين أكثر من 375,000 نسمة).

ولكن بعد أن تلقى الجنرال لي، في السابع من نيسان/ أبريل عام (1865م) شروط الاستسلام ووقع عليها، كتب إلى جنوده يقول: «لمّا كانت الحرب الأهلية قد انتهت، فإني أرى أن من واجب كل امرىء أن يسهم في إعادة البلاد إلى صحتها وعافيتها بطاقات متحدة، في إطار من السلام والوئام».

وإلى هذا القدر من السهولة تصل المسألة: ففي البداية يمارس الناس القتل ممارسة مشتركة، ثم يبني الناس ويشيدون من جديد. وبالفعل، فإن مجرى التاريخ يكون على نحو مماثل لهذا الآن، وهو التاريخ الذي لا يكرر نفسه، كما تفيد جملة يكثر الاستشهاد بها. وعلى هذا أليس هناك أزمات اقتصادية تتكرر؟. ولا استغلال دائم، ولا قمع ولا خداع دائم؟. ولا سيطرة دائمة، حتى للقلائل على الكثيرين؟. ولا تطهير دائم أبداً لهؤلاء، ولا اعتذار وتعلُّل لأولئك؟. كلاّ؟. أم بلى؟. على الحالة ذاتها دائماً؟. حقاً إنه على نحو خاص، ما يتصل بالعمليات الرئيسة وعمليات الدولة في التاريخ الذي لا يتبدَّل فيه سوى الأسماء، أمّا اللحن فيبقى كما هو.

وكان حافز الجنرال لي، بالمناسبة، لإعادة إنشاء ما كان القوم قد حطّموه لتوهم، معاً، داخلاً بأسره في إطار تفكير الرئيس لنكولن، الذي كان في الحقيقة يريد الحرب بكل ثمن، وقد حصل عليها. غير

أنه كان يريد الآن، مثل الجنرال لي، مواصلة البناء معاً. فالاتفاق يهب القوة، ونحن الألمان نعرف هذا القول المأثور، ولكن لسنا وحدنا الذين نعرفه على أي حال. لم يكن لنكولن يريد الآن، بعد أن نال ما أراد، أبداً، مثل معظم الناس في الشمال، أن يتذوَّق طعم الانتقام. كلاّ، بل كان الآن يلتمس المصالحة، والتعاون الأوثق، مثلما كانت تفعل الولايات المتحدة، مثلاً، مع كل الفروق، مع ألمانيا بعد عام (1945م)، أو ألمانيا الاتحادية نفسها، آخر الأمر، مع ألمانيا الشرقية. فالقوم يحتاجون إلى أهل ولايات الرق طوراً، وإلى الألمان النازيين طوراً آخر، ولا سيما إلى قادة النازيين، كما يحتاجون «SED» (Sozialistische Einheitspartei Deutschland) [الحزب الحاكم في ألمانيا الشرقية «سابقاً»، ز م] الذي أدبرت أيامه. ولا بد لهذا من أن يكون على هذه الصورة، لأن الطيور على أشكالها تقع.

ومهما يكن من أمر، لقد كانت نهاية الرئيس أبراهام لنكولن مأساوية فعلاً، بعد أن تعرض لعملية اغتيال في المسرح، ولربّما كان مرسوم «تحرير الرقيق» هو السبب الأساس في ذلك.

وكان الرئيس قد التمس من أجل زيارة المسرح، في الرابع عشر من نيسان/ أبريل، بعد ظهر اليوم ذاته، من ستنتن وزير الحرب، أحد مساعديه ليكون حرسه الخاص، وهو ضابط يمكن الاعتماد عليه، في مثل قوة الدب. ولكن ستنتن ضنّ على لنكولن بتنفيذ رغبته قائلاً: إن الميجور إيكارت (Major Eckart) مشغول، الأمر الذي لم يكن صحيحاً. وبدلاً منه أمر ستنتن واحداً من رجال شرطته، وهو رجل يدعى باركر (Parker)، يعاقر الخمر، ويعد فتًى تحيط به الشكوك، غادر موقعه أمام مقصورة الرئيس أيضاً، على نحو مفاجىء، وارتاد حانة.

وبعد ذلك حضر ستنتن إلى المكان فوراً بعد الاغتيال، وتولى الحكم مؤقتاً، وأرسل نائب الرئيس جونسون، فيما يبدو إلى بيته. غير أنه حاول هو نفسه، بدلاً منه، أن يطارد ويقتنص من خلال فيض كامل من البرقيات وأوامر الزحف، وأوامر الاعتقال، والمراسيم الأخرى، وأن يبعث إلى قوة كالشرطة، بالقائمين بالاغتيال مع مساعدي مساعديهم. غير أنه من الغريب أن ستنتن لم يدخل في عمليته طريقاً واحداً إلى مريلاند، وهو جسر ترسانة البحرية الخشبي الذي يفضي إلى مريلاند، ويحرسه خفير دائماً، بل يجري إغلاقه بعد الساعة التاسعة مساء، على نهر أناكوستيا (Anacostia). وإلى هذا الجسر بالذات، دون غيره، ركب قاتل الرئيس في الساعة (10,45). وذكر حين سأله أحد الحرس، اسمه الصحيح، سُمح له بالمرور. وبُعَيْد ذلك وصل إلى هناك أيضاً شريكه في الجريمة، المنفذ الثاني للاغتيال، وسمح له على النحو ذاته بالمرور على الجسر. وحين وصل إلى هنا، بعد دقائق قليلة فقط، فارس آخر كان يلاحق منفذ الاغتيال أعلن الخفير أن الجسر مغلق، فعاد الملاحق أدراجه، ومع ذلك فلم تتابع وزارة الحربية التحقيق في السلوك الخاطىء للخفير الذي تكرر ثلاث مرات، بل صفحت عنه على أنه خطأ «مشؤوم في الحقيقة ولكن يمكن الصفح عنه».

ثم: عندما طلبت الشرطة من مقر قيادة الجيش خيولاً في هذه الليلة لمطاردة المتآمرين الهاربين، صرح القوم هناك أنهم ليس في متناول أيديهم خيول، وأنهم مهتمون هم أنفسهم بهذه المسألة، غير أنهم يفسحون لأنفسهم مجالاً من الزمن حتى النهار التالي.

على أن القوم كانوا أكثر تردداً إلى حد كبير حيال واحد من المتآمرين الرئيسين المفترضين، وهو جون سيورت (John H. Surrat)،

الذي كانت أمه ماري سيورت (Mary Surratt) تدير نزلاً عائلياً كان بوث يتردد عليه. ولكن بينما شنق القوم الأم، من دون أي براهين مع ثلاثة من المتهمين الآخرين، هرب ابنها إلى كندا. ويبدو أنه فعل هذا أن ستنتن وزير الحربية تركه يهرب فقط. وحين ظهر سيورت فيما بعد في إنكلترا، كانت وزارة الحربية الأمريكية هي التي أحبطت اعتقاله. وحدث الشيء ذاته حين تم التعرف إلى سيورت في إيطاليا، وحين كللت الجهود المتحدة لوزارة الخارجية ووزارة البحرية، بالنجاح آخر الأمر في اعتقال سيورت في مصر، لم يجر التوصل في محاكمة أولى إلى حسم، وتم وقف محاكمة ثانية بسبب التقادم.

أما بوث نفسه فقد كان أردي قتيلاً من قبل جندي وهو هارب، وذلك في الحقيقة، مع أمر باعتقاله حياً. ولكن رئيس الشرطة السرية في تلك الأيام، العميد بيكر (L.C.Baker) سلم يومياته إلى رئيسه وزير الحربية ستنتن. وحين استعادها بيكر افتقدت منها (18) صفحة، وكانت هذه في الحقيقة الصفحات العائدة إلى أيام مقتل لنكولن، وادعى ستنتن أنها كانت ناقصة عندما سلمه بيكر اليوميات. ونشب خلاف بين بيكر ووزير الحربية، غير أن بيكر أشار في حاشية على كتاب يرجع إلى الثاني من أيار/ مايو عام (1868م) (ولم يكتشف إلا في عام 1961م) إلى ستنتن بأنه «يهوذا». والتوقيع مصدق عليه، وهو يبدأ بالجمل التالية: «أنا ملاحق دائماً. إنهم محترفون، ولا قبل لي بالإفلات من يدهم». وبعيد ذلك قتل بيكر، ومنذ تلك الأيام رجح الناس احتمال كونه قتل بالسم.

غير أن روبرت لنكولن (Robert Lincoln)، ابن الرئيس، أتلف، بعد وقت طويل مضى على وفاته، أوراقاً من المخلَّفات لمصلحة الجمهور، وذلك أنها أثبتت أن وزيراً من وزراء والده ارتكب الخيانة

العظمى. وهذه الرواية التي تعد في حد ذاتها فقط جليلة الشأن بما يكفي، تلفت النظر فيما عدا هذا، وذلك أنها تنطوي على اهتمام الجمهور (الأمريكي) بالتستُّر على الوقائع السياسية ذات العواقب الوخيمة. ولكن أي اهتمام يفترض أن يكون لدى الجمهور (الأمريكي) بألا يكشف القناع عن وزير من أهل الخيانة العظمى يفترض أنه قاتل الرئيس؟. إن من الصعب بلا ريب أن يكون الجمهور مهتماً بذلك، على أن القيادة الأمريكية أحرى ألا يهمها ذلك. ولكي تصرف النظر عن عارها الخاص ترصد لرأس رئيس ولايات الجنوب، في تلك الأيام ثمنا يبلغ مئة ألف دولار بسبب المشاركة في قتل لنكولن!.

ومن الصعب ألا يكتب التاريخ على صورة هجاء ساخر.

وبالمناسبة فالأمور تمضي في الشمال نحو الأفضل. أما الجنوب فهو الخاسر بالطبع، وظل يعيش من بعدُ، عقوداً من الزمان في البؤس، مثلما يعيش شعب أميركا الأسود «المحرَّر» حتى اليوم، حتى عندما يكفلون في التاسع من نيسان/ أبريل عام (1866م) لكل المولودين في الولايات المتحدة، بمن في ذلك السود فيها أيضاً، حق المواطنة، غير أنهم ما زالوا لا يكفلون هذا للهنادِرَة، ولا على الورق أيضاً.

أصل العنصرية(*)

«جذور العنصرية في الولايات المتحدة عميقة جداً، ويجب أن نوجّه أنظارنا إلى الرجل الأبيض بالذات لتحديد الأصول الفعلية لمشكلة السود. من الضروري الرجوع إلى زمن وصول العبيد المقيدين بالسلاسل إلى أميركا كي نستطيع تفسير ذلك «التشويه الوراثي» ـ العنصرية ـ الذي يتناقله الأميركيون البيض من جيل إلى جيل منذ ثلاثة قرون».

خلال هذه القرون الثلاثة، كان الأبيض باستمرار يبدو متردداً ومتناقضاً في التعاطي مع الأسود: في كل مرة تُتّخذ فيها خطوة على طريق تحقيق العدالة العرقية، كانت أميركا تتراجع بالمقدار نفسه. تعود الحكاية إلى بداية القرن السابع عشر، سنة 1619، عندما وصل بحارة هولنديون إلى شاطىء ڤيرجينيا ومعهم مجموعة من السود أرادوا بيعهم للمستوطنين. . . هكذا بدأت حكاية تجارة الرقيق الطويلة والمرعبة، ترددت إنكلترا كثيراً قبل خوض هذا المجال لأن أوروبا، وفي ذلك مفارقة واضحة، كانت قد ألغت العبودية في تلك الفترة. لكن الأرباح التي جناها البعض، أمثال جون هوكنز منذ 1562، حثت الإنكليز

(*) **المرجع**: باتريس كولون. مقالة منشورة في كتاب «مارتن لوثر كينغ». حركة حقوق الناس. بيروت، الطبعة الأولى 1999. ص 63 ـ 70.

على لعب دور مماثل. وهكذا استقرت العبودية في العالم الجديد.

كان أول ما أثار الإنكليز في الرجل الأسود لونه. وفي لغة القرن السادس عشر اعتبرت كلمة «Black» مرادفاً للخِسّة والقذارة. إذا كان الأبيض رمز الجمال الأكمل، فإن الأسود صورة موقّقة للانحراف الكلي. وبالإضافة إلى ذلك كان الإفريقيون بالنسبة لهم وثنيين. إما أنه ليس لديهم دين، وإما أنهم يمارسون شتى أنواع المعتقدات الشنيعة. لذلك يمكن معاملتهم على نحو مختلف عن المسيحيين. بين هذا التفكير وإقرار شرعية إخضاعهم للعبودية الدائمة خطوة واحدة... وقد تم بسرعة تجاوزها؛ خصوصاً وأنّ أسلوب العيش الإفريقي كان يكدر النزعة الصفائية البريطانية. وهكذا تفاعلت عوامل عديدة، حقيقية أو خيالية، في الذهنية البريطانية في تلك المرحلة للاقتناع بالدونية الوراثية للإنسان الأسود: تلك القناعة هي التي قادت إلى الاستعباد الدائم.

ملحمة شعب:

بدون استعادة الظروف الفظيعة التي رافقت تلك النخاسة الكريهة[1]، يجدر التوقف مع ذلك عندما عُرف بـ «المتاجرة المثلثة». كان التجار يُبحرون من أوروبا الغربية ومعهم بضائع (أقمشة، أسلحة، خردوات، كحول) يقايضونها في إفريقيا بالسود (الذين يحصلون عليهم من مصدرين: الحروب بين القبائل الإفريقية، والغارات التي يشنها أوروبيون)، ويجتازون الأطلسي ويبيعون العبيد في الأسواق الأميركية ثم يعودون إلى أوروبا بمنتوجات المزارع: السكر والبن والكاكاو والقطن... التي يجنون منها ثروة طائلة. كانت الرحلة المثلثة تستغرق

(1) «L'héritage noir»، ملفيل ج. هيرسكوفيتز، منشورات Présence africaine، باريس 1966.

حوالي ستة عشر شهراً؛ وبسببها عرف الاقتصاد الأوروبي انطلاقة جديدة.

كم كان عدد العبيد الذين سلخوا من موطنهم ليباعوا في أميركا طيلة أربعة قرون من النخاسة؟ وصل إلى أميركا ما بين عشرة ملايين وخمسة عشر مليوناً من العبيد، وإلى هذا العدد يضاف كل الذين ماتوا أثناء الغارات التي شُنّت على القرى، وفي المجموعات التي كانت تقاد عنوة إلى الشاطىء، وخلال الرحلات البحرية. هذه الغزوات طاولت حوالي 75 مليوناً من الإفريقيين. تلك التجارة البشعة تركت بصمة لا تمحى في وعي الأميركي الأسود. يقول م. ديشان في هذا الإطار: «لا يزال المتحدرون من العبيد يتحسّسون الحديد المحمّى الذي عُلّم به أسلافهم»[1].

توطّد نظام الاستعباد تدريجياً في مناطق مثل ڤيرجينيا وماريلاند؛ إذ تطوّرت في هذه المناطق الزراعة بنحو متسارع ـ زراعة التبغ والنّيلة والأرز بشكل خاص ـ وتطلبت يداً عاملة تكون متوفرة بأعداد كبيرة ورخيصة الثمن وغير متخصّصة. وهكذا التقى التحيّز العنصري مع الضرورات الاقتصادية لسحق الشعب الأسود. ثم انضم القانون إليهما. سنة 1641 صار للاستعباد طابع قانوني في ماستشوسيتس، وفي ولايات أخرى في السنوات التالية...

كان عدد العبيد في جنوب الولايات المتحدة أكثر بكثير من عددهم في الشمال. استعباد السود في الولايات الجنوبية ساهم في بناء الهيكلية الاجتماعية بأسرها: التشكّل الطبقي، واللعبة السياسية،

---

(1) «Histoire de la Traite des Noirs, de L'antiquité à nos Jours». هيوبرت ديشان، منشورات Fayard، باريس 1971.

والاقتصاد، والإيديولوجية، وحتى الحالة النفسية. تمسّك الجنوب بنظام الرقّ في الأرياف، ورفض التصنيع وكبح التطور في المدن، على عكس الشمال الذي اختار النظام الصناعي والرأسمالي. وخضع الجنوب لهيمنة الشمال؛ وكان ذلك سبب نزاع كبير حمل الجنوب بعد بضع سنوات على مواجهة الشمال.

الحياة في المزارع:

كانت الحياة في المزارع قاسية جداً بالنسبة للسود[1]. أيام العمل طويلة، وعلى العبد أن يجد الوقت لتحضير طعامه، وترتيب مسكنه، وزراعة قطعة أرضه. من حيث تنظيم العمل عرفت المزرعة قدراً من توزيع المهام. كانت الغالبية العظمى من الإفريقيين تعمل في الحقول. الخدم، الذين كانوا من النساء أو الرجال الكبار في السن، تمتعوا بوضع أفضل نسبياً.

كان السيد يعيّن مراقبين من أجل الإشراف على حسن سير العمل. وقد توزعت مهمة هؤلاء على فرض النظام وتثمير الاستغلال، وكانوا في غاية القسوة في التعامل مع العبيد، ويستعملون السوط لحثهم على العمل[2].

لكننا نرى بوضوح أكثر تأصّل اللاإنسانية في نظام الرقّ على مستوى الحياة الجنسية والعائلية. على الرغم من أن المستوطنات الإنكليزية كانت تسارع لإدانة الاختلاط بين الأعراق، كان الأسياد البيض يتعدّون على النساء السود؛ فتكاثر عدد الأولاد الخلاسيين في

(1) «De L'esclavage à la ségrégation»، غيرنا ليرنر، منشورات /Donël» «Gonthier، باريس 1975.

(2) «Racines» أليكس هايلي، منشورات J'ai Lu، باريس 1979.

المزارع. لكن هؤلاء كانوا يُصنفون دائماً مع السود ويعاملون مثلهم. في هذا الإطار من القسوة والانحراف نستطيع بسهولة رؤية المصاعب التي واجهتها العائلة السوداء لتأمين عيشها. كانت للسيد الكلمة الأخيرة في الزواج كما في سائر المواقف. وبما أن الضرورة تقتضي تجديد اليد العاملة من وقت لآخر، كان السيد يحلّ بنفسه تلك الروابط تبعاً لتقلبات السوق، فيشتت العائلات ويفرّق الأبناء عن أهلهم. وقد حاول العبد، من أجل تأمين القدرة على الاستمرار دون الوصول إلى حدّ الاستلاب الكلّي، أن يعيد خلق خلية عائلية يجد فيها مشاعر الحبّ والعطف وكذلك فرح الأبوة والأمومة.

التضامن بين العبيد:

نظام الاستعباد هو مؤسسة كليانية فعلية تهدف إلى تجريد الفرد من هويّته، وانتزاع مرجعيته الحضارية والاجتماعية؛ يمسي «العبد» كالشمع الطيّع بين يدي «الإله الأبيض» كما يقول سنغور. بعد تحويله إلى شيء، لم يعد أمام العبد الأسود سوى الحقد على سيده وعلى البيض عموماً. لحسن الحظ كانت هناك علاقات بين السود الذين تبادلوا الدعم فيما بينهم: الذين تعلموا القراءة والكتابة في الخفاء (لأن القانون يحرمهم من ذلك) كانوا يعلّمون الآخرين. ولم يخضعوا أبداً بشكل طفولي للنظام الأبيض. ذلك النظام الذي استمر في التأكيد على هيمنته بإصدار عدد من مراسيم الاستعباد في بداية القرن الثامن عشر. كان التشريع يزداد قسوة مع التزايد السكاني. سنة 1790 تبيّن من أول عملية إحصاء رسمية في الولايات المتحدة أنّ السود يشكلون 19,3 في المئة من مجموع عدد السكان (كانوا 757,000). في كارولينا الجنوبية كانوا 44 في المئة من مجموع السكان، وفي ڤيرجينيا

40 في المئة، وفي جورجيا وماريلاند 35 في المئة. صار الاستعباد بمثابة حجر الزاوية في الاقتصاد الأميركي. لم يكن الجنوب وحده مديناً له بالرخاء الذي حققه، بل الشمال أيضاً أفاد منه في تنمية تجارته... تواجد السود على جبهات حرب الاستقلال (1770 ـ 1788) التي خاضتها ثلاث عشرة ولاية في الاتحاد ضد البريطانيين، كان ما بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف من السود قد انضموا إلى صفوف الجيوش الأميركية الثائرة، وخمسة آلاف منهم كانوا من الجنود النظاميين في وحدات اندماجية.

بعد الحرب حُرّر بعض العبيد لمكافأتهم على شجاعتهم ووفائهم. لكن الوضع الرسمي للعبيد لم يتغير: مُنحت الحرية لبعض الأفراد وليس للمجموعة الإتنية. غير أن الولايات المتحدة أصدرت نصوصاً دستورية لها توجّه مختلف. بيان الاستقلال[1] الذي وضعه توماس جيفرسون يؤكد على: «إننا نتمسك بهذه الحقائق بوصفها بديهية بذاتها، أن جميع الناس خُلقوا متساوين، وأن خالقهم منحهم حقوقاً لا يمكن التصرّف فيها، من بينها حقهم في الحياة والحرية وطلب السعادة...» ولم يتضمن الكلام أية إشارة إلى وضع العبيد.

أما الدستور السادس[2] الذي أعدَّ بعد فترة والذي حدّد بشكل نهائي ولادة الأمة، فقد اشتمل على ثلاث إشارات للعبيد:

1 ـ العبد يساوي «ثلاثة أخماس أي شخص آخر» فيما يختص بالتمثيل في الكونغرس والضريبة المباشرة.

---

(1) النص الحرفي موجود في كتاب «L'indépendance américaine» لأندريه كاسبي، منشورات Gallimard/Julliard، باريس 1976، ص 213 إلى 216.

(2) المصدر نفسه، ص 217 إلى 227.

2 ـ إذا قررت إحدى الولايات الموجودة حالياً توطين أو استيراد أمثال هؤلاء واعتبرت ذلك مناسباً لمصلحتها، لا يحق للكونغرس منعها قبل سنة 1808.

3 ـ العبيد الفارون يستعادون في الحال.

تلك الإشارات كانت نتيجة توافق بين الشمال والجنوب على مسألة توزيع النفوذ. لو أن العبد اعتبر كشخص، كان الجنوب سيصبح في موضع القوة، وهذا ما يرفضه الشمال بإصرار. وهكذا صار العبد في منتصف الطريق بين الغرض الذي يُقتَنى والإنسان، وتكرّس لا وجوده السياسي بحكم إيديولوجية بيضاء غير معلنة.

مقاومة السود:

لكن السود الذين اضطروا للتأقلم مع وضع الاستعباد الذي ظل إطار حياتهم، استطاعوا أن يضعوا أسس نظام من الدفاع والمقاومة باللجوء إلى مختلف أنماط تخريب العمل وعرقلته. كأن يدعي العبد الذي وصل حديثاً بأنه لا يعرف كيفية استخدام آلة العمل. وآخر يتعمد التقصير؛ والجميع كانوا يتوقفون عن العمل عندما يبتعد المراقب. خلال حقبات العبودية لم يعد هناك مجال لإحصاء السرقات والحرائق، التي طالت المحاصيل أو الحظائر أو البيوت. كلما وقعت يد عبد على قطعة سلاح كان ذلك بمثابة فرصة للتمرد. وقد استخدم العبيد جميع الوسائل المتاحة لهم لمحاولة التخلّص من مضطهديهم. وعندما لم يجدوا الفرصة لذلك كانوا يعمدون إلى تشويه أنفسهم أو الانتحار من شدة يأسهم. ونذكر هنا أن معدل قتل الأطفال المولودين حديثاً في المزارع كان مرتفعاً دائماً.

بدلاً من مواجهة السلطة البيضاء في معركة غير متكافئة كان

كثيرون من العبيد يختارون الفرار. خلال فترة القرن التاسع عشر وحده جرت ما بين أربعين ألف ومئة ألف محاولة هرب، لكن نسبة نجاحها لم تتعد العشرة في المئة! ومع مرور الوقت تحسن تدريجياً تنظيم عمليات الفرار إلى الشمال. وقد ابتكر مسار خفي لترحيل آلاف العبيد، وكان يشتمل على شبكة سرية من المرشدين المدربين وعلى محطات ومخابىء، وذلك أثناء الليل فقط. بين «المهربين» الأكثر شهرة يبرز اسم امرأة، هارييت توبمان، قامت بتسع عشرة رحلة إلى الجنوب على الأقل لتهريب ثلاثمائة عبد لم يستطع الأسياد البيض استعادة أي واحد منهم. لذلك لا نستغرب عندما نعرف أنه سنة 1865 كانت هناك مكافأة من خمسة وعشرين ألف دولار ثمناً لحياتها[1].

عندما ازدادت قوة الضغط لمقاومة الرق في القرن التاسع عشر، أبدى المالكون بعض الليونة وأخذوا يسمحون للعبيد بشراء حريتهم.

ثورات العبيد:

تاريخ الرق هو أيضاً تاريخ العديد من المؤامرات والثورات الجماهيرية. في هذا الإطار أحصى هيربرت أبثكر، المفكر الماركسي، أكثر من 250 ثورة للعبيد في الولايات المتحدة، وقد جرت أهم ثلاث بينها في 1800 و 1822 و 1831 وكانت ممثلة بثلاثة رجال مميزين هم غابريال براسر، ودنمارك ڤيسي، ونات تورنر. لكنّ محاولات الهرب والثورات أدت بوضوح إلى حالة قمع وحشي على الرغم من التعاطف الذي أبداه بعض البيض[2]. واستتبع ذلك

---

(1) «De L'esclavage à la ségrégation»، غيرنا ليرنر، في المرجع المشار له.

(2) «Histoire des Noirs aux U.S.A» هيربرت أبتكر، منشورات Editions Sociales، باريس 1966.

• صدور قوانين أضيفت إلى العديد من المعوّقات التي كاد يتلاشى معها أمل الشعب الأسود بالحرية.

سنة 1816 تأسست «الجمعية الأميركية للاستعمار»، بهدف التخلص من السود عن طريق توطينهم في مستعمرة سوداء في إفريقيا. ولم يكن مالكو العبيد آخر من وافق على هذه الخطة للتخلص من «فئة خطيرة وغير نافعة» من المجتمع. وهكذا بدأت الجمعية سنة 1830 بتوطين 1420 من السود في ليبيريا، لكن السود احتجوا بعنف على ذلك لأنهم أدركوا في الحال، أن الغاية الفعلية من تحريرهم كانت طردهم من الولايات المتحدة؛ وأخذوا يردّدون: «هنا ولدنا، هنا نموت». في نهاية القرن التاسع عشر بلغ عدد السود الذين تم ترحيلهم إلى إفريقيا أكثر من خمسة عشر ألفاً.

سياسة الترحيل هذه ساهمت في الواقع في انطلاقة حركة مقاومة الرق مجدداً ما بين 1829 و 1831، التي كان لها دورها البارز في تكريس مبدأ النضال في سبيل تحرير العبيد؛ الذي كان محوراً لتشكيل حركة تعزّزت خلال ثلاثين سنة، وصار من الصعب السيطرة عليها. انضم السود بالتأكيد بحماس لهذه الحركة، وفي سنة 1830 شاركت أكثر من خمسين منظمة سوداء في محاربة الرق؛ وكانت ناشطة بشكل خاص في إطلاق «الجمعية الأميركية لمقاومة الرق» وفي دعم قياديين مميزين أمثال فريدريك دوغلاس وهنري هايلاند غارنيت، وهما من العبيد الفارّين. سنة 1854 أحسّ قادة حركة التحرير بضرورة التنظيم السياسي، فأسسوا الحزب الجمهوري الذي جمع غالبية القوى المعارضة للرق حول برنامج واسع إلى حد ما، قادر على التوفيق بين التوجهات الأكثر تباعداً. سنة 1860 انتخب الجمهوري أبراهام لينكولن لتولّي منصب الرئاسة في الولايات المتحدة. لكن ولاية

كارولينا الجنوبية أعلنت انفصالها في 18 كانون الأول سنة 1860 وتبعتها عشر ولايات جنوبية[1]، وفي نيسان سنة 1861 بدأت الحرب الأهلية.

حرب الانفصال:

كان نظام الرق من الدوافع الأساسية لنشوب تلك الحرب[2]. واعتبر الرقّ من الدعائم الأساسية للامبراطورية الجنوبية، وفي حال امتدّ إلى الولايات الغربية كان الشمال سيجد نفسه في موقع الأقلية. لذلك صارت قضية تحرير السود هدفاً سياسياً للشمال الذي كان مقتنعاً في الوقت نفسه أن العبودية لم تعد ذات فائدة. ومع أن توجّه الرئيس لينكولن لم يكن واضحاً تماماً فيما يختص بمسألة العبودية، لكنه أعلن في 22 أيلول سنة 1862، وبدون الرجوع إلى الكونغرس، «بيان التحرير»، الذي نصّ على أنه بعد مئة يوم - أي في الأول من كانون الثاني سنة 1863 - يعتبر حراً كل واحد من عبيد الولايات الثائرة التي لم تحتلها بعد القوات الفيدرالية. ذلك البيان كان بمثابة نهاية معاناة طويلة من الاستعباد لمئات الآلاف من الرجال والنساء. لكن يجب الانتباه إلى أن قرار لينكولن كان بالدرجة الأولى تدبيراً عسكرياً وديبلوماسياً قبل أن يكون قراراً إنسانياً. وقد ساهم في الواقع بتفكيك صفوف الجيش المعادي باجتذابه للسود وضمهم إلى المعسكر الفيدرالي.

---

(1) الولايات العشر التي ثارت أيضاً كانت: ألاباما، أركنساس، كارولينا الشمالية، فلوريدا، جورجيا، لويزيانا، مسيسيبي، تنيسي، تكساس، فيرجينيا.

(2) «Les Etats-Unis pendant la guerre de Sécession»، إيرنست دو هوران، منشورات Calmann-Lévy، باريس 1966.

سنة 1865، شمل التعديل الثالث عشر للدستور كافة الولايات المتحدة بالقرار الذي اختص بالولايات المنفصلة سنة 1863. وسنة 1866 صدر قانون مدني أعطى العبيد القدامى حق المواطنية الأميركية، ونصّ على أنه ابتداء من 1868 يصبح الأسود مواطناً كامل العضوية وله حق الانتخاب.

لكن الإعلان الرسمي بإقرار الحرية لا يكفي ويظل هناك ضرورة لتفعيل الوضع الشرعي للسود في الواقع الحياتي. إلغاء العبودية لا يعني أن العدالة العِرقية تحققت؛ ولا يمكن الانتقال بين ليلة وضحاها من حالة العبودية إلى المواطنية! بعد نهاية الحرب وجد الأسود المحرر نفسه في حال بائسة. صحيح أنه لم يعد عنده سيّد لكنه لم يكن قادراً بعد على الحصول على قطعة أرض؛ ولم يكن متعلماً حتى يستطيع الخوض في مجالات أخرى ربما كانت متاحة له. لذلك كان عليه أن يناضل في سبيل تحقيق مكانته في المجتمع.

لم يتأخر البيض الجنوبيون في العمل على استعادة النفوذ الذي خسروه. كانوا مهتمين بالدرجة الأولى بفرض السيطرة على الأسود المحرّر، وسارعوا في إعداد قوانين تضمن حريتهم وتحدّ من حرية الأسود. وهكذا حلّت مجموعة «قوانين السود» محل «قوانين العبودية»، وهما متشابهتان إلى حد غريب. كان الهم الأساسي دفع الأسود إلى حالة اجتماعية واقتصادية وسياسية تجعله أدنى من الأبيض، ومن التدابير التي أعلنت لهذه الغاية: السود مرغمون على القيام بالعمل الذي يحدِّده أرباب العمل من البيض؛ وإذا كانوا لا يعملون فإنهم يعتبرون مشردين؛ ولا يحق لهم القيام بأعمال متخصّصة، وهذا يفرض عليهم إما أن يكونوا مزارعين أو خداماً، الخ...

لكن «مكتب المحرَّرين» حاول إخراج السود من بؤسهم بالاهتمام بالمَطلبَيْن الأكثر إلحاحاً لديهم وهما الأرض والتعليم. وقد بذل المكتب جهداً استثنائياً فيما يختص بمجال التعليم، لكن ذلك لم يكن صحيحاً بالنسبة لمسألة الأرض. في الجنوب كان المحرَّرون مجبرين على تأجير خدماتهم في إطار نظام مزارعة كان شكلاً جديداً للاستغلال، وفي الشمال الذي تحوّل بسرعة إلى التصنيع صاروا عمالاً في المصانع. أما البروليتاريا البيضاء فقد أبدت انزعاجها من أولئك الذين يعملون مقابل أجر منخفض جداً ويُستخدمون «لإحباط الإضرابات». بالإضافة لذلك حاول النقابيون من العمال البيض منع العمال السود من دخول المصانع.

أثار ذلك انتباه الناشطين القدماء في حركة مقاومة الرق فأجبروا الحكومة الفيدرالية على اتخاذ تدابير أكثر فاعلية. سنة 1867 صوّت الكونغرس على «المرسوم الأول لإعادة البناء» الذي ألغى قوانين السود في الجنوب وأفسح المجال، في الشمال، للعبيد القدامى أن يندمجوا بدون تردّد في المجتمع الأبيض.

لكن الجنوب لم يكن ليتخلى بسهولة عن غطرسته، مما ساعد على ظهور عدة مجموعات سرية استهدفت محاربة المكاسب الجديدة التي أعطيت للسود؛ ومنها جماعة كوكلوكس كلان الشهيرة، وكانت عصابة من المجرمين في خدمة تفوق البيض.

التمييز العنصري:

سنة 1876، وعلى إثر مساومة انتخابية، صار بإمكان الديموقراطيين في الجنوب، وبمنأى عن أي عقاب، «إدارة شؤونهم المحلية على طريقتهم»، وذلك كان يعني، بالدرجة الأولى، إبعاد

السود عن الخدمة المدنية. وبشكل تدريجي تمكن «العرق المتفوق» من تكريس التمييز العنصري ما بين 1883 و 1898 ـ وذلك على المستوى السياسي والاجتماعي والاقتصادي ـ والمحكمة العليا لم تفعل أكثر من إقرار أمر واقع: تمييز في وسائل النقل والتعليم، وحرمان السود من حقهم في المشاركة في الانتخابات، وتحديد أحياء يقيم فيها السود، ومنع الزواج المختلط، والتفرقة في العمل، إلخ... لجأ الرجل الأبيض إلى القوة لفرض القانون، وتعرض أكثر من ثلاثة آلاف من السود، ما بين 1885 و 1930، لشتى أنواع الممارسة التعسّفية دون أن يثير ذلك قلق العدالة.

وهكذا بدأ السود يرحلون عن الجنوب بحثاً عن «أرض ميعاد» في الغرب أو الشمال. وكان إقبالهم على الهجرة إلى الشمال أكثر من الغرب. وقد وصلت هذه الهجرة إلى ذروتها بين 1915 و 1986: خلال ثمانية عشر شهراً اجتاح 350,000 من السود مدن الشمال.

لم تتضايق مؤسسات الشمال من هذا التدفق السكاني لأن الحرب العالمية الأولى تطلبت تكثيف الإنتاج وزيادة عدد الشبان الذين يرسلون إلى الجبهة. لكن هذا التغيير في الإنتاج وفي البنية الاجتماعية كان بالنسبة للأسود بمثابة اقتلاع إضافي. وصار واضحاً أن نظام العمل الرتيب ـ إذا توفّر ـ لم يكن أفضل من العبودية في الريف. خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، كانت محدلة النظام الرأسمالي تعمل على سحق المجتمع الأسود. في الشمال تغيّر اسم القمع وقناعه لكن وقعه على السود لم يتغير. أولئك الذين لجأوا إلى مدن الشمال هاربين من نير ملاّكي الأراضي وجدوا أنفسهم تحت رحمة سماسرة العقارات.

أحياء الغيتو:

أوجد المجتمع الأبيض أحياء خاصة بالسود تحوّلت بسرعة كبيرة إلى أحياء غيتو[1]. وكانت أوضاع سكان هذه الأحياء المدينية أشبه ما تكون بالدائرة المفرغة: تكديس الناس في مكان ضيق يؤدي إلى تراجع الشروط الصحية الضرورية، وهذا يؤثر على صحة العامل الذي لا يعود بوسعه الحصول على عمل، أو المحافظة على العمل الذي لديه؛ ومن النتائج الحتمية لتقلّص الدخل، تدهور حالة المسكن، وارتفاع معدل الوفيات عند الأطفال، ونسبة الإجرام. من وجهة النظر السيكولوجية، تؤدي الحياة في الغيتو إلى ظهور عوارض محدّدة تبرز من خلال مواقف متطرفة تعكس الضيق والانحطاط: عدائية عنيفة أو لا مبالاة كلية، احتقار للذات أو جنون عظمة.

في 17 أيار 1954، أقرّت المحكمة العليا بالإجماع أن التمييز العنصري في مجال التعليم ـ أساس المواطنية ـ مخالف للدستور. قرار المحكمة العليا الذي أقر بإزالة التمييز العنصري في المؤسسات التعليمية: «بالسرعة المناسبة» كان بمثابة بداية مرحلة جديدة في حياة المجتمع الأسود في الولايات المتحدة.

ومع أن التاريخ الأميركي علّمنا أنه يوجد غالباً مسافة بين النصّ التشريعي والتطبيق الفعلي، لكن عملية إزالة التمييز التي أُطلقت زرعت أملاً جديداً في نفوس الملايين من السود. وسيتمكن الشعب الأسود في السنوات اللاحقة، في ظل زعامة رجال أمثال مارتن لوثر كينغ، من خوض نضال عنيد، تميز بشكل خاص بلا عنفيّته، من أجل الاعتراف بالأسود وتحقيق المساواة العرقية.

---

(1) «Ghetto noir»، كنيث كلارك، منشورات Payot، باريس 1969.

العنصرية الأمريكية(*)

في كتاب صدر في الولايات المتحدة الأمريكية في عام/ 1991/ تحت عنوان/ التفرقة العنصرية في الولايات المتحدة الأمريكية/ تناول فيه مؤلفه البروفيسور «غاري كليران» ظاهرة التمييز العنصري المنتشرة في جميع مدن الولايات المتحدة وأحيائها، والممارسات العنيفة ضد الأمريكيين السود بشكل خاص والملونين بشكل عام، إضافة إلى المهاجرين الجدد من آسيا وأميركا اللاتينية والطبقات الفقيرة منهم بشكل خاص.

ولقد أثار الكتاب المذكور ضجة على المستوى الاجتماعي الأمريكي، كما أدى إلى ثورة عارمة من الغضب الشعبي، فكيف يعقل بأقوى دولة في العالم أن تكون على هذا المستوى من الانحطاط الخلقي الذي تمارس من خلاله أسوأ أشكال التمييز العنصري.

وإذا كانت العنصرية تمارس عادة على أساس الدين أو الجنس أو اللون فإن التركيبة الاجتماعية الأمريكية توفر مناخاً قلّ أن يكون مثله في العالم كله لتفريغ مفاهيم وممارسات عنصرية، حيث هناك في

(*) المرجع: ممدوح الزوبي «هل ستسقط أمريكا؟». دار الرشيد. دمشق. ومؤسسة الإيمان - بيروت، 1996.

الولايات المتحدة نحو ثمانين قومية مختلفة، وثلاثة أديان سماوية وهي (الإسلام والمسيحية واليهودية)، وأربعة أديان أو عقائد غير سماوية قدم معتنقوها جميعهم من أنحاء متفرقة من القارة الآسيوية، وهي (الهندوسية والبوذية والكونفوشيوسية)[1]. كما يتكون الشعب الأمريكي كله ـ كما هو معروف ـ من مهاجرين سواء قدامى وهم الذين أسسوا الولايات المتحدة، أو مهاجرين جدد ينظر إليهم القدامى على أساس أنهم دخلاء، مع أنهم كلهم سواء، والفارق بينهم هو تاريخ الدخول. ويعتنق معظم السكان الديانة المسيحية وينقسمون إلى نحو / 300/ مذهب وفئة دينية، حيث هناك في أميركا / 300/ كنيسة ذات سياسات دينية مختلفة ومتباينة يمول بعضها من الداخل، وبعضها الآخر من الخارج، كما أن المسلمين الذين يبلغ عددهم أكثر من ستة ملايين نسمة يتوزعون على ستين قومية ولغة وثقافة مختلفة[2].

التمييز الأمريكي

وقد لبست العنصرية في الولايات المتحدة أكثر من قناع، وبدأت تظهر بمفهومها الحديث من خلال التمييز بين إنسان وآخر على أساس اللون أو الدين أو العرق منذ أواخر القرن الماضي. فعصر العبودية الذي بدأ مع عصر النهضة وسوق مواطني بلدان أفريقيا السوداء إلى العالم الجديد، صحيح أنه شكل من أشكال العنصرية إلا أنه يختلف عن العنصرية في وقتنا الحالي، لأن السود في ذلك الوقت كانوا عبيداً بمعنى الكلمة، لكن الوضع الحالي هو تمييز شخص عن آخر مع تساويهما في الحرية والمواطنة.

(1) الأيام العربية ـ العدد 28 ـ مرجع سابق.

(2) اللوموند ديلوماتيك ـ كانون الثاني (يناير) 1992.

وبالرغم من القانون الذي صدر في عام / 1964/ والقاضي بإلغاء التمييز العنصري في الولايات المتحدة، فلا زال عدد من المطاعم والمحلات التجارية تكتب على أبوابها عبارات عنصرية مثل (ممنوع دخول السود والكلاب) ولا رقيب ولا حسيب حتى مطلع السبعينيات من هذا القرن. وبالرغم من إزالة مثل هذه اللافتات الجارحة للكرامة الإنسانية في مجتمع الحرية والديمقراطية إلا أن التمييز العنصري لم يختف يوماً واحداً، إلا أنه يأخذ طرقاً وأساليب مختلفة وجديدة تكتسي طابع الرسمية والشعبية في آن معاً[1].

وجوه التمييز الأمريكي

ومن أهم وجوه التمييز العنصري الأمريكي الذي لا زال موجوداً حتى الآن حرمان السود والملونين من المناصب العليا في الدولة، واحتكارها بيد البيض، وقد أثار تعيين كولن باول وهو أسود كرئيس لهيئة أركان الجيش الأمريكي في نهاية الثمانينيات ضجةً كبيرةً. إضافة إلى ذلك فإن السود لا يمثلون سوى / 1,47%/ من المجموع الوظيفي على المستوى الوطني الأمريكي من بينهم محافظ واحد، وليس هناك أي ممثل لهم في مجلس الشيوخ، أما بالنسبة لمراكز العمدة فإن انتخاب السيد ديفيد دينكز يعوّض موت السيد هارولد واشنطن في شيكاغو، ورحيل السيد توم برادلي في لوس أنجلوس في أواخر الثمانينيات[2].

كما يأخذ التمييز العنصري الأمريكي وجوهاً أخرى منها حرمان

---

(1) المرجع السابق.

(2) تشرين ـ الصادرة في 1 شباط (فبراير) 1992.

السود والملونين من فرص العمل، ودفعهم إلى متاهات البطالة والتشرد والجريمة، وإذا حصل أحدهم على وظيفة فغالباً ما يكون أجره أقل من الأجر الذي يحصل عليه الأبيض عن العمل نفسه[1].

والأرقام خير برهان على ما نقول، فالبطالة عند السود مثلاً تصل إلى ضعفي أو ثلاثة أضعاف نسبتها العامة، كما يترك / 35%/ من الشباب السود والملونين المدرسة دون إنهاء أية مرحلة دراسية مع أنها ضعيفة المتطلبات، كما أن عدد شهادات الدكتوراه عند السود قد انخفض خلال الثمانينيات بنسبة / 25%/ ، كما تراجع معدل العمر منذ عام / 1980/ ليصبح دون سن التقاعد[2].

إن العنصرية في أميركا مشكلة اجتماعية قبل كل شيء، فالمدارس سيئة والوظائف سيئة والمساكن سيئة.. هكذا يقول الباحث الفرنسي سيرج هاليمي.. ويضيف: إن العنصرية لا تُعالج بشكل صحيح، إنما غالباً ما يُكتفى بالمواعظ الإنسانية والنصائح، لكن هذا الأسلوب لا يؤدي إلى التخفيف من حدة العنصرية، فقد حصل ديفيد دوك الزعيم النازي الأسبق في ولاية لويزيانا أواخر عام / 1991/ على / 55%/ من أصوات البيض[3].

وقد مر بركان العنصرية في الولايات المتحدة بعدة انفجارات وثورات، تركز معظمها في لوس أنجلوس عاصمة ولاية كاليفورنيا التي تمثل نموذجاً مصغراً لتركيبة المجتمع الأمريكي، وتعدُّ من أغنى الولايات المتحدة الأمريكية، إلا أن أفقر الأحياء كذلك موجودة فيها،

(1) التفرقة العنصرية في الولايات المتحدة ـ مرجع سابق ـ ص 62.
(2) اللوموند ديبلوماتيك ـ كانون الثاني (يناير) 1992 ـ مرجع سابق.
(3) تشرين 1 شباط فبراير 1992 ـ مرجع سابق.

وهي بالطبع الأحياء التي يعيش فيها السود والملونون. ففي عام / 1968/ وبعد الاضطرابات العنصرية الشعبية في واطسي، والتي كانت أسوأ من اضطرابات / 1993/ في لوس أنجلوس، بعد تلك الاضطرابات بيَّن تقرير سمي حينها بتقرير كرنر وجود أمريكيتين إحداهما بيضاء والأخرى سوداء، وكذلك بعد حوادث لوس أنجلوس الأخيرة تكرر الكلام نفسه، بل بشكل أوسع بحيث أكدت غالبية التقارير والأبحاث التي تناولت هذه الاضطرابات على ضرورة معالجة موضوع العنصرية بأقصى سرعة وفاعلية[1].

ولم تكن أحداث لوس أنجلوس الأخيرة أكبر الانفجارات والثورات لفم العنصرية المتربص بالمجتمع الأمريكي، ففي المدينة نفسها انفجر بركان العنصرية في عام / 1965/ حيث شهدت لوس أنجلوس اضطرابات خطيرة امتدت إلى باقي المدن الأمريكية وتركزت مواجهاتها بين السود والبيض، وكذلك تفجر هذا البركان في السنوات اللاحقة وخاصة في عام / 1967 و1968/ مخلفاً وراءه العديد من القتلى والجرحى، إضافة إلى الخسائر المادية التي قدرت حينها بمئات الملايين من الدولارات.

وتبقى أحداث لوس أنجلوس لعام / 1992/ الأشد وطأة لأنها تفجرت في وقت شديد الحساسية بالنسبة لأميركا، والعالم المتجه نحو النظام العالمي الجديد ذي القطب الواحد تحتكر فيه الهيمنة الولايات المتحدة الأمريكية، فقد جاءت هذه الأحداث حينها لتشكل ضربة قوية لمصداقية الولايات المتحدة في دعوتها إلى حماية حقوق الإنسان والمساواة والحرية في إطار النظام العالمي الجديد، كما أن هذه

(1) اللوموند ديبلوماتيك ـ كانون الثاني ـ يناير 1992 ـ مرجع سابق.

الأحداث لم تكن إلا انعكاساً مباشراً للخلل الاجتماعي الكبير في المجتمع الأمريكي نتيجة العنصرية والركود الاقتصادي الذي استأثر خلاله البيض بفرص العمل والوظائف والخدمات، ومختلف الخدمات الاجتماعية والمعيشية والتعليمية وحرموا السود والملونين منها.

وجوه أخرى

وقد ظهرت في الولايات المتحدة خلال عقدي الثمانينيات والتسعينيات العديد من المنظمات المسلحة التي تنتهج العنصرية مبدأ لها، وتتخذ القتل منهجاً وعقيدة، وعلى رأس هذه المنظمات منظمة تطلق على نفسها اسم (الرايخ الرابع لحليقي الرؤوس) وهي إحدى جماعات حليقي الرؤوس التي انتشرت في الثمانينيات والتسعينيات في العالم الغربي، وترتبط هذه المنظمة مباشرة بجماعات حليقي الرؤوس في ألمانيا، ومن هذه المنظمات أيضاً منظمة (اريان البيضاء) و (كنيسة الخالق)[1].

وقد ضبطت الشرطة الأمريكية كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر لدى أفراد هذه الجماعات، إضافة إلى صور الزعيم الألماني النازي الذي تسبب بكارثة الحرب العالمية الثانية أودولف هتلر، كما تبين من خلال التحقيقات أن أفراد هذه الجماعات يتبنون فكرة القتل المقدس لنقاء البشرية، وتركز نشاطها الإجرامي ضد السود.

وكما ذكرنا آنفاً فإن الواقع العنصري في الولايات المتحدة يرتبط بالتفاوت الطبقي والاجتماعي والاقتصادي المبني على أسس عنصرية بين البيض والسود بشكل خاص والملونين بشكل عام. حيث يؤكد

---

(1) الأيام العربية ـ العدد 28 ـ مرجع سابق.

تقرير صادر عن أعرق منظمة للدفاع عن السود في الولايات المتحدة الأمريكية وهي (الرابطة المدنية الوطنية): إن متوسط مدخول عائلة من السود لا يتعدى نسبة / 58%/ من متوسط مدخول عائلة من البيض[1].

ومن الواضح إن ارتفاع معدلات الجريمة مرتبط بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، وإن الفقر السائد في أوساط السود والملونين يشكل العامل الرئيس لتزايد معدلات الجريمة في صفوفهم وأحيائهم وبين أطفالهم وفتيانهم.

ويلقي توزع الأصول العرقية لنزلاء السجون الأمريكية بالمقارنة مع نسبة هذه الأصول في العدد الإجمالي للسكان الضوء على الفئات الاجتماعية التي تعيش أجواء الجريمة والقتل، نتيجة الإحساس بمرارة الحرمان والفقر والبؤس، حيث يظهر بوضوح أن الأمريكيين السود والملونين يعيشون أجواء من الاضطراب المرتبطة بأوضاعهم الاقتصادية المتدهورة. فنسبة الأمريكيين السود في السجون الأمريكية تصل إلى / 47%/ من إجمال أعداد المساجين فيما لا تتعدى نسبة المواطنين السود في الولايات المتحدة / 12,5%/ من إجمالي عدد السكان، أما نسبة بقية الملونين فتصل إلى / 15%/ تقريباً.

(1) المرجع السابق.

مخطط تهجير السود(*)

أدى تمسك السود وزعمائهم بالبقاء في الولايات المتحدة إلى فشل مخطط تهجير السود إلى أفريقيا، ولم يشمل ذلك التهجير سوى أعداد محدودة منهم، ولعدة أسباب أخفقت هذه الدعوة من أصلها لأن السود كانوا قد استقروا في الأرض الأمريكية لمئات السنين واندمجوا بالفعل في المجتمع الجديد، كما فشلت دعوة الأقلية من السود الذين قادهم عدد من الزعماء الذين كانوا مع فكرة تهجير السود أو عودتهم إلى أفريقيا، هذا فضلاً عن أن الصورة الكريهة التي بثها المجتمع الأبيض عن العرق الأسود إلى جانب المعاملة المهينة والقاسية، جعلت غالبية السود يدركون أن تمسكهم بوطنهم الأمريكي وإصرارهم على البقاء فيه كفيل إلى جانب النضال السلمي والعنيف بتحقيق حقوقهم المشروعة ومساواتهم بالجنس الأبيض.

كانت الكتب المدرسية والجامعية تحتوي على دراسة الأجناس البشرية، وتصنفهم إلى خمسة أنواع، مع تحديد صفات ومميزات كل جنس، ولكنها عند الحديث عن الجنس الأسود، لا تذكر سوى صورة القرد المتوحش ذي الشعر الكث الطويل والشفاه الغليظة والأنف

(*) المرجع: عبد القادر البريفكاني «المحررون أعظم قادة القرن العشرين». مطابع الأهرام. القاهرة، الطبعة الأولى 2001، ص 551 ـ 554.

الأفطس، وبالغت هذه الكتب إلى جانب دوائر المعارف في ذكر صفات الشراسة والوحشية والخسة والغباء لدى الجنس الأسود. وقد رفض الكتاب والمثقفون السود أنفسهم هذه الصورة الكريهة كما أكدوا على أن التجربة الأمريكية ونمط الحياة والثقافة لا يترجم احتكار البيض لهذه التجربة بل هي تتشكل من ملامح وتقاليد مختلف الأقليات والأجناس، وأن السود قد اندمجوا بالفعل في الحياة والمجتمع الأمريكي، وليست لهم ثقافة خاصة، كما أنهم يعتبرون جزءاً لا يتجزأ من عملية التشكيل التاريخي للمجتمع الأمريكي الذي ينتمي إلى الحضارة الأطلسية، معنى ذلك أن السود لم يكونوا يشكلون كياناً ذاتياً منفرداً في المجتمع الأمريكي(1).

والواقع أن جماعات من البيض، ومن أهمها جماعة أو عصابة «كوكلوكس كلان» والتي مارست أبشع صور العنف والاغتيال والنهب والتدمير ضد السود تزعمت فكرة تهجير السود إلى القارة الأفريقية، وبدأت الفكرة في العام 1714 على أمل التخلص من السود وإبقاء أميركا مجتمعاً أبيضاً خالصاً، كما تشكلت «الجمعية الأمريكية للاستعمار» في العام 1816 لتحقيق نفس الغرض، ولقيت الفكرة ترحيباً من أقلية من الزنوج على أمل خلاصهم من الظلم والاضطهاد والمعاناة التي يعيشونها في ظل المجتمع الأمريكي، كما رحب بها دعاة إلغاء الرق من البيض انطلاقاً من أن ذلك سوف يحقق أحلامهم الإنسانية، كذلك فقد ساند رجال الدين المسيحيون الفكرة بذريعة أن تهجير الأفارقة يعطيهم فرصاً كبيرة للتبشير بالمسيحية ونشر الحضارة

---

(1) انظر في ذلك: Mary Beth Nortonetal: «people and a Nation, A history of the United States», vol.2, 2d ed. Boston: Houston Miffin, 1986.

في تلك القارة الوثنية البربرية، ومن المفارقات المثيرة للاهتمام أن أغلبية السود ومعظم منظماتهم المدافعة عن حقوقهم لم ترفض وحدها هذه الدعوة، بل رفضها السادة البيض من ملاك الرقيق وأصحاب المزارع في ولايات الجنوب، لأنهم قد أسسوا عماد حياتهم الأوروبية والمادية على الرقيق، ولا يرغبون في إضعاف أو ضياع ما سبق أن حققوه من ثروات وجاه ونفوذ، من استخدام السود كرقيق.

وكان من العوامل التي دفعت هؤلاء البيض إلى رفض الدعوة إلى أن الغالبية العظمى من السود كانوا أرقاء حتى منتصف القرن التاسع عشر رغم إلغاء نظام الرق رسمياً في بعض ولايات الشمال، فلم يزد عدد الزنوج المتحررين من الرق آنذاك عن 400 ألف زنجي، بنسبة لا تزيد عن 10% من مجموع السود الأمريكيين، وكان من أهم أسباب تحرر هذه الفئة من الرق، أنهم من الخلاسيين أو من الذين يهربون من خدمة السيد الأبيض، أو يلجأون إلى شراء حريتهم، وكانت الأغلبية من الخلاسيين إذ قدرت نسبة هؤلاء بنحو 60% من مجموع السود المتحررين[1].

يُضاف إلى ذلك أن الحكومات الأوروبية الاستعمارية قاومت بشدة أعمال تهجير السود إلى أفريقيا، وعمدت إلى تعطيل سريان الفكرة، والواقع أنه حتى الرئيس «لنكولن»، الذي يُعرف في التاريخ الأمريكي بمحرر العبيد كان قد تردد طويلاً قبل أن يقبل فكرة إلغاء الرق، بل إن إلغاء تجارة الرقيق أدت إلى إلغاء الرق فقط وتجاهل حقوق السود، بل كان «لنكولن» نفسه يأمل بأن يدفع تحرير الرقيق السود إلى حل مشكلاتهم بالعودة إلى أفريقيا، فقد ذكر «لنكولن» في

(1) Ibid: pp.1856-7.

خطاب له العام 1858:

«لست في صف المساواة بين الجنسين الأبيض والأسود، فهناك اختلاف طبيعي بينهما، وهذا الاختلاف يمنعهما من العيش على قدم المساواة السياسية والاجتماعية، وطالما يعيش الجنسان سوياً فلا بد أن يحتل أحدهما المركز الأعلى، ويقنع الآخر بالمركز الأدنى، وأني في صف الاحتفاظ بالمركز الأعلى للجنس الأبيض»[1].

لم تقتصر دعوة السود إلى مغادرة أميركا والعودة لأفريقيا فقط، إذ ظهرت مشروعات أخرى لتوطين الزنوج في كندا وجزر الكاريبي، خاصة هايتي وبعض مناطق أميركا الوسطى، ورغم الإغراءات والوعود المقدمة لمن يرغب في الهجرة، إلا أن الدعوة لم تحقق نجاحاً إلاّ مع أعداد قليلة من السود، بل ظهر توجه يشير إلى أن السود الأمريكيين سوف يشوهون تفكير الأفريقي البدائي ويدعونهم إلى التمرد والمقاومة ضد البعثات التبشيرية، وكانت النتيجة أن حكومة جنوب أفريقيا البيضاء نفسها رفضت في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أنشطة البعثات التبشيرية المسيحية الأمريكية لمجرد أن الزنوج الأمريكيين هم الذين يقودونها وقامت بوضع عقبات في وجه نشاط الكنيسة الأفريقية المستقلة الزنجية[2].

---

(1) Ibid: pp.1857-9.

(2) M.Ueo. Fsky.op.Lit. pp.207-9.

أميركا وسياسة التفرقة العنصرية(*)

قيل عن أميركا الكثير: عن قوّتِها وجبروتِها وعظمتِها وما هو في طوعِ بنانِها، إلى درجة لم توصف دولة قطّ بما وُصِفت به الولايات المتّحدة من جبروتٍ لما لديها من تطوّر الأدوات ذات المعنى الأشمل من القطاع العسكري. . ومن تلك العناوين:

إنّ أميركا دولة غنيّة فاحشة الثراء. ذات أكبر اقتصاد عالمي. أكبر قوّة عسكريّة في العالم. سيّدة النظام الدولي الجديد وبطريقةٍ وحدويّة. الدولة الوحيدة في العالم غير المدينة خارجيّاً. صاحبة مطبعة الدولار الذي يعتبر النقد العالمي. صاحبة أكبر ميزانيّة حرب على الإطلاق. صاحبة رقم قياسي في النموّ الاقتصادي. . عندها أكثر عدد من الأقمار الصناعية التي تسبح في الفضاء. الأولى في العالم بغزو الفضاء. سعر مدمّرة بحريّة واحدة تريد تصنيعها يصل إلى 30 مليار دولار أمريكي. هي ذات قاعدة تكنولوجيّة الأكبر في العالم ولديها أكبر عدد على الإطلاق من القواعد العسكريّة في العالم. . هي صاحبة أكبر نظام تجسّسي عالمي (أقمار صناعيّة، نظام أيشلون. .).

(*) المرجع: الشيخ جعفر حسن عتريسي «أمركة الأمم وصدام الحضارات». دار الهادي. بيروت. الطبعة الأولى 2002، ص 295 ـ 315.

كلّ هذا يعني أنّ الولايات المتّحدة وصلت إلى مستوى مخيف على صعيدِ ترسانتِها وقدراتِها التكنولوجيّة التي تسمح لها في التدخّل السريع والمخيف في أيَّة بقعةٍ من العالم فضلاً عن قدرتِها التجسسيّة التي تعتبر الأهمّ في العالم..

إنّ هذهِ القدرة الهائلة كانت وراء مجموعة من عناوين موجّهة نحو الخارج في عمليّة إعادة تركيب حدود المصلحة التي تريد حمايتها أو وضعها تحت الوصاية الأمريكيّة والشواهد في أفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينيّة بل في عمقِ أوروبا خير دليلٍ على ذلك..

وفي نفس الوقت الذي كانت فيهِ الولايات المتحدة تستعرض أهمّ منتجاتِها التدميريّة شديدة الأثر في أفغانستان كان الرئيس بوش يكتب معنىً آخر من معالم قدرةِ أميركا في ظلٍّ تبعيَّةٍ غير عاديّة من بريطانيا التي تعوّدنا على أنّها تكون الظّل للسياسة الأمريكيَّة وذلك من خلالِ الإشارة إلى أنَّ لأميركا الحقّ في أن تضرب في أيّةِ بقعةٍ من العالمِ ترى لها صلة بالإرهاب..

ففي تاريخ 9 تشرين الأوّل 2001 صرّح الرئيس الأمريكي جورج بوش ورئيس وزراء بريطانيا طوني بلير أنّ للولايات المتّحدة الحقّ في أن تضرب في أيّ مكانٍ من العالم يؤوي إرهابيين أو يساعدهم أو فيهِ إرهابيّون أو له صلة مع إرهابيين أو يدعم إرهابيين...

ولا يشك أحد بالقدرةِ الأمريكيَّة القادرة على تلقين لغة عقابيّة عنيفة خارج كيانِها.. لكن هل هي كذلك داخل كيانِها، هل هي قادرة على صياغة داخلِها بنفس القدرةِ الخارجيّةِ في كتابة عناوين ومبادىء تنظيم العالم وفق مصالحِها ومنافعِها.. هل يوجد في أميركا «نخبة

مواطنيّة» كما هي الحال بالنسبة إلى نخبة آلتِها في القطاعين المدني والعسكري. .؟ هل أميركا من الداخلِ تعيش عظمةً اجتماعيَّةً وجوديَّةً آمنة كما هي الحال مع كيانِها الخارجيّ. .

وبكلمة: هل «أميركا من الداخلِ» مثل حال «أميركا من الخارج» أم أنّ الافتراس الذي تعيشه أميركا عبر نخبتِها في الخارجِ يعيشه المواطن الأمريكي أيضاً في الداخلِ، وعلى يد نخبةِ أهلِ النفوذ والقوّة والثراء والبطش الداخلي. .! . . لذا منذ زمنٍ كان العالم يردّد سؤالاً مفادهُ: كيف تبدو أميركا من الداخل. .؟

الجواب:

تبدو أميركا في الداخلِ فئة حكم ونفوذ، كما هي أميركا في الخارج فئة حكم ونفوذ. . على قاعدة (روح الافتراس في كلِّ منفعةٍ ما أمكن. .).

منطق أميركا الخارجي:

قبيل الحرب الكوريّة بقليل أعدّت في العام1950 الوثيقة التي تحدّدُ الخطّ السياسيّ للولايات المتحدة وهي مذكّرة مجلس الأمن الوطنيّ 68 المحرّرة من قِبَل «بول نيتز» الذي حلّ على رأس هيئة تخطيط الدولة وقد كتب في العام 1948 الخلاصة التالية:

إنّنا نملك نحو (50 في المئة) من الثروات العالميّة ولكنّنا (6,3 في المئة) فقط من سكّان العالم وفي هذا الوضع لا يمكنُ إلا أن نكون هدفاً للحسد والنقمة. ومهمّتنا الحقيقيّة في المرحلة القادمة هي تنمية نظام من العلاقات يتيح لنا المحافظة على هذا الوضع من عدمِ المساواة دون أن تتعرّض أمّتنا للخطر الوطنيّ. . . ولتحقيق ذلك يجب

أن نتخلّص من كلّ «رقّةٍ عاطفيّة» ونتوقّف عن أحلام اليقظةِ، ونركّز في كلّ مكانٍ انتباهنا على أهدافنا الوطنيّة المباشرة، دون أن ننخدع فلا يمكن أن نسمح حاليّاً لأنفسنا بترف الإيثار أو الإحسان على النطاق العالميّ ويجب أن نكفّ عن الحديث حول أهداف مبهمة وهي أهداف غير قابلة للتحقيق فيما يتعلّق بالشرق الأقصى مثل حقوق الإنسان ورفع مستوى الحياة وتعميم الديمقراطيّة... واليوم الذي يجب علينا فيه أن نتصرّف وفقاً لمعايير القوّة ليس بعيداً. ومن الأفضل لنا عنده أن نبعد عن أنفسنا مضايقات الشعارات المثاليَّة.... (كما جاء في سياسة الدراسات والتخطيط 23 شباط عام 1948).

إنَّ هذهِ الصور كافية للدلالةِ على نمطِ أميركا في التعاملِ مع قضايا الخارجِ، فماذا عن جوفِ أميركا..؟

الصورة الثانية:

منطق أميركا الداخلي:

قال جون جاي وهو رئيس الكونغرس القاري وأوّل رئيس لمجلس القضاء الأعلى في الولايات المتحدة الأمريكيَّة:

(إنّ من يملكون البلاد، يجب أن يحكموها) وهو يعني بذلك أنَّ النظام السياسيّ هو كالنظام الاجتماعيّ مصمّم من أجل الطبقات المالكة.

ويتضح هذا الأمر بشكلٍ جليّ إذا علمنا أنَّه منذ العام 1900 تمتلك ثُمُن العائلات الأمريكيَّة «سبعة أثمان الثروة الوطنيّة»... ومنذ ذلك الوقت ما زالت الأمور تسير على قاعدة نقصان حادّ في الثروة الإجماليَّة للفقراء فيها مقابل تضخّم متصاعد للطبقةِ الغنيَّة ولصالح أقلّ

من 8 في المئة من الذين يسيطرون على الثروة القوميَّة.. بل في دراسة أجراها الكونغرس الأمريكيّ ونشرت في آذار من العام 1989 تبيَّن أنّ دخل خمس السكّان الأمريكيين الفقراء قد نقص بنسبة 6 في المئة بين عام 1979 و 1987 وفي المدّة نفسها ازداد دخل خمس السكّان الأمريكيين الأغنياء بمقدار 11 في المئة بحيث نقص دخل الفقراء بمعدّل 9,8 في المئة، أمّا زيادة الخمس الغنيّ كانت نسبته 15,6 في المئة.

يأتي ذلك في ظلّ واقعٍ نفوذيّ جعل من أميركا امبراطوريّة عملاقة، هي الأولى في العالم في القبض على تدفّقات البورصة.. حتى أشار موريس آليس (الحائز على جائزة نوبل في الاقتصاد) معتمداً على بيانات بنك التسويات العالميَّة إلى أنّ «التدفّقات الماليَّة» عبر البورصة والمضاربة التي تعتبر عمليَّة ماليَّة تقوم على أساس استغلال تقلّبات السوق (أسعار الأسهم والبضائع) لتحقيق الربح، هذه التدفقات الماليَّة ترتفع وسطيّاً إلى «ألف ومئة مليار دولار في اليوم الواحد أي ما يفوقُ «أربعين مرَّة» التدفقات الماليَّة المتعلّقة بـ «التسويات التجاريَّة»... إنَّ الاقتصاد الأمريكي ينتج من البضائع والخدمات ما قيمتُه 2 تريليون دولار أمريكي كلّ عام.. أي ربع كلّ شيء يُنتج في العالمِ قاطبةً... كما أنَّ (70 في المئة) من تجارةِ العالمِ تتمّ صفقاتُها بالدولارِ الأمريكي... وإنّه إذا عطس الاقتصاد الأمريكي فإنّ اقتصاد العالم سيصاب بالتهاب القصبات الرئويَّة.. وكما ترى في كلتا الصورتين هناك نوع من طبقة، تريد أن تكون على رأسِ الهرم في قيادةِ الأممِ على نحو سلطنة الخارج أو قيادة الأمّة على نحو سلطنةِ الداخل..

هذا فضلاً عن مجموعةٍ واسعةٍ من آثار تمييزيَّة خطيرة تعيشها

هذهِ الأمّة الخليطة من أكثر من عرقٍ.. بحيث سنرى أنّ تعدّد الأعراقِ في هذا البلد يؤثر بشكلٍ كبيرٍ على حقوقِ المواطنِ فيه.. وعلى أكثر من مستوى: قضائي، اجتماعي، وظيفي، مهني.. وليت الأمر ينقضي في اعتبار عدّة ملايين من أعراق وضيعةٍ وفق المعنى الأنكلوسكسوني بل هناك عشرات الملايين ممّن يعانون من هيمنة عرق الأنكلوسكسون وبشكلٍ خطير في ضرب بُنى المعاني الانتمائيَّة..

أين يبرز التمييز العنصري الطبقي في أميركا؟

في تاريخ 29 كانون أوَّل 2000 أعلن مكتب الإحصاء السكّاني في العاصمة واشنطن أنّ سكّانَ الولايات المتحدة الأمريكيَّة زادوا إلى (281,4 مليون نسمة) في العام 2000 ويعدّ هذا الرقم قفزةً نسبتها (13,2 في المئة) منذ آخر إحصاء أجري قبل عشر سنوات (248,8 مليون نسمة) في العام 1990 وتفيد توقّعات الرسميين أنّه في العام 2050 سيكون عدد سكّان الولايات المتحدة 400 مليون نسمة.

كذلك بيَّن مكتب الإحصاء مجمل تعداد السكّان على مستوى كلّ ولاية، مع الإشارة إلى أنَّ عدد كلّ ولاية التمثيلي في النظام السياسي يقرّر نسبةً إلى عدد سكّانها وأوضح الإحصاء السكّاني الثاني والعشرون في الولايات المتحدة الأمريكيَّة أنّ الثقل السكّاني لا يزال يتّجهُ نحو الولايات الجنوبيَّة والغربيَّة وقد يكون لهذا الأمر آثار سياسيَّة واقتصاديَّة... وأكّد الإحصاء ميلاً بدأ يظهر منذ عقود هو أنّ ولايات الشمال لا تشهد ارتفاعاً كبيراً في عدد السكّان...

وقد ارتفع عدد السكّان في فترة 10 سنوات (32 مليون نسمة) منها (25 مليون نسمة) في الجنوب والغرب الأمريكيّ وقد سجّلت نيفادا في الغرب أكبر زيادة (66,3 في المئة) من عدد سكّانها تلتها

بذلك اريزونا (40 في المئة) وكولورادو (30,6 في المئة) ويتاهُ (29,6 في المئة) وكلّها ولايات غربيَّة... وتعدّ كاليفورنيا الأكبر عدداً بالسكان مع (33,8 مليون نسمة) تليها تكساس (28,20) ونيويورك (18,9).

وفي الجنوب زاد عدد سكّان جورجيا بنسبة 26,4 في المئة وفلوريدا 23,5 في المئة وتكساس 22,8 في المئة ونيو مكسيكو 20,1 في المئة... أمّا معظم المناطق الشماليَّة الشرقيَّة فكانت الزيادة السكّانيَّة أقل بكثير وبلغت في بنسلفانيا 3,4 في المئة وفي نيويورك 5,5 في المئة... أمّا في منطقة كولومبيا (العاصمة الاتحاديَّة واشنطن) فتراجع عدد السكّان 5,7 في المئة في عشر سنوات...

وأشار الخبير السكّاني مارك ماذر أنّ هذا الميل المستمرّ منذ ثلاثة عقود يعزى بصورة أساسيَّة إلى الهجرة الداخليَّة والخارجيَّة... وأضاف: إنَّ المهاجرين المقدّر عددهم بنحو مليون شخص في السنة وكذلك سكّان البلاد يفضّلون الانتقال إلى هذه الولايات لأنّ الوظائف الجديدة تنشأ خارج المناطق الشماليَّة الشرقيَّة.

مع الإشارة إلى أنَّ للزيادة السكانيَّة آثاراً على المستوى التمثيلي والسياسيّ ففي الولايات المتحدة يحقّ لكلّ ولاية بـ «مقعد» في مجلس النواب الذي يعدّ (435 نائباً لكلّ 600 ألف نسمة) ومع زيادة الثقل السكّاني في الجنوب سيخسر الشمال الشرقيّ عدداً من مقاعده مثلاً: ولاية تكساس ستربح مقعدين إضافيين خلال انتخابات الكونغرس عام 2002 شأنها في ذلك شأن فلوريدا وجورجيا ممّا يعزّز حظوظ الجمهوريين باستثناء كاليفورنيا التي تعتبر معقلاً تقليديّاً للديمقراطيين...

وبتاريخ 1 أيلول 2000 أشارت جريدة «السفير» عبر دراسة تفصيليَّة إلى نسب الأعراق تحت عنوان: «السود ما زالوا الأقليَّة العرقيَّة الأكبر في الولايات المتحدة. موجات الهجرة تغيّر النسيج الاجتماعي الأمريكي».

ففي تمّوز من عام 2000 بلغ عدد الأشخاص المتحدّرين من أميركا الجنوبيَّة في الولايات المتحدة (32,4 مليوناً) أي زيادة بنسبة 44,9 في المئة منذ تمّوز عام 1990 وبلغ عدد الآتين من آسيا ومنطقة المحيط الهادىء 10,5 ملايين أي بزيادة خمسين بالمئة كما أفادت الإحصاءات التي صدرت في هذا التاريخ... وباتت الأغلبيَّة في ميامي كبرى مدن فلوريدا الملقَّبة بعاصمة الأمريكيتين من الناطقين باللغة الأسبانيَّة (57 في المئة)... وأعلن المكتب أنّ العدد الإجمالي لسكّان الولايات المتحدة الأمريكيَّة الذي كان 262,8 مليون نسمة قبل عشر سنوات فاق 275 مليون نسمة في العام 2000 إلا أنّ الأكثرية هي من حظّ ذوي البشرة البيضاء التي يبلغ عدد أفرادها (224 مليوناً) أي نسبة 82 بالمئة من إجمالي السكان وإذا لم تؤخذ في الاعتبار فئة الأمريكيين اللاتينيين الذين يشكّلون (169,7 مليوناً) فإنّهم أي البيض من ذوي أصول أنكلوسكسوني يشكّلون (71,5 في المئة) من إجمالي عدد السكان في الولايات المتّحدة.

أمّا هنود الولايات المتحدة (السكان الأصليّون للبلاد) لم يعودوا يتجاوزون الـ «مليوني نسمة» خاصة أنّ البيض أبادوهم منذ الحرب الأهليَّة التاريخيَّة وكان عددهم بعشرات الملايين حتى وصل الحدّ في التعاملِ معهم على شكل طريدة صيد وباعوا جماجمهم إلى أرقى متاحف أميركا ومن بينها أشهر متاحف الدولة نفسها، وكانت جلودهم الحمراء قد شجّعت الأمريكيين على اصطيادهم لبيعها بأثمانٍ جيّدة،

حتى اعتبر الجلد الهندي الأحمر أغلى من أيّ جلدٍ آخر..

بل في تاريخ 14 كانون أوّل 2000 أصرَّ الهنود الأمريكيّون على أنّ كلّ ما في مدافنهم مسروق، وأنّ القانون الصادر عام 1990 لم ينفع عمليّاً حتى أنّ متحف الجيش الأمريكي كان يشتري الهيكل العظميّ والجماجم ويحفر المدافن من أجل عرض الهياكل الهنديّة في متحفه... وتمتلىء المتاحف الأمريكيَّة من هياكل وجماجم وجلود الهنود كتراث مهمّ جدّاً (وهو أسوأ مظهر من مظاهر التمييز العنصري).

وكان الأمريكيّون قد تسابقوا على نبش مدافن الهنود الحمر وقد استثمرت العديد من الشركات والأشخاص أموالاً طائلة باعت خلالها جماجمهم وأجسادهم وجلودهم أيضاً.

أمَّا السود فقد بدوا أكبر فئة عرقيَّة من الأقليات بتعداد (33,4 مليون نسمة) أي بزيادة 14,2 في المئة، ويشكّلون نسبة 12,8 في المئة من إجمالي السكّان.. أي أنّ رقم وجودهم كبير للغاية وأساسي في تعداد المواطنين.. لكن للأسف من ناحية الوجود الاقتصادي السياسي الاجتماعي هم على شكلٍ هزيلٍ جدّاً، ويعانون من أسوأ تمييز عنصري شهدهُ العالم..

وتشير الإحصاءات إلى أنّ هذا النسيج الاجتماعي يعيش أزمة حقيقيَّة في مجال تطبيق القانون بالمساواة وأنّ التمييز العنصري يعتبر الأكبر في الولايات المتحدة الأمريكيَّة وأنّ الجريمة تعتبر الظاهرة العالميَّة الأولى في المجتمع الأمريكي بسبب أزمة تمييز عنصري قياسي.

وإليك واحدة من الأمثلة التاريخيَّة على التمييز ونسف حقوق

المواطن قبل حقوق الإنسان في هذا البلد بما يدلّ على واحدةٍ من معاني الذهنيَّة الحاكمة وسط هذا العالم في ظلّ أهمّ دولة يشهدها التاريخ:

بتاريخ 14 نيسان 2001 جمع الرئيس الأمريكيّ جورج بوش الابن ولأوّل مرّة أحفاد «واضع الدستور الأمريكيّ» الذي يُعتبر أقدم دستور وضعيّ في العالم بالمعنى الوضعي لهذهِ التسمية، وقد أصبح مثالاً يُحتَذى بمبادئه في طولِ مسيرة الاجتماع الغربي، بل هو أوسع منه وذلك بعد أن أصبحت الولايات المتّحدة قوةً نافذةً أولى في العالم..

ويعتبر «توماس جيفرسون» من أهمّ الزعماء الأمريكيين وهو الأب الدستوري لأميركا.. ومع أنَّ له أحفاداً من زوجته البيضاء وعشيقتِه السوداء إلا أنَّه كان من ضمن أهمّ الجماعات النافذة التي استغلّت الرقّ الأسود والتجارة بهِ، بل دعا بقوّة للتمييز بين الأعراق ونادى بشكلٍ علنيّ برقيّ العرق الأبيض وانحطاط العرقِ الأسود..

ومع أنّه حين وضع الدستور وضعهُ على مستوى من مبادىء لا تمييز فيها بين الأعراق، لكنّه ظلّ يمارس ما يعتقده من سموّ بعض الأعراق على الأخرى... بل عاش من عرق العبيد الأرقّاء رغم أنّه يرفض ذلك في دفترِ دستورهِ الرسمي... وقد أشار الرئيس جورج بوش الابن إلى ذلك بوضوح حين قال في احتفال جمعِ العائلةِ:

(إنّ العالم ما زال حتى الآن يردّدُ أفكار «جيفرسون» حتى وإن كانَ هو نفسُه لم يطبّقها دائماً فإنّ جيفرسون الذي أصدر الأمر بحظر الرقّ في أراضي الشمال، عاش هو نفسُهُ من عرقِ العبيدِ، وجيفرسون الذي أنكر المساواة العرقيَّة هو نفسهُ الذي لا تزال أقوالهُ عن

«المساواة» في الحقوق مدويّةً حتى الآن...).

واللافت وفق النموذج التطبيقي فإنَّ المجتمع الغربيّ الديمقراطيّ بصورةٍ عامّة يعاني بشكلٍ فظيعٍ خاصّة في المواقع الحساسة من مشكلِ ترجمة المعاني الحقوقيَّة دون تمييز ومع أنَّ الزعماء التاريخيِّين يعترفون بحقوقٍ لا تمييز فيها لكنّهم ينكرون ذلك من الجهة العمليَّة ويمارسون أنشطةً تتناقض مع نصوص ومعايير القواعد التي كتبوها بأيديهم...

لقد وصل التمييز مع هذا العرق الأسود إلى ما لا يمكن أن يُتصوّر، في القتل، في القضاء، في ترجمة وجودهِ الاجتماعي.. ومن جرّاء التمييز المتصاعد أراد السود أن يعبّروا عن ثورةِ غضبِهِم أمام عدسات الكاميرا بتاريخ 11 نيسان 2001 بعد مقتل رجل أسود من قبل الشرطة البيضاء التي تتعامل مع السود بنوعٍ من الحدّةِ والقتل، ولا يمرّ أسبوع إلا وتقع فيهِ ضحيّة سوداء جرّاء التمييز العنصري الأمريكي... وقد تحوّلت التظاهرة إلى عنفٍ واسعٍ جُرِحَ فيه عشرات المواطنين السود، في ظلّ مشهدٍ عنيفٍ من قبلِ الشرطة، وأمام عدسات الكاميرا قال أحد المواطنين السود:

لا حقوق لنا في هذا البلد، لا قيمة لنا، يتعاملون معنا كعبيد، يزجّون بنا في السجون، لا وجود لنا إلا في أحقر الوظائف، نشكو أكبر اضطهاد، ما زلنا نعيش هاجس الاستعباد الذي تعامل بهِ البيضُ مع آبائنا.. يحاول الرسميّون تلميع صورة هذا الاتّحاد عبر تعيين عدّة أشخاص سود في مناصب رسميَّة، لكنّ الأمر خلاف ذلك على الأرض وبشكلٍ جذريّ..

ومنذ العام 1980 تصاعدت ظاهرة إطلاق الشرطة الأمريكيَّة النار على السود بخلاف ما يجري بحقّ البيض، بل منذ العام 1995

لم يُقتل أيّ مواطنٍ أبيض من قبل الشرطة بلا سببٍ مبرّر..

ويشكو السود من أزمة تمييز وظيفيَّة اجتماعيَّةٍ نفسيَّة اقتصاديَّة سياسيَّة عنيفة.. مع أنَّ السود هم أكبر فئة عرقيَّة من الأقليات بعدد (33,4 مليون نسمة) أي بزيادة 14,2 في المئة حسب الإحصاء الأخير ويساوون نسبة 12,8 في المئة من إجمالي السكّان إلا أنّهم مع ذلك الأكثر اضطهاداً ولا يستفيدون من النفقات الاجتماعيَّة بمعنى متساوٍ أو قريب من مستوى ما يتمتّع بهِ البيض.. وهم الأكثر في السجون وهم الأكثر عقوبة في المحاكم الأمريكيَّة بشكل تمييزي واضح.. بل في تقريرٍ رسميٍّ سابقٍ جاء فيهِ:

إنّ سبعة في المئة من الأطفال السود لهم أحد الوالدين في السجن، أي تسع مرّات أكثر من الأطفال البيض... في ظلّ اعتراف صريح من أكثر من مركز حقوقي وقضائي بتمييز واضحٍ في إصدار الأحكام مرّة، وفي تحديد العقوبة ومستواها مرَّةً أخرى.. والمكان بطبيعة الحال هو مهد الولايات المتّحدة الأمريكيَّة سيّدة العالم الديمقراطيّ...

ومع أنّ أميركا سجلت في العقد الأخير من القرن العشرين مجموعة متتالية من الأرقام القياسيّة في النموّ والفائض بالموازنة إلا أنّ السود لم يحظوا بنسبة 0,2 ممّا يحظى بهِ البيض قياساً على نفس العدد والمماثلة في الوضعيَّة والمواطنة..

وفي نفس الوقت الذي كان فيهِ السود يعلنون امتعاضهم الشديد من التجاهل الحكومي المزمن في أكثر من مقامٍ وخدمة وتوظيف اجتماعي كان الرئيس الأمريكي بيل كلنتون يعلن مجموعة من أرقامٍ سخيَّةٍ وقياسيَّة بأرقامِ الموازنةِ الأمريكيَّة... ففي تاريخ 30 كانون أوّل 2000 أعلن الرئيس الأمريكيّ بيل كلنتون في واشنطن أنّ الموازنة

الأمريكيَّة للسنة الماليَّة (2001) ستسجّل فائضاً قيمته (256 مليار دولار) أي 28 مليار دولار أكثر من التوقّع السابق.

وأضاف: «إنّ هذا الفائض سيمكّن الحكومة من تسديد (237 مليار دولار) من الدين الداخلي وسداد كلّ الدين العام بحلول 2009 إذا ما خصّص فائض كلّ سنة لذلك ولم تلتزم نفقات إضافيَّة زيادةً على تلك المقرّة أساساً». وأشار إلى أنّ «السنة المقبلة 2002 ستكون رابع سنة على التوالي يُسجّل فيها فائض في الموازنة الأميركيَّة»..! وهذا أمر لم يكن يحدث طوال خمسين عاماً مضت.

وقال كلنتون: «إنّ الولايات المتحدة سدّدت 360 مليار دولار من الدين خلال السنوات الثلاث الماضية 1998 ـ 1999 ـ 2000» وذكر أنّه عندما تسلّم منصبه في العام 1993 كان التوقّع يشير إلى تضخّم الدين إلى 6400 مليار دولار في 2001 إلا أنّ فائض الموازنة المتكرّر سمح بخفض قيمة هذا الدين إلى (3200 مليار دولار) أي 31 من مجمل الناتج الداخليّ في الولايات المتحدة بدلاً من 50 في المئة في العام *1993* إلى درجة أتاح هذا التراجع خفض *166* مليار دولار هذه السنة من خدمة الدين وسمح بخفض نسب الفائدة على المدى الطويل 2 في المئة منذ العام 1993. ومع كلِّ ذلك بقي السود يعيشون أسوأ نسبة من الخدمة الاجتماعيَّة في كافّة مواقع التماس الاجتماعي وضماناتِهِ...

وليت الأمر توقّف هنا ولم يتّصل بواقع أهمّ مؤسسة، كان أصلُ وجودها من أجل حفظ الحقوق وتطبيق القانون في بيئة تدفع نحو الجرم والتمييز العنصري بشكلٍ نامٍ.. أعني بذلك القضاء الأمريكي، حيث وصل التمييز العنصري إلى حدٍّ تحوير المعنى الوظيفي المأخوذ في المفهوم القضائي..

ففي تاريخ 28 نيسان من العام 2000 أفاد تقرير رسمي أنَّ القضاء الأمريكي يميّز في تعاطيه مع القاصرين البيض من جهة والقاصرين من الأقليات الملوَّنة (السود) من جهة ثانية. . .

وقال التقرير الذي موّلته وزارة العدل ووضعه المجلس الوطني للجريمة وهو مهمّ للغاية:

إنَّ القضاء يصدر أحكاماً في حق الشبّان السود والمتحدّرين من أصول أسبانيَّة، أقسى من تلك التي تصدر في حق الشبّان البيض.

وجاء فيهِ:

إنّ المحاكم المتخصصة للشبان القاصرين تصدر أحكاماً بالاعتقال للشبان السود الذين لم يتمّ توقيفهم من قبل هي أقسى من الأحكام الصادرة في حق الشبّان البيض بـ 6 أضعاف وبـ 9 أضعاف إذا تعلّق الأمر بأعمال عنف كما يتعرّض الشبَّان السود المتورطون في قضايا المخدرات إلى 48 احتمالاً بالاعتقال أكثر من الشبّان البيض مرتكبي الجنح نفسها، حسب التقرير. . . وظهر التمييز جليّاً أيضاً في مدّة أحكام السجن الصادرة في حقّهم للجنح نفسها حيث يقدّر معدّلها بحوالي 193 يوماً لشاب أبيض بينما ترتفع إلى 254 يوماً لشاب أسود و 305 للشبان المتحدرين من أميركا اللاتينيَّة. . . !

ومن مظاهر التمييز التاريخي ذي الوقع الشديد على السود هو ما طال الملاكم العالمي مايك تايسون، إن من حيث تلفيق اتهام له، أو من حيث التعامل مع قضيَّتِهِ بشدّةٍ لم يسبق لها مثيل من قبل. . وما زال يصرّ تايسون وفريقهُ ومشجّعوه من السود بل من البيضِ على أنّه أكبر ضحيَّة للتمييز العنصري في أميركا ضدَّ السود خاصَّة بعد أن شهر إسلامهُ. . وبخلافِ ما يُتداول فإنّه لم يكن هناك أدلّة ثبوتيَّة كافية تفيد

أنَّ تايسون قد ارتكب جرم التحرّش الجنسي.. ومع كلّ هذا وصل الحدّ بهِ إلى أقسى عقابٍ ممكن من السجن (3 سنوات والحرمان من رخصة الملاكمة)...

بل في تاريخ 25 حزيران عام 2000 قرأت الصحفُ انتصارات تايسون المتتالية على أنَّها رسالة موجَّهة إلى السلطات القضائيَّة والطبقة السياسيَّة في أميركا من البيض وذلك حين فاز على خصمه الأمريكي «لو يافاريزي» في مباراة اعتبرت هامّة جدّاً لمايك تايسون من أجل خوض بطولة العالم على الوزن الثقيل مع بطل العالم للوزن الثقيل ليبوكس لويس حينها.. كما فاز أيضاً على البطل العالمي الانكليزي جوليوس فرانسيس تاريخ 29 كانون الثاني 2000 مصرّاً على متابعة مسيرتِهِ التي تعرّضت لأخطر ضربة عبر القضاء الأمريكي...

ويعتبر تايسون من أهم الملاكمين الشهيرين وهو سينازل بطل العالم الحالي على أكبر رقم في تاريخ الملاكمةِ (150 مليون دولار) وذلك رغم العقبات الشديدة التي واجهها من سلطات الملاكمة الأمريكيَّة في نيفادا.. من هنا ما زالت كبرى الصحف تصفهُ بأنَّه الضحيّة الأكبر في تاريخ الملاكمة بسبب التمييز العنصري الذي تتبعه الولايات المتحدة مع غير البيض إضافة إلى إشهارِهِ إسلامه. وتعتبره الصحافة رمزاً من رموزِ الملاكمةِ العالميَّة وأنَّه رغم العقبات التي وضعت في وجهه استطاع أن يكسر جماحها بقوّة بعد خروجه من السجن.

وقد خاض مايك تايسون 52 مباراة فاز منها بـ 48 مباراة وفاز بالضربة الفنيَّة القاضية في 42 مباراة وله أرقام عالميَّة لجهة الضربة الفنيَّة... بل في الجولةِ الأهم في مسيرتِهِ التي أهّلته لأن يهيّىء نفسه

للنزال على بطولة العالم ففاز بها بـ 28 ثانية بالضربة القاضية، ثمَّ وجّه صرخة من على الحلبة موجّهة إلى البيض ومجالس القضاء الأمريكي وغيره فقال:

(. . . إنني أعترف بالله وبمحمّد وأنّ إيماني بهما أعطاني القوّة. . أنني أفضل ملاكم في كلّ الأوقات. .).

لا شكّ أنَّ من يقرأ مجموعة من عناوين الملفّ الأسود في أميركا وفي أكثر من قطاعٍ وجهةٍ يدرك معنى الظلم المستفحل في هذا البلد. . فمن المؤسسة المدنيَّة، إلى المؤسسة العسكريَّة، إلى المؤسسة الاقتصاديَّة، إلى مراكز القرار، إلى نتائج الانتخابات في النظام التمثيلي بمجلسيّ النواب والشيوخ. . نجد نسبة السود ضئيلة جدّاً ونادرة، وهي أدلّ شيء على الظلم اللاحقِ بحقِّ هؤلاءِ المواطنين، من هنا فقد درج العرف السياسي في أميركا على أن يلجأ الرئيس الأمريكي المنتخب إلى نظام التعيين، ليعيَّن وجهاً من وجوهِ السود مستشاراً له أو وزيراً في إدارتِهِ، وهي الإدارة التي لها حقّ إعطاء المشورة فقط دون الإلزام، حيث يكون الرئيس كلّ شيء في النظام الدستوري الأمريكي. . ويريد الرئيس من ذلك الدلالة على تنوّع الأمّة الأمريكيَّة، إلا أنّ هذهِ الطريقة تعكس واقع الهامش الخطير الذي يصيب هذا العرق. .

ومن المهمّ الإشارة إلى أنه ما زال يقوم على مدخل مرفأ نيويورك تمثال ضخم، لشخص يحمل مشعل الحرية، كانت فرنسا قد وهبته للشعب الأمريكي سنة 1886 تقديراً منها لمعاني الثورة الأمريكية ضد الاستعمار البريطاني وهو من صنع النحّات الفرنسي الشهير «برتولدي» وقد أرفق هذا التمثال بشعار: الحريّة تنير العالم.

إلا أنّ ممارسة القمع والعنصريَّة بأشكالٍ مختلفةٍ وواسعة أفقد هذا النصب معناه. . مما حدا بالفيلسوف اللبناني أمين الريحاني إلى أن يقف أمام هذا التمثال في مطلع القرن العشرين ثم ينظر إليه بأسف ويقول:

لا تظن أنك رائع في هذه البلاد بظلّ الحرية، وأنك تعيش تحت سماء العدل والمساواة. . . لا فهذه كلها اليوم اسم بلا مسمّى، هذه أمور لا تشعر بعدم وجودها إلا متى طلبتها مضطرّاً. اطلبها إذاً وأنا كفيل بأنك لن تجدها. . .

كما قال الفيلسوف البريطاني برناردشو: يقولون أني كاتب ساخر لكن لم تبلغ بي السخرية حدّ الذهاب إلى الولايات المتحدة ومشاهدة تمثال الحريَّة على بابها.

إنَّ التمييز العنصري الذي تنغمس فيهِ الولايات المتّحدة هو أكبر من أن تحاول السلطات تفسير مظاهرِه على أنّها نتيجة ميدانيَّة أو عمليَّة طارئة، إنّها عميقة بعمقِ المفاهيم التي ترسّخت منذ اليوم الأوّل الذي عمل فيهِ البيض على جمعِ ثروةٍ مخيفة من تجارة الرقيق من أفريقيا وبيعهِم للبيض في هذهِ الأرض ليعملوا في المناجم كعبيدٍ مملوكين.

إنَّ أمثلة التمييز العنصري توسّعت لتشمل حتى اللون الأبيض من الأصل الأسباني بل تجذرت في أكثر من موقعٍ ووظيفة لتلعب دوراً بارزاً في تاريخِ هذا البلد الذي سيكون من آثارهِ المباشرة وغير المباشرة ظاهرة واسعة من الخروجِ على القانون بأشكالٍ مختلفة. . .

نضال مارتن لوثر كينغ اللاّعنفيّ(*)

«ترك مارتن لوثر كينغ بصماته على تاريخ حركة الحقوق المدنية في الولايات المتحدة الأميركية. من أبرز نتائج نضاله اللاّعنفيّ توصله إلى إعلان لاشرعية التمييز العنصري في البلاد».

ولد مارتن لوثر كينغ في أتلانتا، في جورجيا، في 15 كانون الثاني سنة 1929. والدته ألبرتا ويليامز، كانت معلمة قبل الزواج، وهي ابنة أدام دانيال ويليامز، الذي استمر طيلة سبعة عشر عاماً قسّ كنيسة إبنزر المعمدانية، وكان رائداً في مقاومة التمييز العرقي: بصفته عضواً في «الرابطة الوطنية لتقدّم الملوّنين» ناضل من أجل الحصول على مدرسة ثانوية للسود، ونجح في دعوته لمقاطعة جريدة عنصرية. والده، مارتن لوثر كينغ الأب، كان قساً أيضاً، وقد تولّى بدوره مسؤولية الأبرشية منذ عام 1931.

نشأ مارتن لوثر كينغ إذاً في بيئة مريحة وسط عائلة تنتمي إلى

(*) **المرجع**: كريستيان دولورم. مقالة نشرت في كتاب «مارتن لوثر كينغ» منشورات حركة حقوق الناس. ترجمة سميّة عبود. مراجعة وليد صليبي. بيروت. الطبعة الأولى 1999. ص 13 ـ 25.

وهذه المقالة مأخوذة من العدد 26 من مجلة Alternatives non violentes الصادر، في تشرين الثاني 1977.

A.N.V. 16 rue Paul Appell, 42000 Saint-Etienne.

الطبقة المتوسطة. إلى جانب كونه كثير الشغب والانفعال، عرف كينغ طفولة هادئة مشبعة بالأخلاق الإنجيلية. لم يعرف الغيتو أو البؤس، ولا الجرذان والهوام، ولا سائر الصعوبات التي كانت ولا تزال من نصيب عدة ملايين من الأميركيين السود، وأتيحت له كل الفرص لمتابعة تعليمه. والده، وهو ابن عامل في مزرعة، عرف كيف يشق طريقه في المجتمع ويتبوأ منصب مسؤول روحي ويتمتع برفاهية مادية مقبولة؛ فأدرك مارتن لوثر الابن أنه يُفترض فيه تحقيق نجاح مشابه.

وبالفعل كان الشاب لامعاً في سنوات الدراسة. سنة 1944 انتسب إلى كلية مورهاوس في أتلانتا، بنيّة أن يدرس الطب أو المحاماة. على الرغم من رغبة والده وجدّه، لم يفكر في أن يصبح قساً بدوره، ولم يكن يرتاح للانفعال المفرط الذي رآه مهيمناً في الكنائس المخصّصة للسود. لكن المستوى التعليمي لبعض أساتذته الذين كانوا في السلك الكهنوتي أثبت له أن المهنة الدينية قد تكون وافية فكرياً، وانتهى به الأمر في سلوك ذلك الطريق. سنة 1947 تم استدعاؤه إلى كنيسة والده في أتلانتا، وصار قساً مساعداً في تلك الأبرشية.

أثناء متابعته لدراسته في مورهاوس، شارك مارتن لوثر كينغ بفاعلية في «الرابطة الوطنية لتقدم الملونين» (N.A.A.C.P.) وهي منظمة أنشئت سنة 1909. على الرغم من ارتياحه النسبي على الصعيد المادي، كان مهتماً بالتأكيد للأجواء المضطربة التي يعيشها «الزنوج» وأراد مثل والده تغيير أوضاع أبناء أمته. سنة 1948 غادر مورهاوس ومعه إجازة في الآداب إلى «معهد كروزر اللاهوتي في تشستير»، في بنسلفانيا، حيث كان واحداً من ستة من الطلاب السود بين مجموعة من مئة طالب. سنة 1951 نال إجازة في اللاهوت وقرر متابعة أبحاثه

في جامعة بوسطن، إلى جانب متابعته لدروس في الفلسفة في جامعة هارڤارد. منذ 1953 كرّس وقته لإعداد رسالة بعنوان: «مقارنة بين مفهوم الله عند پول تيليش وهنري نيلسون ويمان». حاز مرتبة الدكتوراه في اللاهوت المنهجيّ، في حزيران 1955.

امتلك كينغ ثقافة عميقة، وقد تأثر بعالم اللاّهوت «الاجتماعي» والتر روشنبوش، وكذلك بهنري ـ دايڤيد ثورو وهيغل وتيليش وغاندي. كان يعتبر نفسه «شخصانياً»، ولم يكن لديه أدنى شك أن الكنيسة يجب أن تلعب دوراً فاعلاً في تحقيق العدالة الاجتماعية. وقرأ أيضاً ماركس، وهذا أمر لم يكن يُقبل بسهولة في الولايات المتحدة في تلك المرحلة.

سنة 1952 تعرّف مارتن إلى كوريتا سكوت، المغنية والمتخصّصة في علم التربية. وعقدا قرانهما في 18 حزيران 1953، وفي أيلول 1954 توجها للإقامة في مدينة مونتغمري (ألاباما)، التي يسكنها خمسون ألفاً من السود وثمانون ألفاً من البيض، حيث خَلَف كينغ «قساً صدامياً» في رعاية إحدى الكنائس المعمدانية التي كان معظم أتباعها السود من العائلات المرفّهة والمثقفين.

المقاطعة في مونتغمري

في 17 أيار 1954، أصدرت المحكمة العليا في الولايات المتحدة قراراً نصّ على أنه في مجال التعليم، وهو حق أساسي للإنسان، يُعتبر التمييز العنصري متنافياً مع الدستور. كان القرار بمثابة حدث هام ساهم في فتح ثغرة في جدار الحقد العرقي الراسخ؛ لكن الاندماج كان لا يزال بعيد المنال، خصوصاً في الولايات الجنوبية. رأى كينغ ضرورة لفت انتباه أبناء أبرشيته إلى مشكلات الشعب

الأسود، وحثّهم على معرفة الإفادة من حقوقهم المدنية، لذلك عمد في فترة قصيرة لتشكيل لجنة للعمل الاجتماعي والسياسي، ودعاهم للانضمام إلى «الرابطة الوطنية لتقدّم الملوّنين»، التي ساهمت إلى حد كبير في صدور قرار المحكمة العليا. لكن في الأول من كانون الأول سنة 1955 طرأ حدث حمله على تغيير مهنته.

ففي ذلك اليوم رفضت خيّاطة سوداء في الخمسين من عمرها، تُدعى السيدة روزا باركس، إخلاء مقعدها في حافلة الركاب لرجل أبيض، كما كان ينصّ القانون في ألاباما. تدخلت الشرطة، وألقي القبض على السيدة التي كانت ستودع السجن لولا أن أحد الشهود بادر مباشرة لدفع الكفالة. ثار مارتن لوثر كينغ عندما عرف بالأمر، وقرر مع صديقه القسّ رالف أبرناثي عقد اجتماع في الليلة نفسها في الكنيسة، يضم كلّ المتنفذين في مجتمع مونتغمري الأسود: من قسّيسين ومحامين وأطباء ونقابيين. . . نقابيّ اقترح مقاطعة الحافلات، وبعد المناقشة وافق الحضور. كان على القسيسين إعلان القرار في عظة الأحد؛ وتقرّر توزيع منشور على السود يطلب منهم عدم ركوب الحافلات يوم الاثنين في 5 كانون الأول إن كان للذهاب إلى عملهم أو إلى المدرسة أو إلى وسط المدينة.

صباح الاثنين ساد القلق جميع الأوساط: هل يستقل السود الحافلات أم لا؟ السود لم يستقلّوا الحافلات التي كانت تطوف أرجاء المدينة بالسائقين فقط لأن البيض خافوا من المشاكل وآثروا عدم ركوب الحافلات بدورهم! سيارات الأجرة بالمقابل كانت مكتظة، والشوارع ازدحمت بالدرّاجات والمارة. كان الجميع يمشون؛ حتى الذين كان عليهم اجتياز خمسة عشر أو عشرين كيلومترا للوصول إلى مراكز عملهم. لكنهم مع ذلك كانوا يبتسمون ويصفقون ويتبادلون

الأحاديث. كانوا كجيش من المشاة هبّ دفعة واحدة! حاولت الشرطة توقيف قادة التحرك... لكن من هم القادة؟

في ذلك اليوم صدر حكم بفرض غرامة قيمتها عشرة دولارات على السيدة باركس لمخالفتها قوانين التمييز المحلية. في المساء عقد اجتماع حاشد تحدث فيه مارتن لوثر كينغ بعد عدد من الخطباء، وقال: «نلنا ما فيه الكفاية من الظلم والاضطهاد. كنا صبورين جداً. من عظمة الديموقراطية أنها تعطي الشعب حق الاحتجاج. ونحن سوف نستخدم هذا الحق، لكن دون عنف أو حقد. حبّ الآخر سيكون شعارنا». قاطعه الحضور مرات عديدة بالتصفيق والهتافات؛ وأقر الجميع مواصلة التحرك وتمديد المقاطعة حتى إلغاء التدابير المذلّة التي تفرض على السود في الحافلات. وأعلن عن تأسيس جمعية جديدة باسم: «رابطة تقدم مونتغمري» وعُين كينغ رئيساً لها.

دام التحرك ثلاثمئة وثمانين يوماً! حاول المسؤولون مرات عديدة الضغط على كينغ من أجل وقف المقاطعة. في 26 كانون الثاني 1956 ألقي القبض عليه بحجة تجاوز معدل السرعة أثناء القيادة. بعد أربعة أيام اعتُدي على منزله، وكاد ذلك يؤدي إلى إثارة ردّة فعل عنيفة عند السود لولا تدخل كينغ الذي دعا إلى تحكيم العقل. وفي آذار وجهت إلى القسّ تهمة مخالفة القوانين التي تمنع المقاطعة، وحكم عليه بالسجن مدة مئة وأربعين يوماً وبدفع غرامة قيمتها خمسمئة دولار. جولة النضال هذه رواها كينغ في كتابه (نضال من أجل الحرية) «Combats pour la liberté».

خلال بضعة أشهر كان السود متحدين أكثر من أي وقت مضى، وأخذوا يتعاونون لتأمين النقل المجاني بسيارات الأجرة التي كانت

تقلّ يومياً اثنين وأربعين ألف شخص، أو كانوا يشجعون بعضهم البعض على المشي وعلى أن يكونوا مستعدين لاحتمال أن يسجنوا في أي وقت. شركة الحافلات أو شركة وسائل النقل التي شارفت على الإفلاس قررت أخيراً إلغاء التدابير التمييزية. لكن الجولة لم تنته بهذا النصر فقط: ففي تشرين الثاني 1956 أعلنت المحكمة العليا أن القوانين التي تفرض الأخذ بالتمييز العنصري في وسائل النقل مخالفة للدستور! منذ 21 كانون الأول صار بإمكان السود أن يستقلّوا الحافلات بالصلاحيات نفسها التي يتمتع بها البيض، وذلك حسب نص القانون الرافض للتمييز العنصري. بالنسبة للسود كان الانتصار يوازي السيطرة على الباستيل!

توسّع التحرك

منذ ذلك الوقت صار مارتن لوثر كينغ الزعيم الوطني لحركة المقاومة. في كانون الثاني 1957، اجتمع الزعماء السود من عشر ولايات جنوبية لتشكيل تنظيم سُمّي: «مؤتمر القادة المسيحيين في الجنوب» وانتخبوا كينغ رئيساً له. بدأ المؤتمر نشاطه بالبحث في ممارسة التمييز في وسائل النقل في مدن مختلفة على الرغم من القانون الجديد، وفي كيفية التوصل لإقرار حقّ السود في الانتخاب.

كينغ، الزعيم الأبرز في الحركة السوداء، خاض في 1957 العديد من الحملات، فقطع عشرات الآلاف من الكيلومترات وألقى مئتين وثمانية خطاب.

سموه «موسى الجديد» و «غاندي الجديد». كان في مختلف كلماته يشير باستمرار إلى الدفاع عن الحقوق المدنية؛ وأنه من أجل الحصول على هذه الحقوق يجب على السود أن يبدأوا باحترام

أنفسهم. ونذكر هنا كدليل على شعبية كينغ المتزايدة أن «كواما نكروما» وجّه إليه في آذار 1957 دعوة للمشاركة في الاحتفالات باستقلال غانا.

عند عودته من إفريقيا، كانت المنظمتان المناضلتان: «مؤتمر القادة المسيحيين في الجنوب» (.S.C.L.C) و «الرابطة الوطنية لتقدم الملونين» (.N.A.A.C.P)، قررتا تنظيم مظاهرة في واشنطن في 17 أيار 1957، احتفالاً بالذكرى الثالثة لقرار المحكمة العليا بإلغاء التمييز العنصري في المدارس. احتشد ما بين خمسة وعشرين ألفاً وثلاثين ألفاً من السود وعدد من البيض أمام النصب التذكاري للينكولن، واستمعوا إلى خطباء أكّدوا نهاية التمييز العنصري. وكان كينغ محور الحفاوة والحماسة. بعد حوالى شهر استقبله نائب الرئيس نيكسون، مع رالف أبدناثي. وفي 23 حزيران استقبله الرئيس أيزنهور. ولم يحصل في المناسبتين إلاّ على وعود مبهمة بإصدار قانون يعطي السود حقّ الانتخاب، لكن دون أي احتمال للتطبيق المباشر. أسلوب كينغ كان حازماً ومتطلباً.

في أيلول 1958، في الشهر الذي صدر فيه كتابه «نضال من أجل الحرية»، قام بعض أفراد الشرطة بإهانة كينغ ومعاملته بشراسة وإلقاء القبض عليه. لكن مجهولاً دفع عنه الكفالة فأطلق سراحه في الحال. وبعد فترة عمدت امرأة سوداء، حمستها حملات التشنيع التي تعرض لها القس والتي استهدفت إقناع الناس بأنه شيوعي، إلى طعنه بمقطع ورق حاد في صدره. توقف رأس المقطع عند الشريان الأورطي، ونجا كينغ من الموت بأعجوبة. خلال فترة النقاهة تلقى دعوة من نيهرو فتوجه إلى الهند مع زوجته ليتبع خطى غاندي.

ظلّ التقدم نحو المساواة العرقية بطيئاً جداً، خصوصاً في جنوب الولايات المتحدة. في كل مكان تقريباً كانوا يكتفون ببعض الإجراءات الرمزية، كإدخال عدة طلاب من السود إلى مدرسة كبيرة وإعلانها مدرسة موحدة. انطلاقاً من هذا الواقع كاد السود يفقدون قدرتهم على التحمّل، وبدءاً من 1959 بدأ تحرك السود المسلمين، الذين رفضوا أسلوب كينغ في التوجّه إلى ضمير الأميركيين البيض، وآثروا العنف، وذلك بقيادة إليجا محمد وبشكل خاص مالكولم إكس، الشخصية البارزة في أميركا السوداء، ونجحوا في جمع حشد كبير من المؤيدين خصوصاً في أحياء الغيتو السوداء في المدن الكبرى الشمالية.

غادرت عائلة كينغ مونتغمري إلى أتلانتا في أواخر سنة 1959، لأن مارتن لوثر لم يعد يستطيع القيام بمهامه الرعوية بعد تولّيه مسؤولية قيادة: «مؤتمر القادة المسيحيين في الجنوب» (S.C.L.C.).

«اعتصامات» و «رحلات الحرية»

كانت مونتغمري المرحلة الأولى في الثورة السوداء. وفي غرينزبورو بدأت المرحلة الثانية. في تلك المدينة في ولاية كارولينا الشمالية، وهي من الولايات الأكثر تعصباً للتمييز العرقي في أميركا، دخل أربعة من الطلاب السود، في الأول من شباط سنة 1960، إلى مطعم مخصّص للبيض، ورفضوا مغادرته. إحدى المحطات الإذاعية بثت النبأ، وبعد فترة بادر عشرات الطلاب لدعم موقف رفاقهم: وبدأت الاعتصامات كأنها وسيلة للتعبئة الجماهيرية.

توسّع التحرك ليشمل أكثر من مئة بلدة وسبعين ألف معترض. كان المشاركون يلتزمون الصمت عند تعرّضهم للإهانة، ولم يردّوا

الضربات حين كانوا يضربون، حتى الفتيات السوداوات لم يخرجن عن هدوئهن عندما عمد بعض الشبان البيض إلى شدّ شعورهن أو إطفاء السجائر المشتعلة على رقابهن. الكل كان يصلّي ويتحمّل ما يحدث بوقار. قامت الشرطة باعتقال المئات. لم يكن مارتن لوثر كينغ مسؤولاً بشكل مباشر عن بدء التحرك، لكنه أخذ ينتقل من موقع إلى آخر تعبيراً عن دعمه للمقاومين، ورغبته في المشاركة في مظاهراتهم ومواجهة احتمال التوقيف معهم. شرح كينغ موقفه قائلاً: «لكي يكون للمقاومة اللاّعنفية معنى يجب أن توجّه نحو المصالحة. هدفنا الأخير هو خلق مجتمع الحب الأخوي. إن طرائق اللاعنف إذا لم تكن محاطة بروحية اللاعنف قد تكتسب شكلاً عنفياً». هذا الأسلوب من النضال ضد التمييز العنصري ساهم بتحقيق اندماجية متسارعة في المطاعم، وعلى الشواطىء، وفي أحواض السباحة، والمكتبات والكنائس. . .

سنة 1960 قام شبان من «مؤتمر القادة المسيحيين في الجنوب» بتشكيل تكتّل مميز أطلقوا عليه اسم «لجنة الطلاب اللاّعنفيين» (S.N.C.C. أو Snick)؛ هذا التكتّل الذي تأثر بنحو خاص بتوجيهات ستوكلي كارمايكل، غيّر نهجه بعد حوالى خمس أو ست سنوات وابتعد عن سبيل اللاعنف. وفي تلك السنة أيضاً وجِّهت إلى كينغ تهمة التهرب من دفع الضريبة، وقد ثبتت براءته منها لكن القضية مع ذلك تركت أثراً كبيراً في نفسه. وازداد إصرار الزعيم على الدعوة إلى اللاّعنف وحبّ الآخر؛ وصارت تلك الدعوة المحور الأساسي لخطبه التي نشر معظمها في مؤلفه «قوة المحبّة» (La force d'aimer).

قبل موعد الانتخابات الرئاسية بشهر واحد، أي في تشرين الأول 1960، كان كينغ لا يزال مسجوناً. طرح أصدقاؤه الأمر على

المرشحين. نيكسون، المرشح الجمهوري، رفض تقديم العون. لكن جون ف. كنيدي، المرشح الديموقراطي، أبدى اهتمامه واتصل هاتفياً بكوريتا كينغ، كما حاول أخوه روبرت التوسط لدى القاضي الذي أمر بسجن كينغ. لأجل ذلك أيّد كثيرون من السود المرشح كنيدي، حتى قيل إن اتصالين هاتفيين أعطياه الأغلبية الهزيلة التي حققت له الفوز!

في أيار 1961، بدأ ثلاثة عشر عضواً في منظمة جديدة تدعى «مؤتمر المساواة العرقية» (C.O.R.E.) نمطاً مختلفاً من العمل. كانوا ستة من البيض وسبعة من السود وأعلنوا عن القيام برحلة في حافلة إلى عدة مناطق جنوبية احتجاجاً على استمرار التمييز العنصري، وقد أطلق عليهم اسم «مسافرو الحرية». دامت الرحلة خمسة وعشرين يوماً. أثناء ذلك جرت سلسلة اعتداءات وحوادث شغب افتعلها مؤيدو التمييز العنصري، ولم تحاول الشرطة ردعهم: ضُرب مسافرون، وأحرقت حافلات. حمّل مارتن لوثر كينغ حاكم ألاباما مسؤولية ما حدث، وقال: «قد يكون القانون عاجزاً عن حمل شخص آخر على محبتي، لكنه يستطيع منعه من إيذائي»، لكن التحرك نجح في تحقيق هدفه: في 22 أيار 1961، أعلنت لجنة التجارة ما بين الولايات حظر كافة أشكال التمييز العنصري في وسائل النقل على الطرقات ما بين الولايات.

واستمر النضال. في مدينة ألباني، في جورجيا، كان الطلاب السود في حالة جيشان منذ ربيع 1961. شوارع المدينة شهدت مظاهرات كبيرة ضد التمييز العنصري، كانت تنتهي بتوقيف المئات. إحدى شركات الحافلات التي قاطعها السود أعلنت إفلاسها، لكن مجلس المدينة البلدي رفض التنازل عن موقفه. قرر كينغ المشاركة في المعركة. في 16 كانون الأول 1961، ألقي القبض عليه بتهمة «عرقلة

المرور والمشاركة في مظاهرة غير مرخصة». أطلق سراحه بعد يومين، ثم اعتقل مجدداً في 10 تموز 1962 وأطلق سراحه في 12 تموز لأن مجهولاً دفع الغرامة التي فرضت عليه. في 27 تموز ألقي القبض عليه للمرة الثالثة «لعرقلة السير والإخلال بالنظام العام» وذلك أثناء سهرة صلاة عقدت في دار البلدية. في السجن الذي لم يخرج منه هذه المرة قبل 10 آب، كتب كينغ: «يتقاضى العمال السود أقل من الحدّ الأدنى للأجور الذي تفرضها الحكومة الفيدرالية، ما عدا أولئك الذين يعملون في المؤسسات العسكرية. الاستعباد الاقتصادي، هو هدف هذا النوع من التمييز العرقي».

مع استمرار رفض السلطات للتنازل، بدأ الشبان السود بالردّ على اعتداءات الشرطة بإلقاء الحجارة والزجاجات الفارغة. هل اشتعلت نيران الفتنة في ألباني؟ خاف كينغ... وقرر توقيف المظاهرات وغادر المدينة. إنها المرة الأولى التي يُهزم فيها. أصيب الأميركيون السود بالذهول، وساد الاعتقاد لوهلة أنها نهاية اللاّعنف.

أولاد برمنغهام

أدرك القسّ الحدود الإنسانية التي تفرضها كثافة الناس على أحلامه، إلا أنه لم يعلن هزيمته. استغرق في التأمّل واستعاد قواه، وفي 16 تشرين الأول 1962، استقبله الرئيس كنيدي في البيت الأبيض حيث ألقى خطاباً كان له وقع كالصاعقة قال فيه: «عقارب ساعة التاريخ توشك أن تعلن منتصف الليل. يجب على الرئيس أن يقرّ بأن التمييز العنصري في المجالات العامة غير قانوني. يجب أن يطلق إعلاناً ثانياً للتحرير». كان قريباً موعد الاحتفال بالذكرى المئوية الأولى للإعلان الذي أطلقه لينكولن أثناء حرب الانفصال، والذي قرر

فيه تحرير عبيد الولايات المتحدة الذين بلغ عددهم ثلاثة ملايين ومئة وعشرون ألفاً؛ وذلك بدءاً من الأول من كانون الثاني سنة 1863. كنيدي تجنّب بلطف وحذر الخوض في المشكلة. عندما خرج مارتن لوثر كينغ من مكتب الرئيس أدرك أنه لا بد من النزول إلى الشارع ثانية.

أقرّ كينغ ومؤيدوه مبدأ التحرك المباشر، واختاروا برمنغهام مسرحاً للعمليات. كانت الفكرة المسيطرة أنه يجب خلق أزمة، وإحداث خلل في النظام العام بالمظاهرات المتزايدة، كي يمتلكوا أوراقاً يستطيعون بواسطتها خوض المفاوضات. استمر الإعداد للتحرك بضعة أشهر. جاب كينغ البلدات المجاورة، وسمح بتسرب بعض الأخبار كي يكون الناس على أهبة الاستعداد. وأخيراً، في 3 نيسان 1963 طلب كينغ في إحدى المظاهرات من المواطنين في برمنغهام تشكيل «تجمع محبّة» وأن ينضم جميع السود والبيض إلى مواكب الناشطين اللاعنفيين التي ستجوب المدينة. للأسف تبنّى البيض موقفاً حذِراً، وتردّد السود في خوض جولة جديدة بعد فشل تجربة ألباني. الأيام الأولى من نيسان شهدت بعض المناوشات. في 7 نيسان حدثت مجابهات بين الشرطة والمتظاهرين. مسؤول الأمن المحلي، أوجين «بول» كونور لا يتردّد في اللجوء إلى أشد أنواع القوة. يوم جمعة الآلام انطلق مارتن لوثر كينغ مع رالف أبرناثي وحوالى أربعين رجلاً أسود في موكب جنائزي نحو وسط المدينة. عند مرور الموكب كان البعض يركعون ويهتف آخرون «الحرية وصلت إلى برمنغهام!». طوّق رجال كونور الموكب الصغير. ألقي كينغ بشكل سري بعد توقيفه في زنزانة معتمة لمدة أربعة أيام. ثمانية من الكهنة البيض كتبوا إليه يعبرون عن استنكارهم لتصرفاته، وردّ كينغ عليهم في رسالته الشهيرة

«رسالة من سجن برمنغهام»، وجاء في ردّه: «أنتم تلوموننا لأننا خالفنا القوانين. إنني مثل القديس أوغسطين أعتبر أن القانون الظالم ليس قانوناً. تذكروا أن رفاق دانيال رفضوا الامتثال لقوانين نبوخذ نصّر، وأن مساعدة اليهود في ألمانيا الخاضعة لحكم هتلر كانت خروجاً على القانون».

أطلق سراح كينغ بكفالة ليستأنف قيادة التحرك الذي كان آخذاً في الاتساع. كانت مسؤولية كينغ جسيمة. بضعة آلاف من الطلاب السود أبدوا استعدادهم لتفعيل نشاطهم. كانوا متحمسين ولا ينتظرون سوى إشارة كي ينطلقوا في مواجهة رجال الشرطة. لكن هذا يعني سقوط جرحى وربما قتلى. الكلاب البوليسية والهراوات وقاذفات اللهب كانت وسائل قمع معروفة بما تحدثه من أذى. هل يجرؤ مارتن لوثر كينغ على إعلان تضحية كبرى؟ يوم الخميس في 2 أيار نزل الأولاد إلى الشوارع بالمئات وهم يغنون ويمشون بخطوات موقّعة نحو وسط المدينة. ألقى رجال الشرطة القبض على حوالى ألف منهم، ثم هاجموا المتظاهرين بالقاذفات والكلاب. لم يسبق لأحد رؤية مثل تلك الكلاب الضخمة وهي تنهش بشهية أجسام الأولاد الصغار. لم يصدق المصورون ما رأوه. حملت الصحف وشبكات التلفزيون صورة ما حدث إلى أميركا كلها. تصاعدت من كل مكان أصوات الاستنكار مطالبة بممارسة ضغوطات على سلطات برمنغهام. في 10 أيار وُقِّع اتفاق ينص على وضع حد للتمييز العنصري في الأماكن العامة، ويسمح بتوظيف السود في المؤسسات، والعفو عن المساجين، وتشكيل لجنة متعادلة التمثيل من أجل العلاقات الإنسانية. لم ينجح أوجين كونور في انتخابات المجلس البلدي: تلك كانت نهاية نفوذه. وقد روى كينغ هذه التجربة النضالية في كتابه «ثورة لا عنفية».

«لديّ حلم»

في اليوم التالي، ورداً على هذا الانتصار الجديد، قام بعض المتطرفين البيض بإلقاء عدة قنابل في أماكن متفرقة من المدينة أثناء الليل (اشتعلت النيران في السيارات والمخازن). هدأت الحالة عند الفجر، لكنها كانت مؤشراً لوجود حالة الفتنة التي لا تحتاج إلى الكثير حتى تشتعل. كان يُخشى من تجاوز الناس لكينغ، مع أنهم بعد انتصار برمنغهام كانوا يحتشدون ويهتفون ويصغون إلى خطبه في لوس أنجلوس كما في شيكاغو؛ وفي مسيرتي الحرية اللتين ترأسهما، في ديترويت وواشنطن، بلغ عدد المتظاهرين في المسيرة الأولى مئة وخمسة وعشرين ألفاً وفي الثانية مئتين وخمسين ألفاً.

في 11 حزيران 1963، هبّ كنيدي أخيراً لنجدة كينغ: «مضت مئة سنة على تحرير الرئيس لينكولن للعبيد، ومع ذلك فإن أحفادهم... لم يتحرروا بعد من سلاسل الظلم. نحن نبشّر بالحرية في العالم ونحن مخلصون في ذلك... هل نريد أن تكون بلادنا وطناً للرجال الأحرار ما عدا السود؛ وأنه ليس لدينا مواطنون من الدرجة الثانية إلاّ السود؟». مارتن لوثر كينغ وصل إلى ذروة المجد. أعلنت الغالبية العظمى من السود ثقتها به، وشاركها البيض في ذلك. كان في الرابعة والثلاثين فقط وريح التاريخ تعصف من حوله.

قرر «مؤتمر القادة المسيحيين في الجنوب» (S.C.L.C.) إحياء الذكرى المئوية الأولى لإلغاء العبودية، بتنظيم مسيرة في 28 آب 1963 تتوقف أمام النصب التذكاري للينكولن في واشنطن. شارك في المسيرة مئتان وخمسون ألفاً منهم ستون ألفاً من البيض. في تلك المناسبة ألقى كينغ خطابه الشهير: «لديّ حلم».

وصفت زوجته كوريتا تلك اللحظة التي استحوذ فيها زعيم الحقوق المدنية على أسلوب ووهج التبشير المعمداني بقولها:

«عندما وصل إلى المقطع الذي يؤكد فيه على المطالبة بالحرية «الآن»، والعمل «الآن»، انتقل إيقاع الكلام إلى الحشد الغفير الذي بدأ يهتف «الآن» بوقع منتظم. تجاوب الناس أحدث في نفس مارتن موجة من الانفعال حملته نحو ذرى جديدة من الوحي. تخلّى عن الخطاب المدون، ونسي حدود الوقت، وتابع خطبته بحمية وبصوت حماسي رائع تجاوز الحشد الهائل إلى العالم بأسره، كان لدينا جميعاً إحساس في ذلك اليوم أن كلمات مارتن مستوحاة من الأعلى لتغمر الناس الذين تجمعوا أمامه. أجل، السماء نفسها فتحت أبوابها، وشعرنا جميعاً بأننا تغيرنا».

بعد بضعة أيام ألقيت قنبلة على كنيسة معمدانية في برمنغهام تسببت بمقتل أربع فتيات صغيرات وجرح واحد وعشرين من الحضور. بعد بضعة أشهر، في 22 تشرين الثاني، قُتل جون كنيدي. أين أصبح حلم مارتن لوثر كينغ؟ مجلة «تايم» أعلنت أنه «رجل سنة 1963»، تلك السنة التي شهدت تسعمئة وثلاثين مظاهرة في مئة وخمسين مدينة على الأقل في الجنوب، وسجل فيها خمسة وثلاثون انفجاراً؛ وخلال تلك السنة أيضاً كان كينغ بين حوالى واحد وعشرين ألفاً من الذين أوقفوا في الولايات الجنوبية، وفي الوقت نفسه أُحرز بعض التقدم على صعيد الاندماج وحقوق الناخبين، وتابعت لجان متعادلة التمثيل المناقشات في أكثر من مئة موقع.

جائزة نوبل للسلام سنة 1964

هل ضاعت مع موت كنيدي آمال الأميركيين السود؟ لحسن

الحظ واصل ليندون ب. جونسون جهود الرئيس السابق، وفي 2 تموز 1964، أُقرّ قانون جديد للحقوق المدنية. انتقد نصّ القانون عدم مشاركة السود في الحياة السياسية، ومَنَعَ التمييز العنصري في الأماكن العامة، وألغى منذ صدوره تجاوزات الوزارة الفيدرالية وكذلك المجالس التشريعية المحلية، وأعلن عن تشكيل لجنة لمتابعة حالات التمييز العنصري في مجالات العمل المختلفة. لم يخض أي قانون قبله في المساواة العرقية إلى هذا الحدّ. لكن السود كانوا في تلك الأثناء يثيرون الفتن في كل مكان تقريباً: في نيويورك، وجيرسي، وديكسمور، وفيلادلفيا... شبان أحياء الغيتو في المدن الكبرى في الولايات الشمالية بدوا كأنهم تجاوزوا حدّ اليأس. لم يكن عندهم ماضٍ يستندون إليه ولا مستقبل يتطلعون نحوه: تركوا أنفسهم ينقادون للعنف الأعمى.

في أيلول 1964، زار كينغ برلين تلبية لدعوة من ويلي برانت، والتقى أيضاً بالبابا بولس السادس. عند عودته أعلن تأييده للمرشّح جونسون في الانتخابات الرئاسية... وعرف أنه فاز بجائزة نوبل للسلام، وأنه سيتسلم الجائزة في أوسلو في 10 كانون الأول 1964.

مارتن لوثر كينغ الذي كان رمزاً لثورة السود في جنوب الولايات المتحدة، صار بواسطة جائزة نوبل رمزاً عالمياً لتلك الثورة، ورمزاً للنضال من أجل العدالة بوسائل لاعنفية. لكن شهرته التي وصلت إلى سائر أنحاء العالم... كانت تموت على عتبات بيوت الأحياء البائسة في مدن الشمال، التي كان سكانها مأخوذين بحلم آخر حلم «السلطة السوداء»، حلم العيش في أميركا خالية من البيض.

كان العمال السود يقصدون المدن الصناعية في الشمال والشرق

هاربين من الجنوب وراغبين في العمل في ظروف حياتية أكثر إنسانية؛ وراحوا يتكدسون في أحياء تحولت الحياة فيها بسرعة إلى جحيم. كان مستوى التعليم والتدريب المهني متواضعاً؛ ونسبة البطالة مرتفعة، والموارد متدنية؛ وأسلوب الإعانة في أسوأ حالاته؛ والظروف الصحية بائسة؛ والكثافة السكانية عالية، كل هذا أدّى إلى تفكك الحياة العائلية وتدهورها... وفي النهاية ماذا يوجد أمام الناس غير الثورة؟ وماذا يوجد أمامهم غير الحقد على البيض، مع أن الشمال، على خلاف الجنوب، لم يعرف قوانين التمييز العنصري؟

في آذار 1965 أحرز مارتن لوثر كينغ الانتصار الأخير في المسيرة من سيلما إلى مونتغمري للتفاوض مع حاكم ألاباما، والاس، الذي رفض التخلي عن سياسته العنصرية على الرغم من التوجيهات الحكومية. كان لا بد من التحرك الاحتجاجي الذي بدأ بمسيرة أولى تعرّض لها أفراد الشرطة المحلية بقسوة، وتسبب ذلك بإصابة ستين متظاهراً بجروح مختلفة. إثر ذلك وجّه مارتن لوثر كينغ نداء إلى كل أنصار الحقوق المدنية للمشاركة في مظاهرة جماهيرية هذه المرة. في 21 آذار توجّه إلى مونتغمري خمسة وثلاثون ألفاً من «الحجاج»! وكان كينغ قد اقترح مقاطعة منتوجات ألاباما على الصعيد الوطني لكن اقتراحه لم ينجح. وهناك ما هو أسوأ من ذلك بات واضحاً أن الشبان السود بدأوا يشكون بإمكانيات النشاط اللاعنفي، وكان يتزايد باستمرار عدد الذين يفضلون الردّ العنيف على الظلم، ويدعون إلى تكريس «السلطة السوداء». في الوقت الذي كان فيه اللاعنف يسمح بفرض بعض الإصلاحات، كانت الظروف تزداد سوءاً في الشمال، والبؤس الاقتصادي ساهم بنبذ السود أكثر مما فعلته القوانين العنصرية. لم يكن كينغ يعرف حقيقة أوضاع الغيتو في الشمال، ووجد نفسه فجأة

في مواجهة أميركا سوداء أفلتت منه وتكاد تغرق في عالم الإجرام. وبات كينغ يبدو وكأنّه «أخلاقيّ بورجوازي»، أو «العمّ توم» الذي تديره وتستخدمه السلطة البيضاء؛ وفي السنوات القليلة التالية عمّت نيران الفتنة مختلف أرجاء أميركا. . .

الراديكالية... والموت

كان مارتن لوثر كينغ يعرف أن آمالاً كبيرة ألقيت على عاتقه، ولم يشأ أن يخيّبها. أخذ يتردّد على أحياء الغيتو على الرغم من أنه لاحظ تراجع اهتمامهم بما يقول. واكتشف تدريجياً أيضاً أن المشكلة ليست فقط في القلوب والمؤسسات، بل في الخيارات السياسية. كان حتى ذلك الحين يؤمن «بالنظام» الأميركي: لكنه قرر البدء بانتقاده. النظام كله مطبوع بالعنصرية؛ عنصرية حاذقة ويومية.

سنة 1966، قرر مارتن وكوريتا كينغ الانتقال للإقامة في حيّ من أحياء السود في شيكاغو. وحذا كينغ حذو دانيلو دولسي في صقلية، فجمع العاطلين عن العمل من أجل ترميم الأبنية الخالية من السكان. قام المالك بملاحقته قضائياً لذلك. نسّق كينغ مع المستأجرين المستغَلّين للامتناع عن دفع الإيجارات. ثار غضب الطبقات العليا لأن تحرك كينغ طال قدسية الملكيّة! وضاعف الاستياء منه عندما اقترح على حاكم المدينة اتخاذ خطوات وصفت بأنها اشتراكية: تشييد تجمعات سكنية في أماكن مختلفة من المدينة، وتحسين مستوى وسائل النقل العام، ومضاعفة ميزانية المدارس التي طبقت الاندماج فعلياً. . . وتوجّه إلى الحكومة الفيدرالية مطالباً بتأمين الحدّ الأدنى للمدخول الفردي، ووضع قوانين لإلغاء التمييز العنصري في بيع المنازل وتأجيرها، وزيادة المساعدات المالية في مجال

التعليم، وتوفير الخدمات الصحية والاجتماعية... أراد من الجمهورية أن تعطي عبيدها القدامى ما أعطته لمحاربيها القدامى. لكن كل هذه المبادرات لم تأتِ بنتيجة تذكر.

كان الناشطون في «السلطة السوداء» يرفضون التعاون مع كينغ في البداية. لكن كينغ واصل جهوده لحثهم على ذلك على الرغم من الاختلافات بينهما، ونجحت مساعيه أخيراً. تباهى كينغ معهم بالطاقة الخلاقة «للأسود» ووزعت آلاف الملصقات التي تحمل شعار «الأسود جميل». وفي 4 نيسان 1967 أطلق كينغ حملة لإعلان «بيان استقلال» يتعلق بحرب ڤييتنام، مؤكداً أن تلك الحرب تمنع القيام بجهود حقيقية لمحاربة البؤس في الولايات المتحدة وفي العالم كله، وأنها بالدرجة الأولى عمل إجرامي.

خلال صيف 1967 توجه مارتن لوثر كينغ مجدداً إلى كليڤلاند ليقدم الدعم لكارل ستوكس، وهو أسود ترشح لانتخابات المجلس البلدي. لكن هذا الأخير خاف من خسارة بعض أصوات الناخبين البيض... فرفض لقاء كينغ. وفاز ستوكس في الانتخابات.

كانت نيران الفتنة لا تزال مشتعلة في تلك الأثناء. اقترح القسّ تبني طرائق لاعنفية للاحتجاج: «تعطيل العمل في مدينة دون اللجوء إلى التخريب أكثر فاعلية من الفتنة. هذا يجبر الإدارة والبرلمان على البحث عن حلول أكثر جذرية من تدابير الشرطة». لم يؤخذ برأيه. لم يفقد مارتن لوثر كينغ الأمل، وكان في ذلك الوقت مسجوناً مع عدد من القادة في برمنغهام، فبدأ يعدّ معهم لـ «مسيرة الفقراء» التي ستنطلق من مختلف أنحاء البلاد إلى واشنطن، وذلك في ربيع 1968. كان إيمانه باللاّعنف مطلقاً: «في عالم تخلّف فكرياً وثقافياً إلى هذا الحدّ

عن قدرته التكنولوجية، لدرجة أننا نعيش كل يوم على حافة التدمير النووي، لم يعد اللاّعنف مجرد خيار على صعيد التحليل الذهني: إنه ضرورة من أجل العمل»، وتعبيراً عن توجهه الراديكالي ألقى كينغ في نيويورك خطاباً في ذكرى و.س.ب. دوبوا، وهو أميركي أسود بارز، صار شيوعياً ومات في غانا التي اختارها منفى له. في 31 آذار 1968، قال في كلمة ألقاها في الكاتدرائية الأنكليكانية في واشنطن: «لقد حرروا السود، لكنهم لم يعطوهم ما يستطيعون به دفع أجرة الحافلة التي تقلهم إلى بيوتهم».

أثناء الإعداد لمسيرة الفقراء، شارك كينغ في مظاهرات لعمال تنظيفات مضربين في ممفيس (تنيسّي). كان أولئك، ومعظمهم من السود، قد أعلنوا الإضراب منذ ثمانية أسابيع تخلّلتها حوادث عنيفة: وفاة شاب متأثراً بجراحه نتيجة اعتداءات رجال الشرطة، واعتقال العشرات. لم يعد قادة التحرك يعرفون ما إذا كان من الأفضل إعلان حلّ الإضراب أم الاستمرار. وصل كينغ كي يقف بجانب العمال الذين كانوا في وضع حرج. وفي مساء الثالث من نيسان تحدث في المعبد الماسوني في المدينة فقال: «أنا مثل كل الناس أحب أن أعيش لفترة طويلة، العمر المديد أمر مرغوب. لكنني لا أفكر في ذلك الآن. إنني أريد فقط تنفيذ أمر الله. هو أتاح لي الصعود إلى قمة الجبل؛ من هناك رأيت «الأرض الموعودة»(. . .) رأت عيناي مجد مجيء الرب».

بعد ظهر اليوم التالي كان كينغ واقفاً على شرفة غرفته في الفندق. تحدث مع صديق يمر على الرصيف: «في لقاء الليلة ستعزف بالتأكيد «ربي خذ بيدي». إعزفها لأجلي». في تلك اللحظة سمع صوت إطلاق نار. أصيب كينغ في عنقه، وفارق الحياة بعد ساعة.

كيف نستطيع اليوم تقييم عمل مارتن لوثر كينغ؟ كانت النتيجة الرئيسية لنضاله واضحة على المستوى التشريعيّ: صار السود قادرين على الرجوع إلى القوانين الفيدرالية، ولم يعد التمييز العنصري شرعياً في أي مكان في الولايات المتحدة. خلال أكثر من عشر سنوات كان المجتمع الأميركي الأسود يتحرك انطلاقاً من استراتيجية واحدة؛ وهذا جعل منه تكتلاً قادرا على إمساك زمام أمره بنفسه كما لم يحدث من قبل. صحيح أن كينغ عانى في السنوات الأخيرة من حياته بسبب تخلّي جزء من شعبه عنه، لكن ذلك يعود لتأخره في وضع تحليل سياسي للمجتمع الأميركي، ولأنه لم يدرك مبكراً حقيقة أوضاع الغيتو في الشمال. والواقع أنه مع حلول سنة 1967، ومع حرب ڤييتنام، بدأ يدرك أن «حلمه» لا ينسجم مع مجتمع جون كنيدي أو ليندون جونسون. إن النصوص التي نشرها في «إلى أين نذهب؟» و «الثورة الوحيدة» تشهد على تحوّله. لكن، من ناحية أولى، ليس أكيداً أن مارتن لوثر كينغ «المُسيَّس» كان يدرك ما كان بوسع مارتن لوثر كينغ عمله ما بين 1955 و1964 بما كان لديه من قدرة على استمالة الجماهير بسحره وخطبه الدينية. ومن ناحية ثانية، من استطاع أن يكون أفضل منه؟ منظمة «السلطة السوداء» بعد انطلاقة مدوية توجهت تدريجياً نحو الصمت، ومنظمة «النمور السود» فضلت بدورها النشاط الاجتماعي على خوض نزاع مسلح مستحيل. . .

ساهم كينغ في إنهاض الأمة السوداء ودفعها للنزول إلى الشارع لتخوض معركتها المحقّة. وقد أظهر دائماً أن اللاّعنف الفاعل يستطيع أن ينتصر.

تمرّد العبيد(*)

دراسة لمسألة السود والعنصرية في الولايات المتحدة انطلاقاً من دوامة الستينات، وذلك من خلال ثلاث نقاط:

1) مسألة السود وفظاعة الوضع الأميركي.

2) المحظور في مسألة العبودية.

3) مسألة الاسم

I

في مكتبة واشنطن العامة، الرحبة والمريحة، والتي تحمل اسم مارتن لوثر كينغ، يوجد رسم جداري ضخم ملون يمتد على طول حائط المدخل. يستعيد هذا الرسم - على طريقة المجلات المصورة - أهم الأحداث التي عاشها قسّ أتلانتا وهي غالباً مرتبطة بالمراحل الحاسمة التي شهدتها حركة النضال من أجل الحقوق المدنية. حدث واحد لا يظهر في الرسم: موته. بعد ظهر الرابع من نيسان عام 1968 قتل هذا القس المناضل الذي كان في ممفيس لدعم إضراب

(*) المرجع: كتاب «مارتن لوثر كينغ». حركة حقوق الناس. ص 157. (مقالة للكاتب والصحافي جورج باغيه).

نقابي. موته الدامي جعل القائد شهيداً. موته الاستشهادي سلّط على حياته ضوءاً تراجيدياً عظيماً، ويُستغرب تغييب هذا الموت الاستشهادي عن الرسم الجداري الذي يدّعي تكريم كينغ وتخليده.

هذا غريب؟ ليس تماماً. لأن أميركا منذ تأسيسها ترفض كل ما هو تراجيدي باعتبار أنه ينتمي إلى أوروبا القديمة، حيث تعلمنا بالفعل كيفية التماشي معه من «إشيل» إلى «نيتشه». ينتمي التراجيدي في أوروبا إلى الحكايات الفردية والجماعية، بينما العالم الجديد يعتبر أنه تركه وراءه مع الشياطين في القارة القديمة. من هذا المنطلق، وبعد أن تُغسل دماء مارتن لوثر كينغ ويُرفع عنه عنف الاستشهاد، يصبح بطلاً أميركياً كما تراه الأسطورة.

ولا يزال كذلك بما أن اليوم المخصّص لعيده (الوطني) هو يوم ميلاده وليس يوم موته، كما هو الحال عندنا بالنسبة للشهداء المسيحيين والعلمانيين. وهكذا تفضّل الولايات المتحدة، كمجتمع متديّن، البداية على النهاية، مع العلم أنّ البداية ليست إلاّ حالة انتظار للمعنى بينما تضيء النهاية مسيرة الحياة. عدم رؤية الموت أو رفضه، موقف أميركي منسجم مع رفض التراجيدي. ومن هذا المنطلق يتكرّس التفاؤل الحتمي الأميركي المجسّد في عبارة «إبتسم دائماً» (Keep smiling) وفي النهاية السعيدة (Happy end).

ولكن على الرغم من طرد التراجيدي من المخيلة الأميركية فقد قلب التراجيدي حياة وتاريخ الولايات المتحدة. فهل كانت كنائس السود ستعترف بمارتن لوثر كينغ كقديس، أو سيعتبر قدوة تتخطى الولايات المتحدة لولا استشهاده؟ لا، على الأرجح... الفوز بجائزة نوبل للسلام لا يعطي الحق بالقداسة ولا حتى الحق بالمثالية. هذا

القديس الأسود، كان بدون أيّ شك شخصية تراجيدية، حتى لو أنّ أميركا لا تراه على هذه الصورة. يبدو الأمر وكأنّ أحفاد العبيد ما زالوا يرفضون قوانين أميركا الرسمية. فإن السود هم الذين تسببوا بالتراجيدي مرتين على الأقل في التاريخ الأميركي. حدث ذلك عبر السود وانطلاقاً من مناطقهم، أي من عمق الجنوب الذي لم يكن ملكاً لهم لكنه ظل متأثراً جداً بهم. المرة الأولى كانت حرب الانفصال، حين فجرت مسألة العبودية أول الحروب الحديثة، أي التعبئة العامة لمجتمعيْن متناحريْن ينقضّ أحدهما على الآخر في صراع بدون رحمة من أجل البقاء. وما زال الأميركيون، المعروف عنهم قلة اهتمامهم بالتاريخ، يزورون حتى اليوم، بتأثر شديد ساحات المعارك في جورجيا (في أتلانتا) وفي تنيسي (في شاتانوغا) وفي فيرجينيا. ولا تخلو من الشغف الكتب والدراسات التي ما زالت تنشر عن هذه الحرب، كأن روح قتال الأخوة باقية حتى اليوم، والشعب الأميركي يعيش ذكرى مأساته الأولى.

وبعد مرور مئة عام، إخترق الجنوب نفسه في الستينات التاريخ الأميركي مجدداً وأدخل عليه البعد التراجيدي. السود، أو بالأحرى مسألة السود، برزت مرة أخرى لتقسم البلاد وتمزقها، ليس بسبب العبودية، بل بسبب امتدادها المباشر من خلال «جيم كرو» أو التمييز العنصري النابع من مجموعة قوانين كانت تمنع الزنوج من الاندماج الاجتماعي. وهكذا شهدت المناطق المجاورة لساحات معارك القرن الماضي مظاهرات ومسيرات ومواجهات للتصديّ لـ «جيم كرو» والتمييز العنصري؛ وتكرر الصراع نفسه من أجل التحرر على أرض العبودية.

تعترف أميركا اليوم بشهداء حركة النضال من أجل الحقوق

المدنية، مبيحة بذلك وجود ثغرة في تفاؤلها المتأصّل. ومن المجدي هنا أن نذكر أن الولايات المتحدة التي نادراً ما تشيد النصب التذكارية للموتى ـ عكس البلاد الأوروبية ـ أقامت في مونتغمري في ألاباما نصباً لذكرى أربعين أميركياً ضحوا بحياتهم في الصراع من أجل الحقوق المدنية[1].

II

في الستينات أُطلق شعار: «الأسْوَد جميل». ظهر الشعار في آب 1967 على غلاف Crusader جريدة السود في أتلانتا، مدينة مارتن لوثر كينغ. انتشر الملصق والشعار بسرعة في أحياء السود في كافة المدن في الولايات المتحدة. جدران المنشآت العامة والمدارس والمراكز والمتاجر والكنائس ردّدت معاً «الأسْوَد جميل»، أحياء الغيتو في مختلف المدن الأميركية أعلنت أن «الأسْوَد جميل». لكن إعلان السود لذلك من مناطق تواجدهم يشير إلى أن أبناء وأحفاد العبيد يشكّون بأنفسهم. إذا شعروا بحاجة ملحّة لإعلان جمالهم فهم ربما يشكّون في أعماقهم بهذا الجمال، فهل يجدون أنفسهم قبيحين؟

كانوا بالفعل قبيحين في نظر مجتمع لا يعترف إلاّ بنموذج واحد: الأبيض. ولازمهم القبح حتى في الستينات، ولن يفارقهم ما داموا يتشربون النموذج الذي يفرضه المجتمع. مع حركة النضال من أجل الحقوق المدنية بدأ عمل جماعي طويل الأمد لرفض النموذج السائد. كان النضال من أجل الحقوق المدنية الذي استهدف تعديل

---

(1) «Civil Rights Memorial» للفنانة الصينية ـ الأميركية الشابة مايا لين. والفنانة أنجزت أيضاً في واشنطن النصب التذكاري للجنود الأميركيين الذين قتلوا في فيتنام، ولاقى هذا النصب صدى كبيراً لدى الصحافة والرأي العام.

القوانين والنظم، بالنسبة للسود أيضاً مجالاً لإثبات الهوية للمجموعة أولاً وللأفراد أحياناً.

كلمة «لا»، التي قالتها روزا باركس لها وقع مميز. قالت روزا: «لا، لن أغير مكاني» للرجل الأبيض الذي طلب منها أن تترك له مقعدها في الحافلة. «لا»، كلمة مميزة لأنها تخطت المألوف، إنها إعلان للمساواة بين الأعراق وتحدّ للمجتمع العنصري. هذه الـ «لا» تستحق السجن على الأقل أو حتى الإعدام. هنا يظهر تمرد العبودية، الأمر المتكرر في العلاقة بين السود والبيض؛ حلم التحرر للسود لأنه يقلب النظام القائم، وتهديد يلاحق البيض. فريدريك دوغلاس عبد متمرد، أسس بعد تحرره أول جريدة للسود «The Northern Star» في نهاية القرن التاسع عشر، يُجسِّد التمرد المفاجىء للعبد، ذلك التمرد الذي يطيح على الفور بقوانين مجتمع الأسياد[1].

بعد ذلك بمئة عام، قدمت أنجيلا دايفيس في محاضراتها في مادة الفلسفة في لوس أنجلوس تحليلاً ماركسياً لهذا التمرد. تمرد العبد ظهر في رفض روزا باركس، امرأة في الثانية والأربعين، في مونتغمري عام 1955. لكن تمردها بقي فردياً تماماً كتمرد فريدريك دوغلاس. ويعود الفضل لمارتن لوثر كينغ لإعطاء الرفض الفردي حجماً جماعياً. وما يسمى بمقاطعة الحافلات في مونتغمري تعدّى إطار الإضراب العادي والجماعة عاشته كتجربة تمرد عامّ.

النضال من أجل الحقوق المدنية، وتمرد العبد، نمطان من التحرك يتماشيان ويتساندان؛ النمط الأول له طابع قضائي ويهتم بمكانة السود في المجتمع الأميركي، والنمط الثاني يعود للتكوين

(1) في كتاب: Mémoires d'un esclave américain، لـ «فريدريك دوغلاس».

النفسي للأسود في المجتمع الأبيض. كل حق يؤخذ أو بالأحرى يُنتزع فيه تأكيد للذات، وتأكيد وجود الذات والمجموعة هو دائماً خطوة تحريرية.

تجلّى التحرر في الستينات بالنسبة للسود في الكلام عن العبودية ووصفها. بعد أن ترسخت ثقتهم بأنفسهم، تجرأ السود الأميركيون على رؤية أنفسهم كما هم: أحفاد العبيد. حتى ذلك الحين كانت العبودية معيبة ومدفونة في مكان ما من اللاوعي: كانت المحظور الذي لا يشار إليه في ظل قمع المجتمع الأبيض. وآن الأوان لكشف المحظور وكسر الصمت. انتشرت في كافة المدن، في الشوارع والمدارس والأماكن العامة معارض تروي حكاية العبودية ومجتمع العبيد. وذلك في أحياء السود ومن أجلهم وبصراحة تامة. وهكذا تمت عملية «التنفيس» التطهيري التي تتيح لمجموعة بشرية أن تتحرر أخيراً من الممنوع المفروض عليها والذي كان يهمّشها. هذه العملية اتخذت لاحقاً طابعاً مميزاً في كتاب «جذور» لـ «أليكس هالي» الذي صدر عام 1977. وفي الوقت نفسه بدأت أميركا كلها تطّلع على أبعاد مسألة العبودية من خلال التلفزيون والراديو والمجلات. وبذلك سقط بالنسبة للبيض أيضاً المحظور المليء بعقدة الذنب.

صار بالإمكان إقامة علاقات جديدة بين العرقين. وبالفعل دخل السود دخولاً صاعقاً في المجتمع الأميركي في الستينات. خلال أعوام قليلة فُتحت أمامهم كل الميادين التي كانت ممنوعة عليهم سابقاً. حتى التاريخ أعيدت كتابته وتم إصدار كتب مدرسية جديدة في هذا الإطار: غاب السود عن الكتب القديمة لكن الكتب الجديدة وضّحت ما لهم من مكانة في تاريخ الولايات المتحدة.

ونحن نعرف ما حدث فيما بعد لهذه الحركة الواسعة التي غيّرت المجتمع الأميركي في العمق. نعرف كيف استعاد المجتمع شيئاً فشيئاً ما لم يكن يقبله في السابق إلاّ تحت ضغط قوي وغير اعتيادي، وكيف أنشئت سدود أقلّ وضوحاً من السدود السابقة للتمييز العنصري، ولكنها سدود فعّالة شُيّدت لفرض مسافة تفصل الأسود عن الأبيض، وأخيراً كيف حلّت مكان العنصرية القديمة عنصرية جديدة ماكرة وخفية لكنها لا تقلّ حدّة عن القديمة. بعد مضي خمسة وعشرين عاماً على ثورتها الثقافية ما زالت الولايات المتحدة عنصرية. على الرغم من الاختلاط في المدارس عموماً، ومن تحقيق عشرات بل مئات الألوف من السود نجاحاً ملحوظاً على الصعيد الاجتماعي، ومن عدد المجندين في الجيش، ومن المكتسبات الهامة، ومن احتمال أن يتمكن رجل أسود ذات يوم من الوصول لمنصب نائب رئيس للاتحاد، على الرغم من هذا كله أميركا ما زالت بلداً عنصرياً.

جماعة السود ظلت إلى جانب جماعة الهنود في أسفل السلم الاجتماعي. ويزداد الضغط على السود لدفعهم أكثر فأكثر إلى الأسفل، كلما وصلت مجموعة مهاجرين جديدة من الصين أو اليابان أو كوريا الشمالية على سبيل المثال، وهذا يدل على أن السود ما زالوا داخل إطار الصورة الأولى المحفورة بشكل خفي في صلب النسيج الاجتماعي. بالنسبة لأكثرية السود، التاريخ يعيد نفسه: هم لم يختاروا أميركا ولم يأتوا إليها لإظهار قدراتهم أو لجني الثروة أو لمعيشة أفضل. وحدهم، إلى جانب الهنود، لا ينتمون إلى المعيار الأميركي ولا يستطيعون ادعاء الحلم الأميركي. والمهاجرون الجدد يعلمونهم ذلك. التاريخ يعيد نفسه وتتكرر التجربة: اليوم كلمة البارحة، كل ولد أسود يكتشف زنجيته بين الثالثة والسادسة من عمره؛

في هذه السن يكشف له شخص آخر، غير أسود، لون جلده ويلبسه قناعاً ويحدد له مكانه في المجتمع.

III

في نهاية الستينات ظهرت في أحياء الغيتو جداريات تكررت فيها المواضيع نفسها: كرامة الرجل الأسود وعزة نفسه وجماله، وذلك ليس في إطار عام بل من خلال شخصيات بارزة لعبت دورها في تاريخ السود الأميركيين، وأبطال ذاع صيتهم مثل: «نات تورنر» (الذي قاد تمرد فيرجينيا عام 1831) و «فريدريك دوغلاس» و «مالكولم إكس» و «مارتن لوثر كينغ» و «أنجيلا دايڤيس». تكتسب الأسماء في هذا السياق أهمية خاصة؛ في زمن العبودية لم يكن للأسود اسم خاص به؛ اسمه يأتيه من سيده وليس من ذويه. كان العبد أداة عمل وليس شخصاً كي يكون له اسم. واستمر الوضع على هذا الحال حتى التمرد الكبير من أجل الحقوق المدنية. كانت للسود مكانة محدّدة، وقوانين التمييز العنصري رسّخت عزلتهم فعاشوا محجوبين وبدون أسماء. عام 1953 صدر في نيويورك بحث من حوالى مئة صفحة بعنوان «لا أحد يعرف اسمي» لكاتب من منطقة هارلم غير معروف تقريباً، لكن اسمه وبحثه صارا شهيرين. ومنذ ذلك الوقت وحتى وفاته اعتُبر جايمس بالدوين أحد أهم وأفضل الناطقين باسم السود الأميركيين. وفي الفترة نفسها لاقت رواية «الرجل الخفي» نجاحاً كبيراً وهي تعالج الموضوع نفسه، موضوع الأسود المجهول الذي لا يحمل اسماً؛ كتبها «رالف أليسون» وهو من هارلم أيضاً.

مسألة الأسماء إذاً مسألة أساسية في العلاقة بين السود والبيض. وهي تطال اسم الشخص كما تطال اسم المجموعة. السود يشكلون

المجموعة العرقية الوحيدة التي عاشت فترة طويلة دون تعريف. سائر المجموعات العرقية أطلق عليها اسم موطنها الأول وألحقت به صفة أميركي (كالإيرلنديين الأميركيين، والإيطاليين الأميركيين، والبولونيين الأميركيين)، والسود سموا بالزنوج. هذه التسمية لا تحط من قدرهم لكن لم يرافقها ذكر إفريقيا أو أميركا. ثم أطلق السود على أنفسهم اسم «السود». ولم يعترف بهم كأفراد أميركيين إلاّ من سنوات عدة. هذه العبارة تعترف في آن واحد بأصلهم ومواطنيتهم.

وشكّل تدوين اسم رجل أسود في روزنامة الأعياد الأميركية اعترافاً آخر بوجود اسم للسود. تحديد يوم عيد يحمل اسم رجل أسود، يوم تتوقف فيه الولايات المتحدة عن العمل، هذا بحد ذاته يشكل انتقاماً عظيماً لشعب لم يكن له حق الاسم. لكن اسم مارتن لوثر كينغ لم يعد مجرد اسم لأميركي شهير، فهو يشعّ، بالنسبة لأميركا المتدينة والطهرية، بالقداسة. قداسة ترفع من شأنه لدرجة أنه صار من الصعب على طبقة السود المحرومة الوصول إليه. قداسة أو أسطورة إذا اعتبرنا الأسطورة ترجمة علمانية للقداسة. قد نرى إلى حياة كينغ بوصفها انعكاساً لحلمه (لديّ حلم). كان يحلم بمجتمع أخوي ومثالي، مجتمع تكذّبه بالطبع الحقيقة اليومية. هذا الحلم في الواقع، قبل أن يكون حلم القس الأسود، كان حلم الآباء الذين أسسوا أميركا، أرض الميعاد الجديدة. وهكذا تجد صورة كينغ مكانها الطبيعي في «البنثيون» الأميركي. يا له من نصر بالنسبة لحفيد عبد! لكن هذا النصر له وجه آخر، فالمجتمع الأميركي عندما يصيغ من كينغ أسطورة أو قديساً وعندما يدون اسمه في روزنامته فإنه يسلبه كل طاقته المعارضة.

سنوات «السلطة السوداء» القصيرة(*)

1967، سنة محنة في الولايات المتحدة. لم تكن البلاد تغوص في مزيد من التورط في حرب ڤيتنام فحسب، بل كانت أيضاً على شفير حرب أهلية عنصرية.

بدأ الانزلاق في الواقع منذ صيف 1964، مع تحرك الشبان السود في هارلم، حي الغيتو في نيويورك وكانوا سئموا من الإهانات، ومن الأجور المجحفة، ومن البطالة، ومن المساكن المكتظة وغير الصحية، ومن فقدان وسائل الراحة؛ ثار الشبان وأحرقوا المخازن والسيارات وتصدّوا بعنف لقوى الشرطة التي أتت للسيطرة على تمرّدهم. هذا الحدث تكرر في الفترة نفسها في السنوات التالية: في 1965 فتن في شيكاغو وفي نحو خاص في لوس أنجلوس؛ في 1966 اندلعت أحداث الشغب في حوالى ستين مركزاً، وكانت عنيفة بنحو خاص في كليفلاند وشيكاغو ودايتون وأتلانتا وسان فرنسيسكو. في 1967 كانت بوسطن وتمبا وسينسيناتي وبوفالو ونيويورك وديترويت مسرحاً للفتن... أي خلال ثلاث سنوات أحصيت أكثر من مئة انتفاضة في أحياء الغيتو السوداء في المدن الأميركية الكبرى، خلال

(*) المرجع: كريستيان دولورم. مقالة منشورة في كتاب «مارتن لوثر كينغ». حركة حقوق الناس. بيروت. الطبعة الأولى 1999. ص 81 ـ 87.

فصول الصيف الطويلة الحارة، واكتسحت أحياء بكاملها فخلّفت أضراراً بالمليارات، ومئات الجرحى والقتلى... وكان هؤلاء بشكل أساسي من الشبان السود الذين سقطوا نتيجة قمع لا يرحم.

هذه الثورات في أحياء الغيتو السوداء لم تكن الأولى من نوعها في التاريخ الأميركي: في بداية القرن، سنة 1919 في شيكاغو خصوصاً وسنة 1943 في ديترويت، اندلعت الفتن كردّ على القوانين العدوانية العنصرية التي أصدرها البيض. لكن ما بدا جديداً في أحداث الستينات كان أنها عبّرت عن حقد موجّه ضد «النظام» الأميركي. والذي دفع ثمن تلك الفتن لم يكن تماماً الرجل الفرد الأبيض (باستثناء أفراد القوات النظامية) بل المؤسسات التجارية، وعلى رأس القائمة كانت محلات الأدوات الكهربائية ومحلات البيض للأغراض نصف الكمالية التي كانت موجودة في مناطق الغيتو. يأس الشبان السود طال رموز التطور الاقتصادي عند البيض...

«نريد السلطة السوداء!»

كانت هذه الأحداث تكفي لوحدها لإثارة القلق في أميركا. لكن سرعان ما علا الصوت من خلالها لرفع مطلب زعزع البلاد: «نريد السلطة السوداء!» «نريد السلطة السوداء!».

يبدو أن تعبير «السلطة السوداء» وَرَدَ للمرة الأولى في عنوان لكتاب حول غانا، صدر عام 1954، للكاتب الأميركي الأسود الكبير ريتشارد رايت. ثم بدأت فكرة السلطة السوداء تتكرس ضمناً في أطروحات عدد من الزعماء السود، وبشكل خاص عند زعيم المسلمين السود مالكولم إكس الذي اغتيل عام 1965، أو عند روبرت ويليامز الذي نفي إلى كوبا عام 1961. وفي 24 حزيران 1966 تحوّل تعبير

«السلطة السوداء» إلى شعار نضالي وذلك أثناء مسيرة انطلقت على امتداد المسيسيبي وعرفت بالمسيرة «ضدّ الخوف»، وقد اتفق فيها المتظاهرون أنهم عند مواجهة رجال الشرطة في كانتون لن يصرخوا قائلين: «الحرية الآن!» بل «السلطة السوداء!». ومنذ ذلك الحين لقي الشعار نجاحاً كبيراً وتبنته عدة منظمات وصار كصرخة حرب تجمع المتمردين في الفتن المتتالية.

ستوكلي كارمايكل

ستوكلي كارمايكل جسّد لبضع سنوات فكرة السلطة السوداء لدرجة أن البعض اعتقد بأنه هو الذي ابتكرها. سيرته، كما سنرى، تختلف عن سيرة مارتن لوثر كينغ، الذي كان من أبناء البورجوازية الصغيرة في الجنوب؛ وهذا يفسّر نجاحه (كارمايكل) في أحياء الغيتو في مدن الشمال الكبرى حيث واجه قسيس أتلانتا بالمقابل صعوبات في توصيل صوته إلى الناس.

ولد ستوكلي كارمايكل في ترينيداد، إحدى جزر الأنتيل التي كانت لا تزال بريطانية، وذلك سنة 1941. هاجر والداه إلى أميركا وكان في العاشرة من عمره. وهناك ترعرع بين أكواخ برونكس، وهو حي آخر من أحياء الغيتو في نيويورك. كان والده يعمل نجاراً في النهار وسائق أجرة في الليل، وهذا أرهقه وتسبب في وفاته في سن مبكرة. أما والدته فقد لجأت إلى الخدمة في البيوت كي تعيل أبناءها وتساعدهم على «الاندماج» في مجتمع الأميركيين البيض. اختلط ستوكلي كارمايكل بعصابات الأحياء، وفي الوقت نفسه نجح في دراسته واستطاع الدخول إلى جامعة هوارد للسود في واشنطن.

عام 1960 اختار النضال في صفوف منظمات الحقوق المدنية.

مع تنظيم «المؤتمر من أجل المساواة العرقية .C.O.R.E» الذي أسسه جايمز فارمر سنة 1943، شارك في مظاهرات لاعنفية في الجنوب. وهكذا تعرّف إلى الضرب بالمطرقة، وحقد رجال الشرطة البيض، والسجن.

كان تنظيم .C.O.R.E هشّاً بالنسبة له، فانتقل إلى .S.N.C.C، «لجنة التنسيق للطلاب اللاّعنفيين»، وهي حركة تأسست سنة 1960 بدعم من مارتن لوثر كينغ؛ وفي هذه الأثناء اطلع على الفكر الثوري، لكنه لم يستمد أفكاره من يسوع أو القديس بولس أو غاندي كما فعل مارتن لوثر كينغ، بل من ماركس وداروين وسارتر وكامو ومالكولم إكس، وفرانز فانون المناضل المعروف في المارتينيك، وتشي غيڤارا؛ وأخذ يؤكد على أن البيض أعلنوا الحرب على السود وأنه يجب الرد عليهم ومحاربتهم. أصغى الناس إلى خطاباته، وفي 1966 انتخب رئيساً للجنة .S.N.C.C. احتفظت معه اللجنة باسمها لكنها تخلّت عن اللاّعنف. كانت أول منظمة تبنت شعار «السلطة السوداء»، وتلاها تنظيم .C.O.R.E الذي كان مجلس قيادته أيضاً مضطرباً بدوره. في 15 و 16 تشرين الأول 1966، عُقِد في واشنطن، بمبادرة من هذين التنظيمين، المؤتمر التأسيسي للسلطة السوداء.

«أطلق النار حتى الموت، يا أخي!»

في سنتي 1966 و1967، قام ستوكلي كارمايكل بجولات في المدن الكبرى في الشمال، رافعاً لواء «الحرب السوداء» والعصيان المسلح والتدمير والخراب والدماء والموت. حرّض السود على رفض المشاركة في الحرب في ڤييتنام، وكان المسلمون السود يميلون لهذا الرفض الذي عبّر عنه الملاكم محمد علي، (كاسيوس كلاي)، معبود

الجماهير السوداء. آثر كارمايكل الاتصال المباشر بالجماهير التي يريد تنبيهها وإثارتها وإنهاضها، فتخلّى أولاً عن رئاسة لجنة .S.N.C.C في أيار 1967، وترك منصبه لشاب يدعى راب براون كان أكثر منه حدّة. وفي آب 1967 ألقى كلمة أثناء انعقاد «مؤتمر الحركات الثورية في أميركا الجنوبية» في هاڤانا، أعلن فيها عن التخطيط لاستراتيجية تخريب واستنزاف تستهدف إيجاد خمسين ساحة حرب ڤييتنامية على الأرض الأميركية. ألا يوجد السود في كافة المدن، وهم بالتالي قادرون على إحداث فوضى كلية في المراكز الحيوية للرأسمالية الأكثر قوة في العالم بأسره؟

«لا تحاول أن تحب الأبيض حتى الموت يا أخي، بل أطلق عليه النار حتى الموت. إذا كانت هذه المدينة لا تقبل الاستماع إلينا، يجب إحراقها يا أخي، يجب إحراقها». هذا بعض ما ورد في الخطاب الذي ألقاه راب براون في كامبريدج في بداية صيف 1967. وأخذ عشرات الآلاف من الشبان السود يتجاوبون مع مثل هذه الأطروحات. إضافة إلى أن التحريض على «الحرب السوداء» كان يحظى بدعم كوبا وكافة التيارات والحركات ذات التوجه المعادي للإمبريالية الأميركية.

ولادة «الفهود السود»

شعار «السلطة السوداء» أحدث صدى هائلاً في صفوف الجماهير؛ كان له وقع أسطوري. بدا أنه الوسيلة الجديدة لتحريك قوى المجتمع الأسود لمواجهة الشعب الأبيض بالضغط الحازم لقوة ملونة متماسكة ومنظمة.

كان قادة المنظمات يتبنونه في البداية لأجل ذلك، لكنهم وجدوا

صعوبة في إعطائه معنى محدداً. ثم صارت الأمور أكثر وضوحاً. أخذت السلطة السوداء تعرّف ذاتها بأنها نقيض لحركات كانت، على غرار حملات كينغ اللاعنفية، تناضل من أجل الاندماج؛ وهي دعت إلى الانفصال في كافة المجالات، بدءاً من النشاط السياسي. وهكذا وفي نهاية 1966، ساهم ستوكلي كارمايكل بتأسيس حزب مستقل عرف بـ «الفهود السود» في مقاطعة في ألاباما التي تبلغ نسبة سكانها من السود 80%. كان تشكيل الحزب انشقاقاً صاخباً عن تيار الديموقراطيين الجنوبيين، وقال كارمايكل مبرّراً ذلك بأننا إذا طلبنا من الأسْوَد الجنوبي «الانضمام إلى الحزب الديموقراطي فإن هذا يشبه دعوة اليهودي للانضمام إلى الحزب النازي». لكن حزب الفهود السود احتاج عدة سنوات حتى صار حزباً مستقلاً على المستوى القومي، وهو بأي حال لم يتعدّ كونه تشكيلة أقلية.

إضافة لذلك أعلنت السلطة السوداء سيطرتها على الغيتو، على كافة المستويات السياسية والاقتصادية بما في ذلك الإدارة والتعليم والحماية الذاتية التي تولتها ميليشياتها الخاصة، ومكافحة الحرائق، الخ... أي ما معناه: الحق الكامل بتقرير المصير. حاول حزب الفهود السود في السنوات التالية تحقيق ذلك، لكن السلطة المركزية البيضاء رفضت ذلك بالتأكيد بشكل قاطع.

وفي توجّه آخر حاولت السلطة السوداء إحداث انشقاق اقتصادي: بالدعوة إلى التعامل مع السود والشراء منهم، واستبدال المستغِل الأبيض أو الأسود بالتعاون مع الأسْوَد وتعزيز الثقة به. لكن اتضح بسرعة أن بناء اقتصاد مستقل للسود يتعسّر تنفيذه في ظل النظام الرأسمالي، وأن هذا التوجه سيظل حلماً، وكان بالفعل كذلك؛ لكن شعار تقاسم الولايات المتحدة وبناء دولة مستقلة للسود في الجنوب

الذي رافق ذلك الحلم كان عاملاً فاعلاً في تحريك مشاعر الجماهير.

شعارات السلطة السوداء أعطت للمجتمع الأسود (خصوصاً في المدن الكبرى حيث يعيش 70% من أصل 25 مليوناً من السود الأميركيين) إحساساً جديداً بالتباهي بالانتماء إلى عرق وإلى ماضٍ حضاري مكتوم منذ فترة طويلة. هذا بالإضافة إلى تنمية مشاعر التضامن لديهم مع الحركات النضالية في العالم الثالث، وحروب العصابات في أميركا الجنوبية، ومع الكفاح الذي يخاض في إفريقيا السوداء (ستوكلي كارمايكل المنفيّ تزوج المغنية السوداء الشهيرة في جنوب إفريقيا ميريام ماكيبا). مع أن النشاطات الفعلية التي خاضتها السلطة السوداء، كالفتن التي كانت تثيرها، ظلت قفزات ثورية سرعان ما كانت تُخمد برد قمعي شرس، لكن السلطة السوداء استطاعت أن تخلق لدى اليائسين في أحياء الغيتو أملا بثورة تحررية، وهذا لا يمكن اعتباره أمراً سلبياً.

مارتن لوثر كينغ والسلطة السوداء

عندما اندلعت أول ثورة في أحياء الغيتو، في هارلم سنة 1964، كان مارتن لوثر كينغ بالنسبة للعالم قد وصل إلى ذروة انتصاراته. ألم يُمنح جائزة نوبل للسلام تلك السنة، ويُعترف به كمحرّر سلميّ لشعب، وشاهد على الأخوّة الشاملة الضرورية والممكنة؟

في الواقع، خلال السنوات الثلاث التالية والتي انتهت بموته، أخفق مارتن لوثر كينغ مراراً، وأدرك أنه بعد تحقيقه انتصارات متعدّدة في الجنوب ونجاحه في إلغاء كافة قوانين التفرقة التي كانت سائدة، لم يعد يستطيع الادّعاء بأنه محرّر الشعب الأسود بكامله.

يُعتبر مارتن لوثر كينغ بورجوازياً نسبة إلى مفهوم علم الاجتماع. كان في الواقع ينتمي إلى فئة البورجوازية الصغيرة في مجتمع السود في الجنوب، التي ضمت بنحو خاص القسيسين والمعلمين، ولم تكن تشبه في أحوالها جموع البائسين في هارلم أو في لوس أنجلوس. ولم يكن كينغ يعرف حقيقة أوضاع أحياء الغيتو في الشمال. كان عليه في الجنوب محاربة القوانين العنصرية، لكن وبالرغم من أن القوانين لم تكن عنصريّة إلاّ أن النظام برمّته كان مطبوعاً بطابع العنصرية، وهو نظام ماكر كان يبدو بديهياً ولم يسبق لكينغ مواجهة حالة مشابهة في الجنوب.

بعد اندلاع الفتن الأولى، وبعد إحراز ما يفترض أنه أساسي في الجنوب، قام مارتن لوثر كينغ بإطلاق حملات تدعو للعصيان المدني في الشمال. لكنه لم يكن يتكلم بلغة أولئك الذين خاطبهم؛ كان يستعجل في الحديث عن الأمل وقوة الحياة مع أشخاص لم يعد لديهم ما يأملون به. في الجنوب كان قسيساً والجماهير رعيته، لكنه في الشمال بدا كمرشد أخلاقي، شبيه بـ «العم توم» كما قال بعض القوميين في «السلطة السوداء»، أي «زلمة» السلطة البيضاء، خاضع لتحكم تلك السلطة. كانوا بالكاد يستمعون إليه، وغالباً ما لجأوا للاستهزاء به. سنة 1966 حاول إطلاق حملة إضراب للمستأجرين في شيكاغو لكنها أخفقت تماماً.

في هذه الأثناء يبدو مهماً أن نعرف إلى أي مدى استطاع كينغ أن يتغير. في البداية استنكر بلا جدوى عنف المتمردين، وعبّر عن معارضته لنهج اللجوء إلى القوة الذي تعتمده السلطة السوداء. ثم توصل لإدراك جسامة المشكلة، وأن «النظام» الأميركي الذي آمن به كان سيئاً، وأن الرأسمالية أفسدته في العمق وإلى أقصى حد. تبيّن له

أن السلطة السوداء هي انعكاس لطموحات إخوان له يسعون لتحقيق كرامتهم، وأن القوميين السود يمثلون شباب أحياء الغيتو.

هذا التغيير في وجهة نظر كينغ ظهر في إعلانه التزامه ومنظمته (مؤتمر القادة المسيحيين في الجنوب) (S.C.L.C.)، بنهج معارضة الحرب في ڤييتنام، وبتفعيل الحملات التي تخاض لتحقيق ذلك.

وهكذا، في آب 1967، أنهت الجمعية العاشرة لـ «مؤتمر القادة المسيحيين في الجنوب» لقاءاتها بتبني مجموعة نصوص تكرست فيها مفاهيم مثل: «زنوجة» (وضع الزنوج وطبيعتهم) و «الوحدة الأفرو ـ أميركية»، بعدما أعلن مارتن لوثر كينغ بحماس: «قوة السود الروحية وحدها تستطيع إنقاذ الأمة الأميركية».

تلك الجمعية، التي حملت ملصقاتها شعار: «الأسود جميل وما أجمل أن نكون سوداً»، أقرت بنحو خاص خطة «لتفكيك» الحياة في المدن الكبرى في الشمال بإعلان العصيان المدني من خلال مظاهرات جماهيرية لاعنفية، وذلك للضغط على الكونغرس في الولايات المتحدة كي يقرّ اعتمادات كبيرة لتغيير ظروف معيشة السود. وما قاله كينغ في هذا السياق: «إحداث خلل في نظام مدينة دون تهديمها قد يكون أكثر فاعلية من اللجوء إلى الفتنة. قد يمتد هذا التحرك لفترة أطول ويكون أكثر كلفة على المجتمع».

لأجل هذه الغاية أعدّ «المؤتمر» لمقاطعة أسبوعية في المدارس، ولتجمّع السود العاطلين عن العمل أمام أبواب المصانع، ولمظاهرات داخل المباني الإدارية تستهدف تعطيل الخدمات الرسمية. كان يريد من ذلك التأكيد على أن اللاّعنف لم يقل بعد كلمته الأخيرة؛ لكن ما تحقق من هذا البرنامج لم يتعد المحاولات الأولى، لأن «المؤتمر» لم

يكن يستطيع تحريك «قوى» كافية في مدن الشمال، ولأن مارتن لوثر كينغ اغتيل بعد أشهر قليلة.

تضمن البرنامج أيضاً الدعوة إلى «مسيرة للفقراء» تنطلق إلى واشنطن في 22 نيسان 1968. كان مارتن لوثر كينغ يريد تنظيمها بالاتفاق مع زعماء «السلطة السوداء» الذين أبدوا بالفعل موافقتهم على ذلك. قامت المسيرة بعد وفاة كينغ. ولم يكن لها سوى تأثير متواضع.

سقوط «السلطة السوداء»

في مواجهة «السلطة السوداء» كان مارتن لوثر كينغ يطرح التساؤلات ولا يتمسك بأحكام ثابتة. من هذا المنطلق لا نجد غرابة في توجيه ستوكلي كارمايكل تحية له بعد اغتياله إذ قال: «حادثة الاغتيال هذه أسكتت الصوت الوحيد في جيل الكبار والذي كان الشبان السود قادرين على الاستماع إليه».

بعد وفاة كينغ، كانت كافة المعطيات تشير إلى رجحان كفة العنف وأن «الحلم» بالفعل ضاع، حلم تغيير المجتمع الأميركي بلا عنف. لم يكن بين زعماء التحرك اللاعنفيّ مَنْ يتمتع بمكانة تخوله متابعة مسيرة مارتن لوثر كينغ؛ فقط زعماء «السلطة السوداء»، أمثال كارمايكل وبراون، كان لديهم على ما يبدو النفوذ الضروري للتخطيط لثورة السود. لكن وبعد اندلاع الفتن مباشرة إثر اغتيال كينغ، دُهش الجميع لأن صيف 1968 لم يكن «حاراً» كما توقعوا... ولا الأشهر التالية أيضاً. وهكذا فإن السلطة السوداء التي طالما ألهبت قلوب عشرات الآلاف من الشبان، بدأت تتراجع تدريجياً...

توقُّف الفتن كان غير متوقّع؛ لكن السقوط التدريجي للسلطة

السوداء كان بالمقابل نتيجة عوامل كثيرة، كان أهمها من دون شك لجوء السلطة البيضاء إلى آلية قمع لمحاربة القادة والناشطين من القوميين الذين كانوا بالفعل معرّضين للملاحقة الدائمة؛ كانت توجّه لهم اتهامات شديدة تودي بهم إلى السجن لتنفيذ عقوبات شاقة، أو يحكم عليهم بالنفي الإجباري. وهكذا فإن ستوكلي كارمايكل، وراب براون، وإلريدج كليڤر (الذي كان بالفعل «مرشد» حزب الفهود السود في 1969 و 1970) وغيرهم، تلقوا تباعاً أحكاماً بالنفي. «السلطة السوداء» التي تأسست سنة 1966، وصلت إلى الذروة في 1967 فأثارت الرعب في أميركا، لكنها لم تستطع الاستمرار حتى بداية السبعينات. كانت آخر مأثرة لها فوز الرياضيين السود في الألعاب الأوليمبية في مكسيكو سنة 1968.

ومن العوامل الأخرى لسقوطها يجب أن نشير إلى: قدرة النظام الأميركي الهائلة في السيطرة على كل الاضطرابات التي استطاعت إثارتها، وعلى إنفاق مبالغ كبيرة كانت توزع «لمساعدة» السود الأكثر بؤساً وتهدئتهم؛ صعوبة تفعيل الصراع الطبقي في المجتمع الأميركي؛ عجز قادة السلطة السوداء عن وضع استراتيجية ثورية طويلة المدى تتجاوز المدى البسيط لإثارة الفتنة؛ دعم كوبا وسائر الحكومات والحركات الثورية لم يستمر في الواقع، ورعاية «حزب السود» في الولايات المتحدة لم يكن بالتأكيد بالنسبة لموسكو خطوة مفيدة في إطار هاجس المحافظة على توازن القوى. . .

منذ ذلك الحين، يفترض فينا للأسف الإشارة إلى أن موجة اللاّعنف العارمة ما بين 1954 و 1964، وديناميةالسلطة السوداء، لم تستطيعا العودة إلى مسرح الأحداث في الولايات المتحدة على الرغم من أن وضع السود كان يزداد سوءاً: في إطار التراجع

الاقتصادي، ساد الحكم عليهما بأنهما لا تندرجان ضمن الأوليات في المجتمع الأميركي. توجد بالطبع بعض المدن التي تقوم فيها منظمات بنشاطات «قاعديّة» مقبولة، لكن لم تعد هناك حركة قومية كبرى.

سنة 1971، أثيرت قضية أنجيلا دايفيس، وهي شابة جامعية سوداء وُجّهت لها تهمة المشاركة في محاولة تهريب لسجناء معروفين باسم «إخوة سوليداد»، لكن القضية لم تحرك سوى جزء من مجتمع السود. أما بالنسبة للفتن التي اندلعت في ديترويت وألاباما سنة 1976 وفي ميامي سنة 1980، فإنها ببساطة ذكّرت الناس أن «مشكلة السود» (أو بالأحرى «مشكلة البيض»؟) لا تزال ماثلة في صميم المجتمع الأميركي. متى تبدأ الثورة التي أرادها مارتن لوثر كينغ وستوكلي كارمايكل؟

المنظمات الأفرو ـ أميركية(*)

إن الفتن التي خرّبت جزءاً من مدينة لوس أنجلوس في شهر أيار 1992، نبهت بقسوتها الأميركيين إلى أن الحرمان الاجتماعي، الذي يرتكز إلى عنصرية مزمنة، يقود حتماً إلى الانفجار العام. . .

هذه الفتن كشفت أيضاً عن عجز القيادة السوداء التقليدية عن التدخل بنحو فاعل مع قسم كبير من المجتمع الأفرو ـ أميركي، الذي تبدو لها أحياناً قيمه وتطلعاته غير مفهومة، وتتصف بالعدائية. أميركا السوداء ليست أحادية التوجّه. والشخصيات التي ظهرت على شاشة التلفزيون، ومنها بيل كوسبي، وماجيك جونسون، ولويس سوليڤان (وزير الصحة)، وبنيامين هوكس (رئيس الرابطة الوطنية لتقدم الملوّنين N.A.A.C.P.)، وجيسي جاكسون ودوروثي هايت (رئيسة المجلس الوطني للنساء الزنجيات)، من أجل الدعوة للتهدئة خلال الأيام الأولى لاندلاع الأحداث، لم يكن لها تأثير يذكرعلى الشبان اليائسين الذين، في الغالب، لا يعرفون شيئاً عن النضال الذي خاضه من هم أكبر منهم سناً.

(*) المرجع: فيليب تريي. مقالة منشورة في كتاب «مارتن لوثر كينغ». حركة حقوق الناس. بيروت. الطبعة الأولى 1999. ص 89 ـ 91.

غير أن المنظمات الأفرو ـ أميركية اليوم لا يمكن وصفها بأنها مخلّفات رمزية تذكّر بمرحلة سابقة من النضال من أجل الحقوق المدنية. إنها دينامية ومنظمة في بنائها وإدارتها، ومنتشرة في معظم أرجاء الولايات المتحدة، وأحياناً في الخارج، وهي تمثل سلطة معارضة مؤثرة تحسُب الحكومة حسابها وتستشيرها بنحو منتظم.

بين المجموعة الكبيرة من الحركات والمنظمات والروابط، إن كانت تطوّعية أم لا، ذات نطاق محلي أو إقليمي أو وطني أو عالمي، فإن الأكثر تأثيراً بالتأكيد هي تلك التي طبعت حقبة المطالبة بالمساواة في الستينات والسبعينات.

نذكر منها: «الرابطة الوطنية لتقدم الملوّنين» (.N.A.A.C.P وعددها يزيد على سبعمئة ألف عضو)، أسسها سنة 1909 المؤرّخ و.إ.ب. دوبوا؛ «مؤتمر القادة المسيحيين في الجنوب» (.S.C.L.C) تولّى قيادته لفترة مارتن لوثر كينغ ورالف أبرناثي؛ «المجلس الوطني للنساء الزنجيات»؛ «مؤتمر المساواة العرقية» وتزعمه روي إينيس؛ «الرابطة المدينية القومية»، التي قدمت في تقريرها السنوي، «حالة أميركا السوداء»، إحصائيات وتحاليل متكاملة حول تطور المجتمع الأفرو ـ أميركي؛ «اتحاد التشكيلة الوطنية» (.N.R.C) الذي أنشأه جيسي جاكسون، وهو منظمة متعدّدة الأعراق، كان دور السود غالباً فيها.

عكست هذه المنظمات بشكل عام هموم الطبقة المتوسطة السوداء. وكانت تخوض نضالها الأساسي على المستوى القانوني من أجل إعداد سياسة أفضل للاندماج الاجتماعي والاقتصادي للأفرو ـ أميركيين. وقد نظمت حملات إعلامية وتوجيهية ضدّ التفرقة في العمل والسكن والقضاء ووسائل الإعلام... ووضعت برامج للعمل في مجالات الصحة والتعليم.

إلى جانب هذه الحركات، التي وُصفت بالاندماجية، كانت هناك روابط ومجموعات غير حكومية (ONG)، ذات طابع مشترك ومحلي، تُنظّم في الأحياء؛ وكانت ناشطة واستطاعت أحياناً تحقيق نتائج حاسمة في نضالها ضد الانحراف والمخدرات والإجرام. وتجدر الإشارة أيضاً إلى أهمية النقابات والاتحادات المهنية وحركات الطلاب الأفرو ـ أميركيين: روابط رجال الأعمال، ونقابات الصحافيين، والأطباء والمحامين؛ الأخويات واتحادات الطلاب السود الخ. . .

والكنيسة السوداء التي أسست وخلفت حركة الحقوق المدنية، لها أيضاً حضورها على الساحة الاجتماعية ـ السياسية. إنها العمود الفقري للمجتمع الأفرو ـ أميركي، ولا أحد يفكر جدياً بالقيام بنشاط واسع النطاق بدون دعمها. تضم الأبرشيات المختلفة مئات الآلاف من المؤمنين، وهؤلاء يشكلون ثقلاً انتخابياً هاماً. معظم القادة التاريخيين كانوا من المبشرين (أدام كلايتون پويل، مارتن لوثر كينغ الابن، جايمز فارمر، جيسي جاكسون، أندرو يونغ، ج. لووري، ب. هوكس، الخ. . .). والكنائس الأساسية عند السود هي: «الكنيسة الإفريقية الميتودية الأنكليكانية» (African Methodist Episcopal Church)، و «الدعوة المعمدانية القومية، الولايات المتحدة الأميركية» (National Baptist Convention U.S.A.)، و «الدعوة المعمدانية القومية في أميركا» (National Baptist Convention of America)، و «كنيسة الرب المسيح» (Church of God in Christ).

أمّا في الجانب الراديكالي للساحة السياسية الأفرو ـ أميركية، فماذا حلّ بالتيار الذي ضمّ منظمات ذات توجّه ماركسي ـ لينيني، وحركة السلطة السوداء، والحركات الإسلامية؟ معظم هؤلاء لم

يستطيعوا الصمود أمام هجمات الـ FBI و Cointelpro (برنامج الاستخبارات المضاد) بإشراف إدارة الرئيس نيكسون. اغتيالات واعتقالات وضرب منظمات وحملات تضليل إعلامي، و «ارتداد» ناشطين؛ هذه الاستراتيجية ـ إضافة إلى الانشقاقات الداخلية ـ أدت إلى إضعاف حزب «الفهود السود»، ومنظمة الوحدة الأفرو ـ أميركية (OAAU)، التي أسسها مالكولم إكس الذي اغتيل سنة 1965، ولجنة التنسيق للطلاب اللاّعنفيين (SNCC)، وجمهورية إفريقيا الجديدة (RNA الانفصالية)، ولجنة دعم تحرير الأفارقة (ALSC)، ونقابات تقدمية مثل رابطة العمال السود الثوريين (LRBW)، ومجلس العمال السود (BWC).

في الوقت الحاضر تفتّتت المنظمات الراديكالية ولم تعد تضم سوى أعداد قليلة من المنتسبين. وفقاً لظروف أماكن وجودها، عرف بعضها نمواً ملحوظاً في شعبيته. تلك كانت حالة «أمة الإسلام» (NOI Nation of Islam) (التي تضم أكثر من عشرة آلاف عضو معلن، إضافة إلى مئات الآلاف من الأنصار)، التي تزعمها لويس فرّاكان، بشخصيته التي استهوت الجماهير وأثارت الجدل والذي عرف كيف يوجه ويستغل الإحباط المتزايد لدى قسم من الشبان السود. ونشير في هذا المجال أيضاً إلى الحزب الثوري لكل الشعوب الإفريقية (All-African Peoples Revolutionary Party A.A.P.R.P) وهو حركة إفريقانية أسسها زعيم «الفهود السود» السابق ستوكلي كارمايكل (الذي يعرف اليوم باسم كوام توري)، وحزب الاتحاد الجديد (New Alliance Party مركزه نيويورك، متعدّد الأعراق)، الذي أسسه الدكتور لينورا فولاني، المرشح الأفرو ـ أميركي للانتخابات الرئاسية في تشرين الثاني.

ملف وثائقي عن
مارتن لوثر كينغ وكلماته

الرسالة الأولى(*)

مارتن لوثر كينغ في رسالته عن الحرية والمساواة ووضع السود(1)

لا يزال الكثير من الأمريكيين يتذكرون اليوم الذي أغتيل فيه مارتن لوثر كينغ حينما ذهب إلى مدينة ممفيس لدعم إضراب قام به عمال النظافة فيها العام 1968 حينما وقف على الشرفة في الطابق الأول لفندق «لورين» ليلقي خطابه قبل أن تطلق عليه رصاصة تضع نهاية لحلمه الأمريكي.

(*) **المرجع**: عبد القادر البريفكاني «المحررون أعظم قادة القرن العشرين». مطابع الأهرام. القاهرة. الطبعة الأولى 2001. ص 602 ـ 615. وأيضاً في كتاب «مارتن لوثر كينغ» حركة حقوق الناس. بيروت. الطبعة الأولى 1999.

(1) هذا رد على البيان المنشور في الصحف من قبل ثمانية من الزملاء الكهنة في ألاباما (وهم: الأسقف س.س.ج. كاربينتر، والأسقف جوزيف أ. ديورك، والحاخام هيلتون ل. غرافمان، والأسقف بول هاردن، والأسقف هولان ب. هارمون، والقس جورج م. مؤري. والقس ادوارد ف. راميج، والقس ايرل ستالنغر). هذا وقد كان الرد قد كُتب في ظروف عصيبة. بدأت بكتابته على هوامش الصحيفة التي نُشر بها البيان أثناء وجودي في السجن، ثم تابعت الرسالة على قصاصات من الورق زودني بها سجين زنجي موثوق، ثم أكملتها على دفتر تركه لي المحامون بعد أن سُمح لهم أخيراً بتركه، ورغم أن النص قد ظل من دون تغيير جوهري، إلا أنني أطلقت لنفسي العنان في امتياز المؤلفين وقمت بنشر الرسالة في الصحف. (كينج).

وقد أدى اغتياله إلى حوادث عنف وشغب امتدت إلى مائة مدينة أمريكية، وأدت إلى عملية قنص لم تشهدها أميركا للقاتل حيث تم القبض على رايّ في مطار هيثرو بعد شهرين من الحادث وتم إعادته إلى الولايات المتحدة للمحاكمة. في البداية كان الاتهام واضحاً حيث وجدت بندقية عليها بصمات جيمس اريل رايّ الذي توفي في العام 1999 في سجن ناشفيل بعد معارك قضائية فاشلة لإثبات براءته من دم كينغ. وكان رايّ قد اتهم بقتل كينغ بعد هروبه من سجن ولاية ميسوري، واعترف بالقتل من أجل تخفيف الحكم عليه بدلاً من الإعدام وحكم عليه بالسجن لمدة 99 عاماً وبعد ذلك قال إنه تعرض لعملية خداع من قبل بائع أسلحة يدعى راول، وأنه كان يقوم باستبدال عجلة سيارته في وقت الحادث. ولا يزال الغموض يلف عملية اغتيال داعية الحقوق المدنية كينغ وأحد رموز المقاومة الوطنية السلمية في الولايات المتحدة في القرن العشرين.

* حصل كينغ على درجة الدكتوراه في اللاهوت ورفض عروض العمل في الجامعات، وقرر العودة إلى الجنوب للعمل كقسيس في كنيسة معمدانية في مدينة مونتغمري في ولاية ألاباما، ثم صعد سريعاً إلى مصاف القيادة في حركة الحقوق المدنية نظراً لثقافته الرفيعة، وقدراته الاستثنائية في الخطابة، وانخرط في مقاومة سلمية لنظام الفصل العنصري الذي كان سائداً في الولايات المتحدة آنذاك، وإثر ذلك تعرض للاعتقال مرات عديدة، كما ألقيت قنبلة على بيته.

*** نشر في العام 1958 كتابه الأول «خطوات نحو الحرية: قصة مونتغمري»**. قام في العام 1959 بجولة في الهند، ومن خلالها زاد اطلاعه على تجربة المهاتما غاندي في الكفاح السلمي. **تلقى في العام 1964 جائزة نوبل للسلام.**

* في العام 1967 زاد عداء الحكومة الأمريكية له، إذ بدأ بانتقاد ومعارضة الاجتياح الأمريكي لڤيتنام. ولم يمهله القدر طويلاً بعد ذلك، إذ تم اغتياله في 4 أبريل/ نيسان من العام 1968.

* حرر في العام 1963 من سجن بيرمنغهام أطروحة على شكل رسالتين والتي قدم فيهما عدداً من المحاور الفكرية عن المقاومة السلمية وعودة اللاعنف وموقع الزنوج في الحياة الأمريكية.

رسالة من سجن بيرمنغهام

16 أبريل/ نيسان 1963

بيرمنغهام ــ ألاباما

أعزائي الزملاء الكهنة:

بينما أنا محتجز هنا في سجن مدينة بيرمنغهام، اطلعت على بيانكم الأخير، والذي وصفتم به نشاطاتي بأنها «طائشة وفي غير أوانها»، من النادر أن أتوقف للرد على النقد الموجه لأعمالي وأفكاري، إذ إنني لو سعيت إلى الرد على النقد الذي يصل إلى مكتبي فلن يبقى لمعاوني إلا القليل من الوقت لعمل أي شيء سوى الإجابة على هذه المراسلات التي تصلنا على مدار اليوم، وكذلك لن يبقى لي أي وقت لإنجاز أعمال بناءة. ولكن ولأنني أشعر بأنكم رجال من ذوي النوايا الحسنة الصادقة وأن نقدكم صادر عن إخلاص، أريد أن أحاول الرد على بيانكم، وأتمنى أن يكون رداً صبوراً وفي عبارات متزنة ومعقولة.

أعتقد أنه عليّ أن أشير لسبب وجودي في بيرمنغهام، إذ أنكم قد تأثرتم بوجهة النظر التي تجادل ضد «قدوم الغرباء». لقد حظيت بشرف الخدمة كرئيس لمؤتمر القيادة المسيحية الجنوبية، وهي منظمة

تعمل في كل الولايات الجنوبية ولها مقرات في أطلنطا في ولاية جورجيا، كما أننا مندمجون مع ما يقارب خمساً وثمانين منطقة منتشرة في الجنوب، وإحدى هذه المنظمات هي الحركة المسيحية لحقوق الإنسان في ألاباما، وكثيراً ما نشترك مع المنظمات المندمجة معنا بالموظفين وبالمصادر التربوية والمالية، وقبل أشهر عدة طلبت منا المنظمة المندمجة معنا في ألاباما أن نكون على استعداد للمشاركة في برنامج عمل مباشر سلمي إذا دعت الضرورة لذلك، وحينها قبلنا عن طيب خاطر، وعندما أزفت الساعة أوفينا بوعودنا. ولهذا فنحن هنا لأننا قد دُعينا إضافة إلى ارتباطات تنظيمية لمجموعتنا.

ولكن السبب الأهم لوجودي في بيرمنغهام هو وجود الظلم فيها. تماماً كما كان الأنبياء في القرن الثامن قبل الميلاد يتركون قراهم ويحملون عبارتهم «هكذا قال الرب» لحدود أبعد كثيراً من حدود بلداتهم، وتماماً كما ترك بولس الرسول قريته طرسوس وحمل بشارة يسوع المسيح إلى أبعد بقاع العالم الإغريقي ـ الروماني، لهذا أنا مجبر على حمل بشارة الحرية إلى ما وراء بلدتي، ومثل بولس، فإن عليّ أن أستجيب باستمرار لنداء المقدونيين طلباً للمساعدة.

وعلاوة على ما تقدم، أنا مدرك لعلاقة التأثير المتبادل لكافة المجتمعات Communities والولايات. أنا لا أستطيع أن أجلس مسترخياً في أطلنطا ولا أكترث بما يحدث في بيرمنغهام، إن وجود الظلم في أي مكان هو تهديد للعدالة في كل مكان، إننا عالقون في شبكة لا فكاك منها من التبادلية ونحن مشدودون إلى خيط القدر ذاته، وأي شيء يؤثر على أي فرد مباشرة، فإنه يؤثر على الكل بصورة غير مباشرة، ولن نحتمل أن نعيش ثانية أبداً بفكرة «المحرض الخارجي» الضيقة والساذجة، إن أي شخص يعيش داخل الولايات المتحدة، لا

يمكن أن يعتبر غريباً في أي مكان داخل حدودها.

لقد استنكرتم التظاهرات الجارية في بيرمنغهام، ولكن يؤسفني أن أقول بأن بيانكم قد أخفق بأن يُظهر اهتماماً مشابهاً بالظروف التي أدت إلى قيام التظاهرات، أنا على ثقة من أن ما من أحد منكم يرغب بأن يستكين للإقتناع بذلك الضرب من التحليل الاجتماعي السطحي الذي يبحث في التأثيرات وحسب ولا يتناول القضايا الأساسية، أنه لمن المؤسف قيام التظاهرات في بيرمنغهام، ولكن الأكثر مدعاة للأسف هو أن هيكل السلطة من البيض في المدينة لم يتركوا لمجتمع الزنوج أي خيار آخر.

في أي حملة سلمية هناك أربع خطوات أساسية: جمع الحقائق لتحديد عما إذا كان الظلم موجوداً، التفاوض، التطهير الذاتي، والعمل المباشر. قد مررنا ببيرمنغهام بكل هذه الخطوات، ولا يمكن أن يكون هناك من ينكر حقيقة أن الظلم العرقي يطبق على هذا المجتمع، وربما كانت بيرمنغهام هي المدينة التي يتمكن منها الفصل العنصري على أشد ما يكون في الولايات المتحدة، وسجلها البشع من القسوة معروف على نحو واسع. لقد مرّ الزنوج بمعاملة تتسم بالظلم الفادح في المحاكم، وفي بيرمنغهام قضايا تخص تفجير منازل وكنائس زنوج لم يكشف عن فاعليها أكثر من أي مدينة أخرى في البلاد.

هذه هي الحقائق القاسية والثابتة لهذه الحالة، وبناءاً على هذه الظروف، سعى قادة الزنوج للتفاوض مع قادة المدينة، ولكنهم رفضوا بعناد الانخراط في مفاوضات صادقة.

في شهر سبتمبر/ أيلول 1962، سنحت الفرصة للتحدث مع

قادة القطاع الاقتصادي في بيرمنغهام، وأثناء تلك المفاوضات، قطعت بعض الوعود من قبل التجار ـ وعلى سبيل المثال ـ بأن يزيلوا اليافطات المهينة عرقياً من المحلات (وهي اليافطات التي تعلن أن متجراً ما يمنع دخول السود). وبناءاً على هذه الوعود وافق الأب الفاضل فريد شوتيلزورث وقادة الحركة المسيحية لحقوق الإنسان في ألاباما على قرار رسمي بتعليق كافة التظاهرات، ومع مرور الأسابيع والشهور، تبين لنا أننا ضحايا لوعود منكوثة، فالقلة من اليافطات التي أزيلت، عادت من جديد، أما بقية اليافطات فقد بقيت على حالها.

وكما في تجاربنا السابقة، فقد قضي على آمالنا وخيم علينا الإحباط العميق بظله، ولم يكن لدينا أي خيار سوى أن نبدأ بالتحضير لعمل مباشر، حيث نكون على استعداد لأن نقدم أجسادنا ذاتها كوسائل لعرض قضيتنا أمام ضمير المجتمع المحلي والقومي، وإدراكاً منا لما يقتضيه ذلك من صعوبات، فقد قررنا أن نشرع في عملية تطهير ذاتي، وبدأنا بسلسلة من حلقات الدراسة عن اللاعنف، وسألنا أنفسنا مراراً: «هل نحن قادرون على تلقي الضربات من دون أن نرد؟»، «هل نحن قادرون على احتمال محنة السجن؟». ثم قررنا أن يكون موعد برنامج العمل المباشر في موسم عيد الفصح، مدركين أنه فترة التسويق الرئيسية في السنة، إلى جانب عيد الميلاد، ولمعرفتنا بأن برنامجاً من الانقطاع الاقتصادي سيكون الحصيلة الثانوية للعمل المباشر، فإننا شعرنا بأن هذا الوقت سيكون الوقت الأنسب لوضع الضغط على التجار من أجل إجراء التغييرات اللازمة.

بعد ذلك خطر لنا أن انتخابات البلدية في بيرمنغهام ستجري في شهر آذار/ مارس 1964م، وقررنا بسرعة أن نؤجل العمل حتى ما بعد يوم الانتخابات، وعندما اكتشفنا بأن مفوض الدفاع المدني

أيوجين كونر والملقب بـ «الثور» قد جمع أصواتاً كافية للمنافسة في الدورة النهائية للانتخابات، قررنا تأجيل العمل من جديد إلى ما بعد يوم الانتخابات للدورة النهائية حتى لا يتم استخدام التظاهرات لحجب القضايا الأساسية، لقد انتظرنا لنرى السيد كونر يُهزم في الانتخابات، ومن أجل هذا الهدف فإننا احتملنا التأجيل تلو التأجيل، وبعد أن ساعدنا على إنجاز هذه الحاجة الاجتماعية، شعرنا بأن عملنا المباشر لا يمكن تأجيله أكثر من ذلك.

يمكن أن تتساءلوا كذلك: «لماذا العمل المباشر؟ لماذا الاعتصام (في المطاعم)[1] Sit-ins والمسيرات وإلى آخر ذلك؟ أليست المفاوضات طريقاً أفضل؟». أنتم على حق تماماً في دعوتكم للمفاوضات، بل إن هذا هو الهدف الحقيقي للعمل المباشر، إن العمل المباشر اللاعنفي يسعى لخلق نوع من الأزمة ولبذر نوع من التوتر بحيث يجعل المجتمع الذي كان على الدوام يرفض الدخول في مفاوضات مجبراً على مواجهة القضية، إن العمل المباشر يسعى لهذا حتى يثير القضية بصورة درامية بحيث لا يمكن تجاهلها بعد ذلك. إن دعوتي لخلق التوتر كجزء من العمل لدعاة اللاعنف قد تبدو مروعة، ولكن عليّ أن أعترف بأنني لا أخشى من كلمة «التوتر»، لقد عارضت التوتر العنفي، ولكن هناك نوعاً من التوتر اللاعنفي البناء وهو ضروري للنمو، تماماً كما شعر سقراط بأنه من الضروري خلق توتر في العقل حتى يتمكن الأفراد من الارتقاء من عبودية الأساطير وإنصاف الحقائق

(1) في فترة الفصل العنصري في أمريكا كان السود والملونون يُمنعون من دخول المطاعم والأماكن العامة المخصصة للبيض، واحتجاجاً على هذا الأمر، كان دعاة حركة الحقوق المدنية يدخلون إلى هذه المطاعم ويجلسون فيها ويرفضون الخروج حتى لو تعرضوا للضرب، وقد دعي هذا الأسلوب Sit-ins.

إلى عالم التحليل الخلاق والتقييم الموضوعي المتحرر من الأغلال، فهل بإمكاننا أن نرى الحاجة إلى المهماز اللاعنفي لخلق ذلك النوع من التوتر في المجتمع، الذي سيساعد الناس للارتقاء من الأعماق المظلمة للتحيز والعنصرية إلى الأهداف العظيمة للتفهم والإخاء.

إن الهدف من برنامجنا للعمل المباشر هو خلق وضع مشحون بالتأزم بحيث يحتم فتح باب المفاوضات، ولهذا فأنا أتفق معكم في دعواكم للمفاوضات، فلطالما كان جنوبنا الحبيب غائصاً في الجهود المؤسسية للعيش في حوار ذاتي Monologue بدلاً من الحوار المتبادل Dialogue، كانت إحدى النقاط الأساسية في بيانكم هي أن العمل الذي قمنا أنا وزملائي به في بيرمنغهام كان في غير وقته، وقد يتساءل البعض: «لماذا لم تمنحوا الإدارة الجديدة للمدينة وقتاً لكي تتصرف؟». إن الإجابة الوحيدة التي أستطيع إعطاءها عن هذا التساؤل هو أنه من الواجب حث الإدارة الجديدة بذات المقدار كما للإدارة السابقة، وقبل أن تقوم بالتصرف، إذ أننا سنكون مخطئين بصورة مؤسسية إذا شعرنا بأن انتخاب ألبرت بوتويل كرئيس للبلدية سيجلب السعد لبيرمنغهام، ففي حين أن السيد بوتويل شخص أكثر لطفاً من السيد كونر بكثير، إلا أن كلاهما من مؤيدي الفصل العنصري وملتزمان بالإبقاء على الوضع الراهن، أن الأمل يحدوني بأن السيد بوتويل سيكون عقلانياً بما يكفي لأن يرى عبث المقاومة الكبيرة للاندماج العرقي، ولكنه لن يرى ذلك من دون الضغط قانوني لاعنفي عازم. ومما يبعث على الأسى أنه من الحقائق التاريخية أن المجموعات المتمتعة بالامتيازات نادراً ما تتناول عن امتيازاتها طواعية، فقد يرى الأفراد النور الأخلاقي ويتخلون طوعياً عن وضعهم المنافي للعدل، ولكن، وكما ذكرنا فإن الجماعات تنزع لأن تكون

أكثر لاأخلاقية مما هو الحال لدى الأفراد.

نعرف من خلال تجربتنا المؤلمة بأن الحرية لا تعطى أبداً طواعية من قبل المضطهَد، إذ يجب أن يطالب بها من قبل المضطهِد. وبصراحة، أنا لم أشرع في حملة عمل مباشر «في الوقت الملائم»، فقط من وجهة نظر أولئك الذين لم يُعانوا من مرض الفصل العنصري بإفراط. ومنذ سنوات وأنا أسمع كلمة «انتظر!»، وهي ترن في أذن كل زنجي بصورة مألوفة بحدة. إن كلمة «انتظر» هذه كانت دائماً تعني ما يشبه القول «أبداً لن يكون»، يجب أن نأتي إلى الفهم بأنه، وكما قال أحد خبرائنا القانونيين الممتازين: «تأخر العدل لوقت طويل هو إنكار للعدل».

•

لقد انتظرنا ما يزيد على ثلاثمائة وأربعين سنة للحصول على حقوقنا الدستورية والممنوحة من الله، إن الأمم في آسيا وإفريقيا تتحرك بسرعة نحو كسب الاستقلال السياسي، ولكن نحن ما نزال نزحف بسرعة الحصان والعربة نحو كسب أن نشرب فنجاناً من القهوة على طاولة مطعم. وربما كان من السهل على هؤلاء الذين لم يشعروا أبداً بوخز نبال الفصل العنصري أن يقولوا «انتظر»، ولكن عندما تكون قد رأيت الرعاع يعدمون الآباء والأمهات من قومك ساعة يشاؤون، ويتخلصون من أخوتك وأخواتك من أجل نزوة، عندما تكون قد رأيت شرطياً مملوءاً بالحقد يشتم ويركل وقد يقتل أخوتك وأخواتك السود، عندما ترى الأغلبية الساحقة من إخوانكم الزنوج العشرين مليون يختنقون في أقفاص الفقر المحكمة في وسط مجتمع الوفرة، عندما تجد أن لسانك قد التوى فجأة وأنك تتلعثم بالكلام إذ تريد أن تشرح لطفلتك ذات الست سنوات لماذا هي لا تستطيع أن تذهب إلى الحديقة الترفيهية والتي قد أعلن عنها للتو في التلفزيون، وعندما ترى

غيوم الدونية المشؤومة وقد أخذت تتشكل في مداها الروحي الصغير، وترى شخصيتها قد بدأت تتشوه بتشكل كراهية لاواعية نحو الناس البيض، عندما يكون عليك أن تختلق جواباً لطفلك ذي الخمس سنوات إذ يسأل: «بابا، لماذا يقوم الناس البيض بمعاملة الناس الملونين بهذه النذالة؟». عندما تسوق سيارتك عبر البلاد وتجد أنه من المحتم عليك أن تنام الليلة تلو الليلة في الزاوية غير المريحة لسيارتك، لأنه ليس هناك فندق يقبلك، عندما تُهان يوماً بعد يوم باليافطات العنصرية التي تقول «بيض» و «ملونون»، عندما يُصبح اسمك الأول «زنجي»[1] واسمك الأوسط «ولد» (مهما كان عمرك) ويصبح اسم الأخير «جون»[2]، أما زوجتك وأمك فلا تُمنحان أبداً لقب الاحترام «السيدة كذا»، عندما تُنهك في النهار وتأرق في الليل بحقيقة أنك زنجي وتعيش دوماً بتوجس ولا تعلم أبداً ما عليك أن تتوقع في ما يأتي، وعندما تُبتلى بمخاوف داخلية وغيظ خارجي، عندما تُصارع للأبد شعوراً بأنك «نكرة»، عندما ستفهم لماذا نجد أنه من الصعب علينا الانتظار، ويأتي الوقت الذي تفيض فيه الكأس، وعندما يصبح الرجال غير مستعدين للانزلاق في هاوية اليأس، أنا آمل يا سادة، أنه بإمكانكم أن تتفهموا نفاد صبرنا المشروع والمحتوم.

لقد عبرتم عن مقدار كبير من القلق بسبب إقبالنا على كسر القوانين، وهذا قلق مشروع بالتأكيد، إذ أننا نحن بدورنا نحث الناس

---

(1) Nigger وتعني «زنجي» تحمل في اللغة الإنكليزية معاني من الازدراء والتحقير، ولكن الكلمة العربية لا تعني هذا المضمون، إذ أنها تدل على تصنيف عرقي محايد، والرديف العربي لكلمة Nigger هي كلمة «عبد» أو «عبيد»...

(2) John (جون) اسم إنكليزي شائع، ولكن مناداة أفراد فئة عرقية معينة باسم واحد دائماً يدل في الثقافة الغربية إجمالاً على الاستخفاف، وهو يشبه في العربية مناداة الأفراد السود جميعاً بلقب «أبو سمرة» من باب الاستهانة.

بكل اجتهاد على طاعة قرار المحكمة العليا الصادر في العام 1954 والذي يحظر الفصل العنصري في المدارس العامة، ولأول وهلة قد تبدو دعوتنا لكسر القوانين بأنها تناقض من قبلنا، وقد يتساءل المرء كذلك: «كيف لك أن تناصر كسر بعض القوانين والامتثال لقوانين أخرى؟»، وتكمن الإجابة في حقيقة أن هناك نوعين من القوانين: ظالمة وعادلة، وسأكون أول من يناصر الامتثال للقوانين العادلة، فليس على المرء مسؤولية قانونية فقط للامتثال للقوانين العادلة، بل مسؤولية أخلاقية كذلك. وفي مقابل ذلك، وهنا فإني اتفق مع القديس أوغسطين بقوله: «القانون الظالم ليس بقانون على الإطلاق».

فما هو الفرق بين هذين النوعين؟ وكيف يستطيع المرء أن يقرر إن كان قانون ما عادلاً أم ظالما؟ إن القانون العادل هو دستور من صنع الإنسان ينسجم مع القانون الأخلاقي أو قانون الإله، والقانون الظالم هو دستور يخرج عن الانسجام مع القانون الأخلاقي، ولنعبر عن الأمر بكلمات القديس توما الأكويني: «القانون الظالم هو قانون إنسان لا جذور له في قانون الطبيعة السرمدي. إن أي قانون يرتقي بالشخصية هو قانون عادل وأي قانون يحط الشخصية الإنسانية هو قانون ظالم. إن كل تشريعات الفصل العنصري ظالمة لأن الفصل العنصري يشوه الروح ويؤذي الشخصية. أنه يعطي القائم على الفصل شعوراً زائفاً بالتفوق، ويعطي المفصول عنصرياً شعوراً زائفاً بالدونية، إن الفصل العنصري، واستخدم هنا مصطلحات الفيلسوف مارتين بوبر، يستبدل علاقة «الأنا ـ الآخر» بعلاقة «الأنا ـ الشيء». وينتهي بحط مرتبة الأشخاص إلى مرتبة الأشياء. وهكذا، فالفصل العنصري ليس فاسداً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً فقط، بل إنه إثم وخطأ أخلاقي، لقد قال بول تيليتش إن الإثم هو انفصال. أليس الفصل

العنصري تعبيراً وجودياً عن الانفصال المأساوي للإنسان وغربته البشعة وإثمه الفظيع؟ لهذا فإن بإمكاني أن أحث الرجال على الامتثال لقرار المحكمة العليا الصادر في العام 1954، لأنه سليم أخلاقياً، وبإمكاني أن أحثهم على عصيان أوامر الفصل العنصري لأنها فاسدة أخلاقياً.

لنستعرض مثالاً أكثر تحديداً للقوانين العادلة والظالمة، أن القانون الظالم هو دستور تقوم به مجموعة تشكل أغلبية عددية أو سلطوية بإجبار مجموعة تشكل أقلية على الامتثال لـ (القانون) بينما لا يلزم هذا القانون الأغلبية ذاتها، وهذا تمييز مقنن. وبالمعيار ذاته، فإن القانون العادل هو دستور تقوم الأغلبية بإجبار الأقلية على أتباعه وتكون الأغلبية ذاتها مستعدة لاتباعه أيضاً، وهذا تماثل مقنن.

دعوني أعطي توضيحاً آخر، إن قانوناً ما يكون ظالماً إذا شمل أقلية ما ولم يكن لها دور في سنّه أو استنباطه كنتيجة لحرمانها من حق التصويت. فمن يستطيع القول بأن مشروع ألاباما الذي أعد قوانين الفصل العنصري لتلك الولاية كان قد انتخب ديمقراطياً، ففي كل ألاباما استخدمت كافة الأساليب الملتوية لمنع الزنوج من أن يصبحوا مُنتخبين مسجلين، وهناك بعض المحافظات ليس فيها زنجي واحد مسجل رغم أن الزنوج يشكلون فيها أكثرية عددية سكانية، فهل من الممكن اعتبار أي قانون سن تحت هذه الظروف بأنه منشأ ديمقراطياً؟

أحياناً يكون القانون عادلاً في مظهره وظالماً في تطبيقه، فعلى سبيل المثال، تم اعتقالي هنا بتهمة التظاهر من دون الحصول على ترخيص رسمي، والآن، ليس هناك أي خطأ في أن يكون لدينا أنظمة

تقتضي الحصول على ترخيص من أجل القيام بتظاهرة، ولكن نظاماً كهذا يصبح ظالماً عندما يستخدم للإبقاء على الفصل العنصري ولحرمان المواطنين من حقهم المكتسب بالتجمع السلمي والاحتجاج بمقتضى التعديل الأول للدستور.

أتمنى أن تكونوا قادرين على رؤية التمييز الذي أحاول أن أشير إليه، فلست بأي حال من الأحوال أناصر الخروج على القوانين وتحديها، كما قد يفعل مناصرو الفصل العنصري المسعورون، فذلك سيؤدي إلى الفوضى، على المرء الذي يكسر قانوناً ظالماً أن يفعل ذلك على الملأ وبمحبة وأن يكون مستعداً لتقبل العقوبة، إنني أؤكد على أن الشخص الذي يكسر قانوناً يدله ضميره على أنه قانون ظالم، والذي يستعد لتقبل عقوبة السجن لكي يستنهض ضمير المجتمع على ظلمه، هذا الشخص في الواقع إنما يُعبر عن أقصى الاحترام للقانون.

ليس هنالك أي شيء جديد بخصوص هذا النوع من العصيان المدني، فقد ظهر في أرفع أوجهه في رفضه الأمور، على أساس أن قانوناً أخلاقياً أعلى كان تحت الرهان، كما تم تطبيقه بجلال من قبل المسيحيين الأوائل، والذين كانوا مستعدين لمواجهة الأسود الجائعة والعذاب الأليم لتهشيم الأعضاء على أن يخضعوا إلى قوانين ظالمة محددة للإمبراطورية الرومانية، وبشكل ما، فإن الحرية الأكاديمية إنما هي واقع الآن بفضل تطبيق سقراط للعصيان المدني. وفي أمتنا نحن فإن (حفلة الشاي في بوسطن)[1] قد مثلت فعلاً هائلاً للعصيان المدني.

---

(1) انطلقت الثورة الأمريكية على الحكم البريطاني بسبب رفض البريطانيين تخصيص مقاعد في البرلمان للأمريكيين ورفع الأمريكيون شعار «لا ضرائب من دون تمثيل». وفي بوسطن قامت مجموعة من الثوار بالصعود إلى سفينة انكليزية محملة بصناديق شاي، وقامت المجموعة برمي محتويات السفينة إلى البحر احتجاجاً على =

عليّ أن أعترف لكم باعترافين، أولاً: عليّ أن أعترف بأنه قد خاب ظني بالمعتدلين البيض خلال السنوات القليلة الماضية، وتوصلت تقريباً إلى الاستنتاج المؤسف بأن العقبة الأكبر أمام الزنوج في طريق تقدمهم نحو الحرية ليست مجلس المواطنين البيض أو أعضاء جمعية كوكلوكس كلان، ولكنها تتمثل بالمعتدل الأبيض الذي يلتزم بـ «النظام» أكثر من التزامه بالعدل، والذي يفضل السلام السلبي الذي يتمثل بغياب التوتر على السلام الإيجابي الذي يتمثل بوجود العدل، وهو من يقول باستمرار: «أنا أتفق معك على الهدف الذي تسعى لأجله، ولكنني لا أستطيع الموافقة على أساليبك بالعمل المباشر». والذي يعتقد وبالطريقة الأبوية أن بإمكانه أن يعد البرنامج الزمني لتحرر رجل آخر، الذي يعيش بفكرة أسطورية عن الوقت والذي ينصح الزنوج باستمرار على الانتظار «لموسم أنسب»، إن الفهم السطحي من قبل حسني النية من الناس، والقبول الفاتر لهو أشد إرباكاً من الرفض الصريح.

أملي أن يتفهم المعتدل الأبيض أن القانون والنظام موجودين لفرض تأسيس العدل، وأنهما عندما يخفقان في تحقيق هذا الغرض يصبحان السدود المقلقة الخطرة التي تحجز تدفق التقدم الاجتماعي، لقد تأملت بأن المعتدل الأبيض سيتفهم بأن التوتر الحالي في الجنوب ما هو إلا مرحلة ضرورية في التحول من السلم السلبي البغيض حيث يتقبل الزنجي مأزقه، فإننا لسنا نحن المنخرطين في العمل اللاعنفي المباشر من تسبب بهذا التوتر، نحن قمنا فقط بإخراج التوتر المخفي

= ضريبة الشاي. ومنذ ذلك الوقت أصبحت هذه الواقعة تُدعى The Boston Tea Party وتعني حرفياً «حفلة الشاي في بوسطن».

والموجود بالفعل إلى السطح، نحن أبرزناه على الملأ، حيث من الممكن رؤيته ومعالجته، مثل الجرح الذي لم يمكن معالجته ما دام مغطى، ولكن يجب الكشف عنه بكل بشاعته (لتحريضه) لعلاج النور والهواء الطبيعي، ويجب أن يكشف عن الظلم، بكل التوتر الذي يخلقه الكشف عنه، إلى نور الضمير الإنساني وإلى هواء الرأي العام القومي قبل أن نتمكن من معالجته.

زعمتم في بيانكم بأن أعمالنا، وإن كانت سلمية، فإنه من الواجب استنكارها، لأنها تؤدي إلى العنف. ولكن أهذا زعم منطقي؟ أليس ذلك كاستنكار رجل تعرض للسرقة لأن امتلاكه للمال قد أدى إلى فعل السرقة؟ أليس ذلك كاستنكار سقراط لأن التزامه الذي لا يزيغ بالحقيقة وأبحاثه الفلسفية قد أدت إلى الفعل الذي قامت به العامة المُضلَلة والذي أجبروه به على تجرع السم؟ أليس ذلك كاستنكار يسوع لأن ضميره الفريد واستمراره بتكريس نفسه لمشيئة الله قد أديا إلى فعل الصلب؟ علينا أن نتمكن من الفهم أنه من الخطأ أن يطالب الفرد بالتوقف عن جهوده لاكتساب حقوقه الدستورية الأساسية لأن طلبه قد يؤدي إلى العنف، وهذا ما أكدته المحكمة الفيدرالية باستمرار، على المجتمع أن يحمي المسروق وأن يعاقب السارق.

لقد تأملت كذلك بأن المعتدل الأبيض سيرفض الخرافة المتعلقة بالزمن وعلاقته بالكفاح من أجل الحرية. لقد تسلمت رسالة من أخ أبيض من تكساس، وكتب فيها: «إن كل المسيحيين يعلمون بأن الناس الملونين سيحصلون على حقوق المساواة في النهاية، ولكن من الممكن أنك في استعجال ديني شديد، فلقد تطلب الأمر من المسيحية ألفي عام لكي تحقق ما لديها الآن، إن تعاليم المسيح تأخذ وقتاً في القدوم إلى الأرض». إن موقفاً كهذا ينشأ عن فهم خاطىء بصورة

مُسيسة للزمن، وعن المفهوم اللاعقلاني الغريب بأن هناك شيئاً ما في تيار الزمن بذاته هو شيء محايد، ويمكن استخدامه بشكل بناء أو بشكل هدام، وأنا أزداد قناعة بأن الناس من ذوي النوايا السيئة قد استخدموا الزمن بفاعلية أكثر بكثير من الناس ذوي النوايا الحسنة. سيكون علينا أن نتحسر في هذا الجيل، ليس بسبب كلمات وأفعال الكراهية من الأشرار فحسب، بل بسبب الصمت المفزع للناس الطيبين كذلك، إن التقدم الإنساني لا يأتي على دواليب الحتمية، بل يأتي من خلال الجهد الذي يبذله رجال، ومن دون هذا الجهد الشاق، فإن الزمن ذاته يصبح حليفاً لقوى الركود الاجتماعي، فعلينا أن نستخدم الزمن بإبداعية على ضوء أن الزمن مناسب دائماً لفعل الشيء الصحيح، الآن هو الوقت المناسب لتحقيق وعد الديمقراطية ولتحويل مراثينا القومية الوشيكة إلى مزامير خلاقة من الإخوة. الآن هو الوقت المناسب للارتقاء بسياساتنا القومية من وعث[1] الظلم العرقي إلى الصخرة الصلبة للكرامة الإنسانية.

(1) الوعث: المكان الليّن الذي تغيب فيه الأقدام ـ المعجم الوسيط.

الرسالة الثانية(*)

«لقد تحدثتم عن نشاطاتنا في بيرمنجهام بوصفها متطرفة. في البداية أصبت بخيبة أمل لأن أرى زملائي رجال الدين يعتبرون نشاطي يشبه نشاط المتطرفين وبدأت أفكر بحقيقة أنني أقف في الوسط بين قوتين متناقضتين في مجتمع الزنوج واحدة هي قوة اللامبالاة وتتكون في جزء منها من الزنوج الذين أصبحوا مستنزفين من احترام الذات ومن الشعور «بقيمتهم الشخصية Somebodiness نتيجة السنوات الطويلة من الاضطهاد بحيث أنهم تأقلموا مع الفصل العنصري، وتتكون (هذه الصورة) في جزء آخر من قلة من الزنوج المنتمين إلى الطبقة الوسطى الذين أصبحوا مستفيدين من الفصل العنصري بطريقة أو بأخرى بسبب حصولهم على درجة معينة من التحصيل الأكاديمي والأمن المادي وبالتالي أصبحوا غير متعاطفين مع مشاكل الجماهير، أما القوة الأخرى فهي قوة المرارة والكراهية وهي قوة تقترب من مناصرة العنف، بصورة محفوفة بالمخاطر، وتم التعبير عنها بمجموعات قومية متنوعة من السود وهي تنمو في طول البلاد وعرضها. أما أكبرها

(*) **المرجع:** عبد القادر البريفكاني «المحررون أعظم قادة القرن العشرين». مطابع الأهرام. القاهرة. الطبعة الأولى 2001. ص 616 ـ 625. وأيضاً في كتاب «مارتن لوثر كينغ». حركة حقوق الناس. بيروت. الطبعة الأولى 1999.

وأوسعها شهرة فهي حركة الأييجا محمد الإسلامية، تغذت هذه الحركة من إحباط الزنوج بسبب الوجود المستمر للتمييز العرقي، فتكونت من أناس فقدوا إيمانهم بأميركا وتبرأوا تماماً من مسيحيتهم وتوصلوا إلى نتيجة مفادها أن الرجل الأبيض هو «شيطان» لا سبيل إلى إصلاحه.

لقد حاولت أن أقف في ما بين هاتين القوتين قائلاً: إننا لا نريد أن نحاكي دعاة الامتناعية ـ عن الفعل Do Nothingism اللامبالين ولا أن نحاكي كراهية ويأس القوميين السود. لأن هناك طريق المحبة والاحتجاج اللاعنفي الأحسن كثيراً، أن أشكر الله على أن طريق اللاعنف، وبفضل تأثير كنائس الزنوج قد أصبح جزءاً عضوياً من كفاحنا.

لو كانت هذه الفلسفة (اللاعنف) لم تبزغ، فأنا على قناعة بأن كثيراً من شوارع الجنوب كانت قد أصبحت تفيض بالدم الآن، وأنا على قناعة أقوى من أنه إذا قام إخواننا البيض بنبذنا نحن الذين نستخدم العمل المباشر اللاعنفي على أننا «مثيرو فتن» و «محرضون غرباء» وإذا رفض إخواننا البيض دعم جهودنا وفق أسلوب اللاعنف فإن الملايين من الزنوج سوف يسعون إلى عقائد القوميين السود من أجل السلوان والأمن من جراء الاحباط واليأس، وهذا تطور من شأنه حتماً أن يقود إلى كابوس عرقي مرعب.

ليس في وسع الناس المضطهدين أن يظلوا مضطهدين إلى الأبد، إذ أن التوّقُ للحرية يتجلى في النهاية، وهذا ما حدث للزنجي الأمريكي فإذا ذكره شيء في داخله بحقه المكتسب منذ الولاية بالحرية، وذكره شيء رآه (لدى الأمم المختلطة) بأن ذلك يمكن أن يكتسب في وجدانه سواء عن وعي أم لا وعي فقد أدركته روح

العصر، ومع أجوبة السود في أفريقيا وإخوانه السمر والصفر في آسيا وأميركا وبلاد الكاريبي فإن زنجي الولايات المتحدة يتحرك بشعور عارم يبحث عن أرض العدالة العرقية الموعودة، فإذا أدرك المرء أمر هذا الدافع الحيوي الذي يغمر مجتمع الزنوج فعليه أن يفهم بيسر لماذا تجري التظاهرات العامة الآن.

إن لدى الزنجي الكثير من السخط المكظوم ومن الخيبات المستترة، وعليه أن ينفس عنها، لذا دعوه يسير في المظاهرات، دعوه يذهب في رحلة حج إلى مقر البلدية، دعوه يذهب في رحلات الدعوة للحرية، وحاولوا أن تفهموا لماذا عليه أن يفعل ذلك، فإن لم تنفرج عواطفه المكبوتة بطريق اللاعنف، فإنها سوف تسعى للتعبير عن ذاتها بالعنف وهذا ليس تهديداً وإنما حقيقة تاريخية، ولهذا أنا لم أقل لشعبي «تخلصوا من سخطكم» بل حاولت أن أقول إن هذا السخط الطبيعي والسليم من الممكن أن يوجه نحو المتنفس الخلاق للعمل المباشر اللاعنفي والآن ها هو هذا المسار يسمى تطرفاً.

لكن ورغم أنني قد أصبت بخيبة أمل في البداية إذ أصنف كمتطرف، إلاّ أنني وقد تابعت التفكير في هذا الأمر، أخذت تدريجياً أحظى على قدر من الرضا من هذا اللقب. ألم يكن المسيح عليه السلام متطرفاً بالحب إذ يقول: «أما أنا أقول لكم أحبوا أعداءكم وأحسنوا إلى من يبغضكم وصلّوا من أجل من يعنتكم ـ أي من يوقعكم في مشقة وشدة ـ ويضطهدكم» ـ (إنجيل متّى، 5: 44 ـ العهد الجديد). ألم يكن عاموس متطرفاً بالعدل إذ يقول: «بل يبحر القضاء كالمياه والعدل كنهر لا ينقطع» ـ (نبوءة عاموس 5: 25 ـ العهد القديم)، ألم يكن بولس متطرفاً بالبشارة المسيحية إذ يقول: «... فإني حامل في جسدي سمات المسيح» ـ (رسالة القديس بولس إلى أهل غلاطية

17:6 العهد الجديد)، ألم يكن مارتن لوثر كينج متطرفاً إذ يقول: «هذا هو موقفي، لا أستطيع خلاف ذلك فساعدني يا إلهي»، وكذلك جون بونيان إذ يقول: «أفضل أن أبقى في السجن حتى آخر أيامي على أن أقوم بمجزرة لضميري»، وإبراهام لنكولن: «لا يمكن لهذه الأمة أن يعيش نصفها عبيد ونصفها أحرار» وتوماس جيفرسون: «نحن نعدها من الحقائق الواضحة بذاتها أن جميع الناس قد ولدوا متساوين...».

السؤال هو إذا كنا سنعتبر متطرفين، أي نوع من المتطرفين سنكون: أنكون متطرفين للكراهية أم للمحبة؟ أنكون متطرفين لإدامة الظلم أم لنشر العدل؟ وفي ذلك المشهد المأساوي على تلة كان هناك ثلاثة رجال مصلوبين، وعلينا ألا ننسى أبداً أن الثلاثة جميعهم كانوا مصلوبين بسبب الجريمة نفسها ـ جريمة التطرف. اثنان كانا متطرفين بالجرم، وبهذا كانا أدنى من محيطهما، أما الآخر يسوع المسيح فقد كان متطرفاً بالمحبة والحقيقة والخير وبذلك فقد ارتقى عن محيطه، لعل الجنوب والبلاد والعالم في أمس الحاجة إلى المتطرفين الخلاقين.

إن المعتدل الأبيض سيرى هذه الحاجة، ربما كنت أفرطت بالتفاؤل، ربما كنت انتظرت منهم أكثر من اللازم، أظن أنه كان عليّ أن أتبين أن قلة من أفراد العرق المضطهد بإمكانها أن تفهم الأنين العميق والتوق العاطفي للعرق المضطهد، وعدداً أقل من ذلك لديهم البصيرة ليروا أن الظلم يجب أن يجتث بواسطة العمل القوي والمثابر، ومع ذلك فأنا ممتن لأن بعضاً من إخواننا البيض في الجنوب قد أدركوا معنى هذه الثورة الاجتماعية وكرسوا أنفسهم لها، ورغم أنهم قلة قليلة بالعدد إلا أنهم كبار، وبعضهم مثل رالف ماكجيل وليليان سميث وهاري جولدن وجيمس ماكبيرو دابس وآن براون وسارة باتون بويل،

كتبوا عن كفاحنا بعبارات بليغة ومتبصرة، وقام آخرون بالمسير معنا في شوارع لا حصر لها في الجنوب، وقبعوا في سجون قذرة موبوءة وعانوا من أذى ووحشية رجال الشرطة الذين كانوا ينظرون إليهم بوصفهم «محبي زنوج قذرين» وعلى العكس من الكثيرين من إخوانهم وأخواتهم من البيض المعتدلين فإنهم ميزوا إلحاحية اللحظة واستشعروا الحاجة إلى إرادة قوية من «العمل» لمحاربة «مرض الفصل العنصري».

دعوني أشير إلى «سبب» خيبة أملي الأخرى، لقد خاب أملي بشدة من كنائس البيض وقياداتها، هناك بعض الاستثناءات المشرفة أنا لست غافلاً عن حقيقة أن كلاً منكم قد اتخذ مواقف بارزة في هذه القضية، فأنا أحييك أيها الكاهن الفاضل ستالنجر على وقفتك المسيحية المشرفة، إذ رحبت بالزنوج لحضور الطقوس الدينية التي أقمتها عى قاعدة عدم الفصل العنصري. كما أني أثمن دور قادة الكاثوليك في هذه الولاية لإجراء الدمج العنصري في كلية «سبرينج هيل» منذ عدة سنوات.

ولكن بالرغم من هذه الاستثناءات المشرفة فإنّ عليّ وبصدق أن أكرر أن أملي قد خاب بالكنيسة، وأنا لا أقول هذا كواحد من أولئك المنتقدين السلبيين الذين يجدون دائماً شيئاً ما خاطئاً بالكنيسة، إنما أقوله ككاهن أحب الكنيسة نشأت في وسطها وعشت ببركتها الروحية وسأبقى مخلصاً لها طوال العمر.

حينما صعدت قبل بضع سنوات إلى قيادة العمل الاحتجاجي لمقاطعة الحافلات في مدينة مونتغمري في ولاية ألاباما، ظننت أننا سنلقى الدعم من كنائس البيض، وظننت أن الكهنة ورجال الدين المسيحي والحاخامات البيض في الجنوب سيكونون من ضمن أقوى حلفائنا، وبدلاً من ذلك، فإن بعضهم كانوا معارضين تماماً ورفضوا

الحركة التحررية وتعرضوا بالذم لقياداتها، أما كثرتهم الباقية، فإنهم جميعاً التزموا جانب الحذر أكثر من الشجاعة وظلوا صامتين خلف الأمن المخدر لزجاج شبابيكهم المعتم.

وبالرغم من أحلامي المحطمة إلا أنني قدمت إلى برمنجهام على أمل أن قيادة البيض الدينية لهذا المجتمع ستدرك عدالة قضيتنا وتقوم باهتمام أخلاقي عميق بالعمل كقناة تمكن مظالمنا العادلة من الوصول عبرها إلى هيكل السلطة، لقد تأملت أنّ كل واحد منكم سيتفهم الأمر ولكني أصبت ومن جديد بخيبة أمل.

لقد سمعت عدداً كبيراً من القادة الروحيين الجنوبيين يحثون رعاياهم لأن يذعنوا لقرار الدمج العنصري لأنه من القانون، ولكن كم تمنيت أن أسمع كاهناً من البيض يعلن «اتبعوا هذا القرار لأن الاندماج هو الأصوب أخلاقياً ولأن الزنجي هو أخوكم» وفي وسط هذا الظلم الصارخ المفروض على الزنوج شاهدت رجال الكنيسة البيض يقفون موقف المتفرج ويتشدقون بأباطيل وبأمور دينية لا شأن لها بما يحدث تظاهراً بالتقوى. وفي وسط هذا الكفاح العظيم لتخليص أمتنا من الظلم العرقي والاقتصادي سمعت كثيراً من الكهنة يقولون: «تلك قضايا اجتماعية وليس للدين علاقة فعلية بها»، كما راقبت الكثير من الكنائس تكرس ذاتها لأمور دينية غيبية تماماً، وتفصل ذلك الفصل الغريب والبعيد عن تعاليم الكتاب ما بين الجسد والروح وما بين المقدس والدنيوي.

لقد تنقلت في ألاباما والمسيسيبي وكل الولايات الجنوبية، وفي أيام الصيف القائظة والخريف المنعشة، كنت أنظر إلى كنائس الجنوب الجميلة بأبراجها تشمخ في السماء، وعاينت الأشكال المؤثرة للمباني الدينية والتربوية الضخمة، وكنت أجد نفسي أتساءل «أي نوع من

الناس يتعبد هنا؟ أين كانت أصواتهم عندما كانت شفاه الحاكم بارين تقطر بكلمات الاعتراض والإبطال (إبطال قانون الولاية القاضي بالدمج العنصري)؟ أين كانوا حين قام الحاكم والاس بدعوة واضحة لتحدي القانون وللكراهية؟ أين كانت أصواتهم الداعمة حين قرر الرجال والنساء الزنوج، النهوض من زنزانات اللامبالاة المظلمة إلى التلال الوضاءة للاحتجاج الخلاق؟».

نعم، تلك الأسئلة لا تزال في ذهني، وكنت قد بكيت بخيبة أمل عميقة بسبب رضا الكنيسة، ولكن ثقوا بأن دموعي كانت دموع محبة فلا يمكن أن تكون هناك خيبة أمل عميقة من دون أن يكون هناك حب عميق. نعم أنا أحب الكنيسة، وكيف يمكن أن أفعل غير ذلك؟ بل إنني في وضع فريد فأنا ابن وحفيد وابن حفيد كهنة. نعم أنا أرى الكنيسة كجسد المسيح، ولكن كم شوهنا وجرحنا ذلك الجسد بواسطة الإهمال الاجتماعي وعن طريق الخوف من أن نصبح منشقين.

كان هناك وقت كانت الكنيسة قوية فيه، في الزمن الذي كان المسيحيون الأوائل يبتهجون فيه إذا اعتبروا مستحقين للعذاب بسبب ما يؤمنون به. في تلك الأيام، لم تكن الكنيسة مقياس الحرارة الذي يقيس أفكار ومبادىء الرأي العام فحسب، بل كانت منظم الحرارة الذي حول أعراف المجتمع، وكلما كان المسيحيون الأوائل يدخلون بلدة كان الناس الذين في السلطة يصابون بالقلق ويسعون لإدانة المسيحيين باعتبارهم «معكرين للأمن» و «محرضين غرباء». ولكن المسيحيين تابعوا راسخين إيمانهم بأنهم «جماعة من الفردوس» تدعو لطاعة الله بدلاً من طاعة الإنسان، ورغم أنهم كانوا قليلي العدد إلا أنهم كانوا كباراً بالتزامهم.

كان إيمانهم بالله أعظم من أن (يرضخوا) لـ «التهديد الجسيم»،

ووضعوا نهاية لشرور قديمة كقتل الأطفال ومصارعة المنافقين وذلك بجهودهم وبواسطة المثال الذي قدموه بـ (مسلكهم).

إن الأمور تختلف الآن، فالكنيسة المعاصرة وعلى الأغلب صوت ضعيف وغير ذي أثر، وبرسالتها غير واثقة، وغالباً ما تكون المدافع الرئيس عن الوضع الراهن، أما هيكل السلطة للمجتمعات العادية فإنه بعيد عن أن يكون قلقاً بسبب وجود الكنيسة الصامت ـ وكثيراً ما يكون الصريح ـ للأمور كما هي.

ولكن حكم الله فوق (حكم) الكنيسة الآن أكثر من أي وقت مضى، وإذا لم تعد كنيسة اليوم التقاط روح التضحية التي كانت للكنيسة القديمة فإنها ستفقد مصداقيتها وتفقد ولاء الملايين، وستنبذ بوصفها نادياً اجتماعياً لا علاقة له بالأحداث ولا معنى لهُ في القرن العشرين، وفي كل يوم التقي بشباب ممن تحولت خيبة أملهم من الكنيسة إلى اشمئزاز صريح.

ربما أكون قد أفرطت بالتفاؤل من جديد. أتكون منظمات الدين من شدة الارتباط بالوضع الراهن بحيث لا يمكن لها إنقاذ الأمة والعالم؟ ربما كان عليّ أن أتحول بإيماني إلى الكنيسة الروحية الداخلية، الكنيسة داخل الكنيسة، بوصفها الكنيسة النقية الحقيقية وأمل العالم، لكني أكرر بأنني شاكر لله على أن بعضاً من ذوي الأرواح النبيلة في فئات الدين النظامي قد تحرروا من أغلال الخضوع المثبطة وانضموا إلينا كشركاء نشيطين في الكفاح نحو التحرر، لقد تركوا محافلهم الآمنة ومشوا معنا في مدن ولاية جورجيا، وذهبوا معنا على طول الطرق السريعة للجنوب في رحلات عرجوا فيها على كل الأمكنة من أجل الدعوة للتحرر. نعم ذهبوا معنا للسجن، وطرد بعضهم من كنائسهم وفقدوا تأييد أساقفتهم وزملائهم الكهنة، ولكنهم

تصرفوا بناءً على الإيمان بأن الصواب المهزوم أقوى من الشر المنتصر، وكان وجودهم هو الروح الذي حفظ المعنى الحقيقي للإنجيل في تلك الأوقات العصيبة لقد شقوا نفقاً من الأمل عبر جبل خيبة الأمل المظلم.

إنني آمل أن تجابه الكنيسة بمجملها التحدي في هذه الساعة الحاسمة، ولكن حتى لو لم تنهض الكنيسة لمعاونة العدل، فأنا لست يائساً من المستقبل، وليس لدي آية مخاوف بخصوص حصيلة كفاحنا في برمنجهام حتى لو أسيء فهم دوافعنا في الوقت الحاضر، ولسوف نصل إلى هدفنا بالتحرر في برمنجهام وفي كل البلاد، لأن هدف أميركا هو التحرر، ومهما كنا مظلومين إلا أن مصيرنا مرتبط بمصير أميركا، فقبل أن يصل المهاجرون الأوائل إلى بلايموث (صخرة بلايموث المكان الذي حط فيه أول مركب للمهاجرين إلى الولايات المتحدة العام 1620 ويقع في ولاية ماساشوسيتس) كنا هنا وقبل أن يخط قلم جيفرسون الكلمات العظيمة لإعلان الاستقلال على صفحات التاريخ كنا هنا. ولقد ناضل أسلافنا لفترة تزيد عن القرنين ودون أجر في هذا البلد فصنعوا ملوك القطن وبنوا بيوت أسيادهم بينما هم يعانون من الظلم الفادح والإذلال، ومع هذا فقد استمروا بالتطور والازدهار بفضل إيمانهم الذي لا حد له، فإذا لم تتمكن العبودية بوحشيتها التي لا توصف من إيقافنا، فإن المعارضة التي نواجهها الآن ستخفق حتماً، نحن سنحقق تحررنا لأن التراث المقدس لأمتنا وإرادة الله الأبدية متجسدة في مطالبنا.

وقبل الختام أشعر بأنني مجبر على أن أشير إلى نقطة أخرى في بيانكم الذي أقلقتني بشدة، لقد حيّيتم قوات شرطة برمنجهام بحرارة لحفظها «النظام» و «لمنعها العنف»، وأنا أشك بأنكم كنتم ستحيّون

قوات الشرطة بهذه الحرارة لو كنتم شاهدتم كلاب الشرطة تغرس أسنانها في أجساد سود مسالمين عزل، وأشك بأنكم كنتم ستحيّون رجال الشرطة بمثل هذه السرعة لو قدر لكم أن تشاهدوا معاملتهم البشعة واللاإنسانية للزنوج هنا في سجن المدينة، أو لو قدر لكم أن تشاهدوهم وهم يدفعون ويشتمون النساء الزنجيات المسنات والبنات الزنجيات اليافعات، أو قدر لكم أن تشاهدوهم يصفعون ويركلون الرجال الزنوج المسنين والأولاد الصغار، أو قدر لكم أن تراقبوهم وهم يمنعون عنا الطعام (في السجن) لأننا نريد أن نرتل تراتيل الصلاة معاً، لقد فعلوا ذلك بنا مرتين. أنا لا يمكنني أن أنضم إليكم في ثنائكم على دائرة الشرطة في برمنجهام.

صحيح أن الشرطة مارست حداً معيناً من الانضباط في معالجة المظاهرات، ضبطوا أنفسهم لدرجة من اللاعنف لأنهم كانوا أمام الجمهور، ولكن لأي هدف؟ لكي يحفظوا نظام الفصل العنصري الخبيث، لقد كنت أطالب خلال السنوات القليلة الماضية بأن اللاعنف يتطلب أن تكون الوسائل التي نستعملها بنقاء النتائج التي نسعى إليها، كما حاولت أن أوضح أنهُ من الخطأ استعمال وسائل لاأخلاقية لتحقيق نتائج أخلاقية، ولكن عليّ أن أؤكد الآن أنهُ كان خطأ شديداً، استعمال وسائل أخلاقية لتحقيق نتائج لاأخلاقية، لربما كانت الشرطة وقائدها غير عنيفين أمام الملأ، ولكنهم استعملوا وسائل اللاعنف الأخلاقية من أجل الإبقاء على أهدافهم اللاأخلاقية بالظلم العرقي، وكما قال ت.س. إليوت: «الإغواء الأخير هو الخيانة العظمى أن تفعل الأشياء الصحيحة للأسباب الخاطئة».

أتمنى لو أنكم كنتم قد حييّتم الزنوج المعتصمين والمتظاهرين في برمنجهام على شجاعتهم السامية ولاستعدادهم للمعاناة ولانضباطهم

المدهش وسط الاستفزازات الهائلة، ويوماً ما سيعترف الجنوب بأبطاله الحقيقيين الذين سيكونون مثل جيمس ميريدين (أول طالب أسود يلتحق بجامعة المسيسيبي بعد أن صدر قانون فيدرالي يجبر الجامعات في الولايات المتحدة على تطبيق الدمج العنصري، ولكنه تعرض لسخرية ومضايقات الطلبة البيض في الجامعة ومن ثم قتل في العام نفسه 1962، ومنذ ذلك الوقت أصبح أحد الرموز النضالية في حركة تحرير السود في أميركا). وسيكون منهم نساء زنجيات مسنات مضطهدات ومسحوقات بشعور الوحدة الذي يميز حياة الرواد، ويتمثلن بتلك المرأة العجوز في مونتغمري في ولاية ألاباما البالغة من العمر اثنين وسبعين عاماً التي ناهضت بحس من الكرامة وبقرار شعبها بألا يركبوا في الحافلات التي تطبق التمييز العنصري.

روزا باركس Rosa Parks هذه السيدة التي أجابت بدون فصاحة نحوية على سائل سألها عن إرهاقها فقالت: «قدميّ متعبتان ولكن روحي في راحة تامة My feet are tired, but my soul is at rest». هؤلاء الأبطال سيكونون طلاب المدارس والكليات اليافعين، وسيكونون كهنة الإنجيل الشباب وثلة من شيوخ الكنائس.

هؤلاء الذين جلسوا بشجاعة وبلا عنف على طاولات المطاعم مستعدين للذهاب للسجن من أجل راحة ضميرهم ويوماً ما سيعرف الجنوب بأنه عندما جلس أبناء الله المحرومون هؤلاء على طاولات المطاعم كانوا في الواقع يدافعون عن أحسن ما في الحلم الأمريكي وعن أقدس القيم في تراثنا اليهودي ـ المسيحي ـ الإسلامي، وبذلك كانوا يعيدون أمتنا إلى آبار الديمقراطية التي حفرت عميقاً من قبل الأباء المؤسسين بصياغتهم للدستور وإعلان الاستقلال.

لم يسبق لي أبداً أن كتبت رسالة بهذا الطول وأخشى أنها شديدة الطول بحيث تأخذ من وقتكم الثمين وأستطيع أن أؤكد لكم أنها ستكون أقصر كثيراً لو أنني كتبتها على مكتبي المريح، ولكن ما عسى المرء أن يفعل عندما يكون وحيداً في زنزانة سجن ضيقة غير أن يكتب رسائل طويلة وأن يفكر بأفكار طويلة وأن يصلي صلوات طويلة؟

إذا كنت قد قلت في هذه الرسالة أي شيء يبالغ بالحقائق ويشير إلى نفاد صبر لا مسوغ له فأرجو منكم الصفح، وإذا كنت قد قلت أي شيء يخفف من وقع الحقيقة ويشير إلى أنني أملك صبراً يتيح لي أن أقبل أيّ شيء أقل من الإخاء فأرجو من الله الصفح.

أتمنى أن تصلكم هذه الرسالة وأنتم أقوياء بإيمانكم، وأتمنى أيضاً أن تسمح لي الظروف قريباً بأن ألقى كل واحد منكم، لا بصفتي من دعاة الدمج العنصري أو من قادة حركة الحقوق المدنية، ولكن بصفتي كاهناً زميلاً لكم وأخاً، دعونا نأمل جميعاً بأن غيوم التمييز العرقي الداكنة ستذهب سريعاً إلى البعيد وأن ضباب سوء الفهم سينقشع عن مجتمعاتنا الغارقة بالخوف، وأنه في غد ليس ببعيد ستتشع نجوم المحبة والأخوة المتلألئة بكل جمالها المتألق على أمتنا العظيمة[1].

لأجل قضية السلام والأخوة:

المخلص لكم مارتن لوثر كينج

---

(1) Martin Luther King explains non-violent resistance, in William Katz, The Negro in American History, New York, Pitman, 1967, pp.511-513.
-Letter from Birmingham Jail, M. Luther King, Volume 1, Called to serve Berkeley, University of California Press, 1992, pp.359-363.

واشنطن 28 آب 1963 (*)

احتفالاً بالذكرى المئوية الأولى لإلغاء العبودية تجمّع أكثر من 250,000 شخص، خمسهم من البيض، أمام نصب الرئيس لينكولن؛ وألقى مارتن لوثر كينغ هناك خطابه الشهير «عندي حلم». وهذا نصه.

إنني سعيد اليوم بانضمامي إليكم للمشاركة في أضخم مظاهرة من أجل الحرية عرفها سجل تاريخ أمتنا.

منذ قرن وقّع أميركي عظيم «بيان التحرير»، وها نحن اليوم نحيي الذكرى في كنفه. كان ذلك البيان التاريخي منارة هائلة أضاءت آمال ملايين العبيد السود الذين ذاقوا عذاب نيران الظلم؛ وكان له وقع فجر يوم سعيد بعد ليل طويل من الألم. لكن وبعد مرور مئة سنة على صدور البيان لا نجد الأسْوَد متحرراً. بعد مرور مئة سنة لا تزال حياته مُقيّدة بأغلال التمييز وسلاسل التفرقة العنصرية. بعد مئة سنة نجد الأسود يعيش منعزلاً في بيئته الفقيرة وسط مدى شاسع من الرفاهية المادية. بعد مئة سنة لا يزال الأسْوَد يعاني على هامش المجتمع الأميركي وهو منفي في بلده. لأجل ذلك تجمعنا اليوم،

(*) **المرجع**: كتاب «مارتن لوثر كينغ». ترجمة سميّة عطية. مراجعة وليد صليبي. منشورات حركة حقوق الناس. بيروت. الطبعة الأولى 1999. ص 41 ـ 43.

هنا، لنفضح بأسلوب مأساوي وضعاً مأساوياً مهيناً.

نحن بمعنى ما جئنا إلى العاصمة لنقبض شيكاً. عندما وضع مؤسسو هذه الجمهورية بعبارات رائعة الدستور وبيان الاستقلال، وقّعوا على شيك يكون إرثاً لأميركا كلها. هذا الشيك كان عهداً لكل الناس أجل، للسود وللبيض على حد سواء، بضمان حقوقهم التي لا يجوز التصرّف بها والتي تمس حياتهم وحريتهم وسعادتهم. من الواضح أن أميركا اليوم أخفقت في تنفيذ هذه الوعود بالنسبة لمواطنيها الملونين. بدلاً من أن تسدّد ما عليها، يبدو أن أميركا أعطت السود شيكاً بلا قيمة، أعيد لهم بعبارة: «شيك بلا رصيد».

لكننا نرفض أن نصدق بأن بنك العدالة أفلس. نرفض أن نصدق أنه لم تعد هناك ودائع كافية في خزائن الإمكانيات الهائلة لأمتنا. وقد جئنا لنقبض هذا الشيك الذي يفتح لنا باب الحرية والأمان والعدالة.

كما جئنا إلى هذا المكان الجليل لنذكّر أميركا بإلحاحية اللحظة الحاضرة. هذا ليس وقت الراحة والتمتع بترك حماسنا يفتر، ولا وقت إعطاء مهدئات من التدابير المؤقتة. هذا وقت تنفيذ وعود الديموقراطية. هذا وقت النهوض من غياهب التمييز المظلمة والكئيبة إلى السبيل المشرق للعدالة العرقية. هذا وقت انتزاع أمتنا من رمال الظلم العرقي المتحركة وتثبيت دعائم الأخوة. آن الأوان لجعل العدالة أمراً واقعاً بالنسبة للناس جميعاً. لن تستطيع أمتنا الإفلات من خطورة الأعباء إذا تجاهلت إلحاحية هذه اللحظة. هذا الصيف الذي كان مثقلاً بالتذمر المشروع للسود لن ينتهي إلاّ بمجيء خريف منعش من الحرية والمساواة. عام 1963 ليس نهاية، بل بداية. أولئك الذين اعتقدوا أن الأسْوَد بحاجة فقط للتنفيس عن مشاعره المكبوتة وأنه

سيكون راضياً، سوف تتبدّد أوهامهم إذا عادت الأمور إلى ما كانت عليه.

لن تعرف أميركا الراحة أو الهدوء طالما الأسْوَد محروم من حقوقه كمواطن. أعاصير الثورة لن تكف عن زعزعة أسس أمتنا حتى اليوم المشرق لظهور العدالة.

لكن لدي ما أقوله لأهلي وأنا أقف على العتبة المستهلكة التي تؤدّي إلى قصر العدل: حين نسعى لإحقاق مكانتنا المشروعة، يجب أن لا نرتكب أعمالاً ظالمة. وعلينا ألاّ نبحث عن إشباع تعطشنا إلى الحرية بأن ننهل من كأس المرارة والحقد.

يجب علينا دائماً أن نخوض نضالنا على مستوى راقٍ من الكرامة والانضباط. يجب أن لا نترك اعتراضاتنا البناءة تتدهور إلى العنف. يجب أن نسعى باستمرار للرقيّ إلى ذرى العظمة حيث تتوحد قوة الروح مع القوة المادية. هذه الروحية النضالية الرائعة التي ميّزت المجتمع الأسْوَد يجب أن لا تدفعنا إلى النظر بارتياب إلى البيض جميعاً، لأن عدداً كبيراً من إخواننا البيض، وحضورهم اليوم دليل على ما أقول، أدركوا أن مصيرهم مرتبط بمصيرنا.

أدركوا أن حريتهم مرتبطة على نحو وثيق بحريتنا. وأثناء مسيرتنا يجب أن نتعاهد بأننا سنواصل هذه المسيرة إلى الأمام. لا يمكننا التراجع. هناك من يسأل الناشطين في حركة الحقوق المدنية: «متى تقتنعون؟» لن نقتنع أبداً طالما أن الأسْوَد ضحية لفظاعة قمع السلطة الوحشي الشنيع.

لم يعد بوسعنا السكوت على أننا أثناء السفر لا يحق لنا أن نرتاح على سرير في الموتيلات المنتشرة على الطرقات العامة أو في فنادق المدينة.

لم يعد بوسعنا السكوت على أن الأسْوَد الذي يرغب في تغيير مكان إقامته لا يستطيع سوى الانتقال من غيتو صغير إلى غيتو أكبر. ولم يعد بوسعنا السكوت على أن أولادنا، بعد أن يتقدموا في السن لا يعاملون كراشدين ويشعرون بالإهانة وهم يقرأون يافطات «مخصص للبيض».

لم يعد بوسعنا السكوت على أن الأسْوَد في المسيسيبي لا يحق له الانتخاب، والأسْوَد في نيويورك يعتقد أن اقتراعه عمل غير مفيد.

أجل، أجل، لم نعد نرضى بذلك، ولن نرضى أبداً، إلى أن يتكرس الحقّ وتتدفق العدالة كسيل لا ينضب.

لن أنسى أن البعض منكم عاش المحن والمصاعب. وأن بينكم من لم يمضِ وقت طويل على خروجه من السجن. وأن آخرين أتوا من مناطق تعرضوا فيها للاضطهاد والتعذيب وهجمات رجال الشرطة الوحشية، في سبيل الحرية. أنتم أبطال المعاناة البناءة.

استمروا في العمل، وكونوا على ثقة بأن الألم غير المُستَحَقّ مخلِّص.

عودوا إلى مسيسيبي، وإلى ألاباما، وإلى كارولينا الجنوبية، وإلى جورجيا، وإلى لويزيانا؛ عودوا إلى الأكواخ وإلى أحياء الغيتو في مدننا الشمالية، وثقوا بأن هذا الوضع قابل للتغيير وسوف يتغير. لن نمشي مترنحين في وادي اليأس.

إنني أقول لكم، يا أصدقائي، على الرغم من أننا نواجه المصاعب اليوم وسوف نواجهها غداً، أنا أحلم دائماً. أحلم أن أبناء العبيد القدامى وأسياد العبيد القدامى سيجلسون ذات يوم معاً إلى طاولة الأخوة على روابي جورجيا الصهباء. وأحلم أن ولاية

مسيسيبي، حيث يهيمن الظلم والاضطهاد بجوهما الخانق، سوف تتحول إلى واحة من الحرية والعدالة.

أحلم أن أطفالي الأربعة سيعيشون ذات يوم في أمة لا يحاسبون فيها على لون جلدهم، بل على قيمة سجاياهم. إنني أحلم... أحلم أنه ذات يوم في ألاباما، بمن فيها من العنصريين الكريهين، وبحاكمها الذي لا يصرّح إلاّ بكلمات الاعتراض على القوانين الفيدرالية وإلغاء هذه القوانين، حتى في ألاباما، سيعيش الصبيان السود الصغار والفتيات البيض الصغيرات متفقين كإخوة وأخوات.

إنني أحلم اليوم... أحلم أن الوادي سيرتفع ذات يوم، وأن التلة والجبل سينخفضان، وأن الأماكن الوعرة ستصبح ممهّدة، والدروب الملتوية ستقوّم، وأن مجد الرب سيظهر، وسيراه كل إنسان. هذا رجاؤنا.

بهذا اليقين أعود إلى الجنوب. بهذا اليقين نستطيع أن نغرس في جبل اليأس حجر الأمل. بهذا اليقين نستطيع أن نحوّل التنافر الحاد في أمتنا إلى سمفونية أخوة رائعة. بهذا اليقين نستطيع أن نعمل معاً، ونصلّي معاً، ونكافح معاً، وندخل السجن معاً، وندافع معاً عن قضية الحرية، ونحن نعرف أننا سنصبح ذات يوم أحراراً.

سيغنّي كل الناس في ذلك اليوم هذه الكلمات التي ستكتسب معنى جديداً:

«بلادي، أنتِ، أرض الحرية العذبة، لك أغني.

الأرض التي مات عليها أجدادي، الأرض التي تباهى بها المهاجرون،

من كل منحدر من جبالك فليُقرع جرس الحرية!».

وإذا كان يفترض أن تصبح أميركا أمة عظيمة، فليتحول ذلك إلى واقع فعلي.

فليقرع جرس الحرية على تلال نيوهامشاير الرائعة!

وليقرع على ذرى جبال ولاية نيويورك العظيمة!

وليقرع على القمم العالية لآليغانيز في بنسيلڤانيا!

وليقرع على مرتفعات كولورادو الصخرية المغطاة بالثلوج!

وليقرع على المنحدرات المتناسقة في كاليفورنيا!

لكن هذا ليس كل شيء. فليقرع جرس الحرية على كل تلة وكل هضبة في مسيسيبي! ومن كل منحدر من جبالها فليقرع جرس الحرية!

عندما نسمح لجرس الحرية أن يقرع في كل كَفْر، وكل قرية، وكل مدينة، وكل ولاية، نكون قد عجلنا في مجيء اليوم الذي يتفق فيه كل الناس، من سود وبيض، ويهود، ووثنيين، والبروتستانت والكاثوليك، ويغنون معاً كلمات الأنشودة الدينية الزنجية القديمة:

«تحررنا أخيراً، تحرّرنا أخيراً، المجد للرب العظيم القادر على كل شيء، صرنا أحراراً!».

أخطائي(*)

مقتطفات من مقابلة نشرتها مجلة «پلاي بوي» في كانون الثاني 1965. هذه المقابلة تعتبر من أهم اللقاءات الصحافية التي أجراها كينغ وأكثرها شمولية.

في 21 شباط 1956، أثناء مقاطعة حافلة الركاب في مونتغمري، وُجِّهت إلى مارتن لوثر كينغ تهمة الانتماء إلى منظمة ممنوعة لأنه عرقل وعطّل عمل مصلحة النقل بدون «سبب محق أو مشروع». أُودع سجن مونتغمري في 23 شباط، ثم أطلق سراحه بعد دفع كفالة قدرها ثلاثمائة دولار. بعد محاكمة استمرت أربعة أيام صدر الحكم عليه بدفع غرامة من خمسمائة دولار مع تأجيل التنفيذ حتى صدور قرار محكمة الاستئناف. لكن المحامين الذين تولوا الدفاع عن كينغ طلبوا إعادة النظر في الدعوى قبل المهلة المحددة. وأخيراً دفع كينغ الغرامة بعد مفاوضات معقدة أدت أيضاً إلى إطلاق سراح عدد من المسؤولين عن حملة المقاطعة، إضافة إلى مجموعة من البيض المؤيدين للتفرقة العنصرية.

«بلاي بوي»: بعد إلقاء القبض عليك مع أنصارك بسبب

(*) **المرجع**: كتاب «مارتن لوثر كينغ». حركة حقوق الناس. ص 127 ـ 129.

مشاركتك في المقاطعة، لامك البعض لأنك وافقت على مغادرة السجن بكفالة. أتعتقد عندما تستعيد ما حدث أنك أحسنت التصرّف؟

مارتن لوثر كينغ: لا؛ أعتقد أنني ارتكبت خطأً تكتيكياً في مغادرة السجن بكفالة بعد صدور الحكم عليّ مع مئة وخمسة وعشرين شخصاً، كان معظمهم من سائقي مجموعة السيارات البديلة التي أشرفنا عليها، وذلك وفقاً لقانون قديم، دستوريته ملتبسة، يقضي بحظر المقاطعة. كان يجب علي البقاء في السجن، لأن ذلك يعطي القضية مدى أوسع على الصعيد الدولي ويوفر مزيداً من الدعم لحركتنا؛ وربما يؤدي بسرعة أكبر إلى استنهاض وتحريض الضمير الأميركي.

«بلاي بوي»: هل تشعر أنك أسأت الحكم في مواقف أخرى لاحقاً؟

مارتن لوثر كينغ: أجل، في ألباني، في جورجيا، سنة 1962. لو أن الماضي قابل للتغيير كنت أعتمد توجيهاً مختلفاً لقادة المجتمع الزنجي. الخطأ الذي ارتكبته كان الاحتجاج على التمييز العنصري بشكل عام بدلاً من رفض أحد وجوهه. كان تحركنا المطلبيّ غامضاً لدرجة أننا لم نحقق شيئاً وأصيب الناس بالإحباط واليأس. كان الأفضل لنا تركيز نشاطنا حول التمييز في وسائل النقل أو في المطاعم. إحراز انتصار من هذا النمط يكتسب قيمة رمزية، ويثير حماسة أنصارنا ويرفع من معنوياتهم. لكنني لا أعتقد أن تحركنا في ألباني انتهى بالإخفاق. الزنوج رفضوا الإذلال ولن يرضوا بالخضوع لأحد. وآلاف الزنوج الذين لم يسبق لهم أن أدلوا بأصواتهم في الانتخابات سجلوا أسماءهم في اللوائح الانتخابية. وبفضل زيادة عدد الناخبين بينهم في الدورة التالية، عندما تعلّق الأمر باختيار حاكم

جديد لجورجيا من بين مرشَّحَيْن أحدهما متعصب للتفرقة والثاني أكثر اعتدالاً، انتخبت الولاية للمرة الأولى حاكماً تعهد باحترام القانون وتطبيقه دون تحيّز. إن الدرس الذي استخلصناه من أخطائنا في ألباني ساعدنا على أن نكون أكثر فاعلية في حملاتنا اللاحقة في مدن أخرى. لم نعد أبداً إلى تشتيت جهودنا بشنّ هجوم عام ضد التفرقة العنصرية، بل اعتمدنا توجيه نضالنا إلى أهداف محددة وذات دلالة رمزية.

«بلاي بوي»: هل تستطيع أن تذكر لنا أخطاء أخرى ارتكبتها أثناء إدارتك للحركة؟

مارتن لوثر كينغ: الخطأ الذي كانت له انعكاسات واضحة كان الاعتقاد بأننا سنحصل على دعم القسيسين البيض في الجنوب إذا ناشدنا ضميرهم الديني من أجل قضية محقّة. اعتقدت أن رجال الدين هؤلاء سيحملون قضيتنا ويطرحونها أمام السلطات. وبالطبع خاب أملي ونلت جزائي. عندما تطورت حركتنا وتوجهنا مباشرة إلى القسيسين البيض، رفض معظمهم التدخل لصالحنا والبعض تبنّى موقفاً معادياً لنا.

ردّ على المشنّعين

«بلاي بوي»: داخل المجتمع الزنجي هناك من يتعمد الانتقاص من مزاياك، هؤلاء المشنّعون يشيرون إليك غالباً بأنك، «السيد» و«بوكر ت. كينغ» (نسبة إلى بوكر ت. واشنطن، رائد تحرير الزنوج الذي يأخذ عليه الراديكاليون أنه كان إصلاحياً متساهلاً). ماذا تكون ردة فعلك عندما يعاملونك على أنك «العم توم» (بطل رواية «كوخ العم توم» الذي لعب دوراً كبيراً في بدايات حرب الانفصال، والذي

صار موضع سخرية المعارضين السود في الستينات، وقد استغلّوا اسمه وأطلقوه كإهانة على الزنوج المعتدلين المهتمين بالتعاون مع السلطة البيضاء).

مارتن لوثر كينغ: سمعت بعض هذه الألقاب، لكنني لم أردّ عليها أبداً بشكل انفعالي. إنني أعتقد أننا عندما نخوض غمار الحياة العامة يجب أن نتوقع أن الناس سوف ينعتوننا بشتى الأسماء. وقد قال لينكولن في هذا الإطار: «لو أنني أرد على كافة الانتقادات الموجهة لي، لن أجد وقتاً للقيام بأي عمل آخر». أما بخصوص اللقبين اللذين أشرت إليهما، فإنني كنت دائماً أحاول أن أكتسب اسم «مناضل لا عنفي»، ولا أعتقد أن أحداً يستطيع جدياً أن يتهمني بأنني لم ألتزم كلياً بمحاربة وتهديم التمييز العنصري.

حول اللاعنف

«بلاي بوي»: ماذا تقصد بقولك «مناضل لا عنفي»؟

مارتن لوثر كينغ: أعني أن الرجل القوي يجب أن يكون مندفعاً بقدر ما يكون معتدلاً. ويجب أن يكون واقعياً بقدر ما يكون مثالياً. وإذا كنت أريد الوصول إلى مستوى الثقة التي يمنحني إياها بعض أبناء شعبي فإنني يجب أن أكون ذلك الرجل. لذلك فإن اللاعنف سلاح قوي وعادل في آن. إذا توجهت إلى رجل يضطهدك ويقسو عليك منذ فترة طويلة وقلت له: «عاقبني إن أردت؛ أنا لا أستحق العقاب، لكنني أقبله؛ هكذا يعرف الجميع أنني على حق وأنك مخطىء»، تكون قد استخدمت سلاحاً قوياً وعادلاً. هذا الظالم سوف يُهزم مباشرة على الصعيد الأخلاقي؛ إذا كان لديه ضمير سيخجل من نفسه. في كل مرة يُستخدم فيها هذا السلاح بحيث يطال الضمير القلق

لمجتمع أو لوطن، يصبح الرأي العام حليفك ويساهم في دعم قضيتك.

من القوى الأساسية المطروحة أيضاً عند استخدام سلاح اللاعنف قوة تنجم عن مدى قدرته على تغيير الأفراد الذين يتبنون هذا النهج ويجدون أنفسهم ملتزمين بمهمة تتجاوزهم بمداها. يدركون للمرة الأولى أهميتهم ويمتلكون للمرة الأولى الشجاعة ليتحرروا. عندما يجد الزنجي أن لديه الشجاعة ليتحرّر يواجه الكلاب المدربة والبنادق والهراوات وقاذفات اللهب دون خوف، والبيض الذين يلجأون إلى الكلاب والبنادق والهراوات وقاذفات اللهب يدركون أن الزنجي الذي تعوّدوا مخاطبته بـ «يا ولد» صار رجلاً.

يجب أن لا ننسى أيضاً أنه إذا كانت نظرية العمل المباشر اللاعنفي ليست ذات أصل أميركي، فإنها وجدت موطناً طبيعياً في بلاد تحترم تقليداً يحفزنا على الثورة ضد الظلم. ذلك السلاح القوي الذي جربناه للمرة الأولى في مونتغمري أثناء مقاطعة الأوتوبيس وصل إلى حد من الإتقان في مختلف أنحاء الجنوب خلال العقد الماضي، لدرجة أنه أصبح وسيلة النضال من أجل الحرية. إنه العمل الجماعي الأكثر أهمية الذي عرفته أميركا منذ حرب الاستقلال. فاعلية هذا السلاح وقدرته المميزة على لفت أنظار العالم إلى نضال الشعوب المضطهدة من أجل تحقيق العدالة، يؤكدهما أنه سنة 1963 كان من بين أهم عشرة أحداث تناولتها الصحف، عدا حادثة اغتيال الرئيس كينيدي وما تفرع عنها، تسع وقائع من المعركة التي خاضها الزنوج بشكل أو بآخر.

معنى معركة اللاعنف(*)

إلى جانب نشاطاته العديدة في بلاده ألقى مارتن لوثر كينغ العديد من الخطابات في أماكن مختلفة من العالم. زار باريس مرتين. في 24 تشرين الأول 1965، في Mutualité، عقد مؤتمراً عاماً حول موضوع «الكنيسة في عالم ثائر»، وسنورد مقتطفات من الكلمة التي ألقاها، وفي 28 آذار 1966، عاد مارتن لوثر كينغ مجدداً إلى باريس إلى قصر الرياضة، للمشاركة في لقاء معادٍ للعنصرية، بعد جولة غنائية لهاري بلافونت، وبلغ عدد الحضور خمسة آلاف.

إن الكلمة التي ترمز إلى روحية وقوة معركتنا هي اللاّعنف. بشكل عام كان اللاّعنف في النضال من أجل الحقوق المدنية يرتكز أولاً إلى رفض استخدام السلاح. ثانياً إلى رفض الانصياع لعادات وقوانين تشكّل الدعامة الرسمية لنظام التمييز والعبودية. واتخذ اللاّعنف شكل المشاركة الجماهيرية المباشرة في حركة الاحتجاج. هذا اللاّعنف، يعني أن شعبي في نضاله الأليم خلال السنوات الأخيرة أخذ على عاتقه المعاناة أكثر مما فرضها على الآخرين. وهذا يعني أننا لم نعد نخاف ولن نسمح بأن نُخَوَّف. لكن هذا لا يعني في

(*) **المرجع**: كتاب «مارتن لوثر كينغ». منشورات حركة حقوق الناس. بيروت. الطبعة الأولى 1999. ص 59.

الوقت نفسه أننا نريد زرع الخوف في نفوس الآخرين. حركتنا لا تفكر بتحرير السود على حساب إهانة البيض واستعبادهم. إنها لا تفكر بإخضاع أي كان. إنها تناضل لأجل تحرير المجتمع الأميركي ومساعدة كل إنسان على تحرير نفسه. اللجوء إلى العنف من أجل التوصل إلى المساواة العرقية غير فعال ولا أخلاقي في آن. أعرف تماماً أن العنف يؤدي غالباً إلى نتائج مؤقتة. دول كثيرة حصلت على استقلالها بواسطة الحرب. لكن على الرغم من هذه الانتصارات المؤقتة فإن العنف لا يؤدي إلى سلام دائم؛ ولا يستطيع حل أية مشكلة اجتماعية، بل يخلق مشكلات أخرى أكثر صعوبة. العنف غير مجدٍ لأنه يشبه حركة لولبية منحدرة تؤدي إلى تدمير كل شيء. وهو لا أخلاقي لأنه يستهدف إهانة الخصم بدلاً من إقناعه، ويستهدف التخريب بدلاً من التغيير. العنف لا أخلاقي لأنه يغتذي بالحقد لا بالحب. إنه يدمّر الجماعة ويجعل الأخوّة مستحيلة. إنه يأسُر المجتمع في إطار المونولوج بدلاً من أن يقوده إلى الحوار. ينتهي الأمر بالعنف لأن يقهر نفسه بنفسه. إنه يولّد المرارة في نفوس الناجين والشراسة في نفوس المنتصرين.

«يأتي وقت يكون فيه السكوت خيانة»(*)

في 4 نيسان 1967، في كنيسة ريفرسايد في نيويورك ألقى مارتن لوثر كينغ مرافعة ضد الحرب في فييتنام (مقتطفات).

ها أنا أقف هذا المساء في هذه الكنيسة العظيمة، لأن ضميري لا يسمح لي بخلاف ذلك. شاركت في لقائكم لأنني موافق تماماً على أهداف ونشاطات المنظمة التي دعتنا للتجمع هنا: «رجال دين وعلمانيون قلقون بسبب الحرب في ڤيتنام». تصريح اللجنة التنفيذية الأخير عكس مشاعري الخاصة وأنا مقتنع كلياً بمضمون الجملة الأولى: «يأتي وقت يكون فيه السكوت خيانة». هذا الوقت أتى بالنسبة إلينا فيما يختص بڤيتنام (. . .) كوني مبشراً لا أعتقد أن أحداً سيستغرب أن لدي أسباباً تدفعني للاهتمام بمسألة ڤيتنام من وجهة نظر أخلاقية. قبل كل شيء هناك صلة واضحة، وشبه طبيعية بين الحرب في ڤيتنام والمعركة التي نخوضها مع آخرين في أميركا. منذ بضع سنوات عرفنا في هذا النضال فترة مشرقة. كل شيء كان يسير كأن برنامج النضال لمجابهة الفقر سيحمل فعلياً الأمل للفقراء، البيض والسود على حد سواء. عشنا تجارب وآمالاً وانطلاقة جديدة. ثم

(*) المرجع: كتاب «مارتن لوثر كينغ». منشورات حركة حقوق الناس. بيروت. الطبعة الأولى 1999. ص 54 ـ 57.

اشتدت الحرب في ڤيتنام ورأيت تلك البرامج تتفكك وتتحطم كأن الأمر يتعلق بمجموعة لعب سياسية صارت غير مفيدة لمجتمع أفقدته الحرب صوابه. أدركت عندئذٍ أن أميركا لن توظف أبداً الاعتمادات والطاقات الضرورية لردّ الاعتبار لفقرائها طالما أن خوض مغامرات كمغامرة ڤيتنام لا يزال يجذب الناس والمال والخبرات، مثل آلة شيطانية مدمرة. وهكذا، شيئاً فشيئاً، توصلت لرؤية الحرب ليس فقط كتعدٍّ على الأخلاق بل أيضاً كعدو للفقراء، وأخذت أهاجمها من هذا المنطلق. قد أكون أدركت الحقيقة في صورتها الأكثر مأساوية عندما رأيت أن الحرب لا تكتفي بتبديد آمال الفقراء فحسب. بل إنها ترسل أبناء الفقراء وإخوتهم وأزواجهم إلى الحرب بنسبة مرتفعة بشكل استثنائي عن سائر السكان. تأخذ الشبان السود الذين حوّلهم المجتمع إلى عاجزين، وترسلهم على بعد ثلاثة عشر ألف كيلومتر، كي يكونوا ضمانة في جنوب شرق آسيا لحريات لم يعرفوها في جنوب غرب جورجيا أو في شرق هارلم. وكان علينا أن نشاهد مرات عديدة على التلفزيون تلك المفارقة القاسية لشبان سود وبيض يقاتلون ويموتون معاً من أجل بلاد لم تسمح لهم بالجلوس على المقاعد نفسها في المدارس. رأيناهم يضرمون النار في أكواخ قرية تعيسة، بعنف تضامني، وهم يدركون أنهم لن يعيشوا أبداً في مجموعة البيوت نفسها في ديترويت. لا أستطيع أن ألزم الصمت أمام مثل هذا التلاعب الوحشي بالفقراء. والسبب الثالث لقراري يتعلّق بإدراك أعمق أيضاً، نشأ لديّ خلال التجربة التي عشتها في أحياء الغيتو في الشمال خلال السنوات الثلاث الماضية؛ وخصوصاً فترات الصيف فيها، أثناء التظاهر بين أولئك الشبان الغاضبين والمنبوذين واليائسين، كنت أقول لهم إن قنابل المولوتوف والبنادق لا تحلان شيئاً. حاولت أن أبيّن لهم أنني أشاركهم بعمق في مشكلاتهم، وأنا في الوقت نفسه أعيد

التأكيد على قناعتي بأن التغيرات الاجتماعية لا يمكن أن تتحقق إلاّ بالعمل اللاّعنفي. كانوا يسألونني والحق معهم: لكن ما رأيك بڤيتنام؟ ألا تلجأ بلادنا إلى استخدام العنف على نطاق واسع من أجل حلّ مشكلاتها، وإجراء التغيرات التي تريد؟ كانت أسئلتهم محقة وأدركت عندئذٍ أنه لم يعد بوسعي أبداً التشهير بالعنف الذي يلجأ إليه المضطهَدون في أحياء الغيتو قبل أن أشهّر بوضوح بأكبر متعهد للعنف في العالم اليوم: حكومة بلادي. باسم أولئك الشبان، باسم هذه الحكومة، باسم مئات الملايين من الأشخاص الذين يرتجفون من عنفنا، لم يعد بوسعي أن أظل صامتاً (. . .).

عندما أفكر بجنون ڤيتنام، وأبحث بنفسي عن الوسائل لأفهم الأحداث وأرد عليها، تتوجه أفكاري باستمرار نحو الناس في شبه الجزيرة تلك. لا أتحدث هنا عن جنود معسكر أو آخر، ولا عن اللجنة الحاكمة في سايغون، بل ببساطة عن السكان الذين يعيشون منذ حوالي ثلاثين سنة مصيبة الحرب. أفكر فيهم أيضاً لأنه يبدو واضحاً لي أنه لن يكون هناك حلّ فعلي إذا لم نبذل جهداً لمعرفتهم والاستماع إلى صرخات استغاثتهم.

لا بدّ أنهم يعتبرون الأميركيين محرّرين غير مألوفين. أعلن الڤيتناميون استقلالهم سنة 1945، بعد أن احتل الفرنسيون واليابانيون بلادهم، وقبل الثورة الشيوعية في الصين. تَزَعّم قيادة البلاد آنذاك هو شيه منه (Ho Chi Minh). مع أنهم كانوا يشيرون إلى بيان استقلال الولايات المتحدة في شريعة تحرّرهم، رفضنا الاعتراف بهم، ودعمنا فرنسا في إعادة احتلال مستعمرتها القديمة.

قدّرت حكومتنا أن شعب ڤيتنام ليس ناضجاً ليستقل، ووقعنا مرة أخرى في تلك العجرفة الغربيّة التي تسمّم العلاقات الدولية منذ

زمن طويل. باتخاذنا ذلك القرار المؤسف استبعدنا حكومة ثورية تطالب بتقرير مصيرها، حكومة لم تتولَّ زمام الأمر بفضل الصين (التي لا يتعاطف الڤييتناميون معها كثيراً) بل بواسطة قوى محلية، كان الشيوعيون بينها. بالنسبة للفلاحين كانت تلك الحكومة تمثل الأمل بإصلاح زراعي فعلي، وهذا الإصلاح كان همّاً حيوياً بالنسبة للفلاحين. بعد 1945، وخلال تسع سنوات، حرمنا الشعب الڤييتنامي من حقه في الاستقلال. خلال تسع سنوات قدمنا الدعم لفرنسا في محاولتها اليائسة لإعادة استعمار ڤييتنام. في نهاية النزاع تحملنا مسؤولية 80% من نفقات الحرب الفرنسية. قبل هزيمة «ديان بيان فو» كان الفرنسيون بدأوا يشكّون في مشروعهم، لكن نحن لم نفعل ذلك. شجعناهم على الاستمرار في الحرب بتزويدهم بالوسائل العسكرية والمادية الهائلة، حين لم تعد لديهم حتى الرغبة بذلك. بعد فترة قصيرة دفعنا مجمل كلفة محاولتهم المفجعة.

بعد هزيمة فرنسا، كدنا نصدق أن اتفاقات جنيف ستنتهي بالاستقلال والإصلاح الزراعي. لكن عوضاً عن ذلك أتت الولايات المتحدة بنيّة منع «هو» من توحيد البلاد التي قُسّمت بشكل مؤقت، ورآنا الفلاحون هذه المرة نقدم الدعم لديكتاتور هو الأكثر فساداً في عصرنا، رجل اخترناه نحن، رئيس الوزراء «دييم». خضع الفلاحون، فيما راح دييم يتخلص بقسوة من المعارضة، ويدعم ملاكي الأراضي الذين يستغلونهم، ورفض حتى مناقشة التوحّد مجدداً مع الشمال. رأى الفلاحون ذلك يحدث في البداية بحماية النفوذ الأميركي، ثم بالتدخّل المتزايد أكثر فأكثر للجنود الأميركيين الذين كانوا يُستدعون للمساعدة في قمع الفتن التي أشعلتها إجراءات دييم. عند الإطاحة بدييم، كان بإمكانهم أن يفرحوا لولا تولّي سلسلة من الدكتاتوريين

العسكريين الحكم وكانوا عاجزين عن إحداث تغييرات فعلية خصوصاً فيما يختص بالإصلاح الزراعي أو سياسة السلام.

التغيير أتى من الولايات المتحدة! . كنا في الواقع قد ضاعفنا تورط قواتنا لدعم حكومات متميزة بفسادها وعجزها وتجردها من أي تأييد شعبي. في تلك الأثناء راح الشعب يقرأ مناشيرنا ويجد فيها باستمرار وعوداً بالسلام والديموقراطية وحتى الإصلاح الزراعي. اليوم هم تحت رحمة قنابلنا، ويعتبروننا نحن، لا سائر مواطنيهم من الڤييتناميين، أعداءهم الفعليين. بحزن وخضوع استسلموا لانتزاع أرض أجدادهم منهم واقتيادهم إلى معسكرات الاعتقال حيث يندر وجود ما يرضي الحاجات الاجتماعية الأكثر بساطة. عرفوا أنهم مضطرون للمغادرة خوفاً من الهلاك تحت قنابلنا. لذلك رحلوا، بدءاً بالنساء والأطفال والشيوخ.

رأونا نسمّم المياه لإتلاف ملايين الهكتارات من المزروعات. كانوا بالتأكيد يبكون وهم يراقبون الجرافات تجتاز أراضيهم وتقتلع أشجارهم. كانوا يجوبون المستشفيات ويرون أن أكثر من عشرين من ضحايا القوة الأميركية يقابلهم جريح واحد من الڤييتكونغ. ويجوبون المدن ويرون آلاف الأطفال بلا مأوى، أو ثياب، يركضون جماعات في الشوارع كأنهم حيوانات. ويرون جنودنا يسيئون معاملة الأطفال الذين كانوا يستجدون طعامهم. يرون الأطفال يبيعون شقيقاتهم لجنودنا، أو يأخذونهم لأمهاتهم.

بماذا فكّر الفلاحون عندما رأوا أننا تحالفنا مع ملاّكي الأراضي ورفضنا البدء بالإصلاح الزراعي الموعود؟ بماذا فكروا عندما رأونا نجرب فيهم أسلحتنا الجديدة، بالطريقة نفسها التي كان يختبر فيها النازيون أدويتهم الجديدة أو طرق تعذيبهم الجديدة على السجناء في

معتقلات أوروبا؟ أين هي دعائم ڤييتنام المستقلّة التي ادّعينا أننا سنبنيها بين أولئك البشر الذين لا صوت لهم؟ دمّرنا مؤسستين كانوا متعلّقين بهما: العائلة والقرية. دمّرنا حقولهم ومحاصيلهم. ساهمنا بتدمير القوة الثورية الوحيدة غير الشيوعية في البلاد، الديانة البوذية الموحّدة. دعمنا أعداء الفلاحين في سايغون. أفسدنا نساءهم وأطفالهم وقتلنا رجالهم. يا لنا من محررين! (. . .).

بطريقة أو بأخرى يجب وقف هذا الجنون. منذ الآن أتكلم كإنسان وكأخ للمساكين الذين يعانون في ڤييتنام. أتكلم من أجل الذين أُتلفت أرضهم ودُمّرت بيوتهم ونُهبت محاصيلهم. أتكلم من أجل فقراء أميركا الذين يدفعون حساباً مضاعفاً ثمن هذه الحرب، بآمالهم التي حُطّمت، وبالموت والفساد في ڤييتنام. أتكلم بصفتي مواطن في هذا العالم الذي تملّكه الرعب من الطريق الذي سلكناه. أتكلم كأميركي وأخاطب قادة بلادي. نحن نتحمل مسؤولية كبرى في إشعال هذه الحرب. يجب علينا أن نأخذ المبادرة لتوقيفها (. . .) وفي انتظار ذلك يُفترض فينا، كنائس وكنيس، مواصلة جهودنا ومطالبة حكومتنا الانسحاب على عجل من هذا التورط المشين. ويجب أن نستمر في إسماع صوتنا طالما تتمسك بلادنا بمواقفها المنحرفة في ڤييتنام؛ وأن نستعد للتحرك بالقول والفعل مستخدمين كافة أساليب الاحتجاج الممكنة.

عندما نتحدث إلى الشبان عن الخدمة العسكرية يجب أن نخبرهم عن الدور الذي تلعبه بلادنا في ڤييتنام ونطرح عليهم فكرة رفض المحاربة. ويسعدني أن أقول إنه الخيار الذي اتخذه أكثر من سبعين من طلاب جامعتي، مورهاوس كوليدج، وأنا أشجع كل الذين يعتبرون التدخل الأميركي في ڤييتنام مشيناً وظالماً أن يفعلوا مثلهم. ومن ناحية ثانية أريد أن أحثّ جميع القسيسين المعفيّين من الخدمة

العسكرية أن يتنازلوا عن الإعفاء الذي يحق لهم كي يتبنوا موقف الرافضين للمحاربة. هذا وقت الخيارات الصحيحة لا وقت التهرّب. يجب أن نجازف بحياتنا إن كنا نريد لبلدنا أن يتخطّى جنونه. كل رجل خليق بهذه التسمية يجب أن يقرر شكل الاعتراض الذي يتناسب وقناعاته؛ لكن علينا جميعاً أن نعترض.

قد يغرينا الاكتفاء بهذا القدر، والانضمام جميعاً إلى التحرك الذي تحوّل في بعض الأماكن حملة شعبية عارمة ضد الحرب في ڤييتنام. بالتأكيد يجب أن نشارك في هذه المعركة، لكنني أريد ترك هذا الأمر الآن لأتناول جانباً أشد إثارة للقلق. حرب ڤييتنام ليست سوى عارض لمرض يطال الذهنية الأميركية في العمق، وإذا شئنا تجاهل هذه الحقيقة التي تزيل الأوهام، لن نتوقف عن تشكيل لجان «رجال دين وعلمانيون قلقون...» بحالات مختلفة. سنعبىء صفوفنا لأجل غواتيمالا والبيرو، وتايلاند وكامبوديا، والموزمبيك وجنوب إفريقيا. وسننظم مسيرات لأجل هؤلاء وغيرهم وسنشارك في تجمعات لا تنتهي طالما أن الحياة السياسة الأميركية لم يطرأ عليها تغيير حقيقي وعميق. مثل هذه الاعتبارات تدفعنا للذهاب أبعد من ڤييتنام إلا أننا نبقى دون ما هو مطلوب من أبناء الله الأحياء. سنة 1957 كان موظف أميركي في منطقة ما وراء البحار، حسّاس بنحو خاص لهذه المشكلات، يقول إن بلادنا برأيه موجودة على الجانب السيّىء من الثورة العالمية. خلال السنوات العشر الأخيرة كرّسنا نموذجاً للقمع يفسر وجود «مستشارين» عسكريين أميركيين في ڤنزويلاّ. هذه الحاجة لضمان الاستقرار الاجتماعي لاستثماراتنا تفسّر نشاط القوات الأميركية المعادية للثورة في غواتيمالا. بتنا نفهم لماذا تُستخدم طائرات الهليكوبتر الأميركية ضد رجال حرب العصابات في كولومبيا،

ولماذا أُرسل النّابالم والقبعات الخضر ضد الثوار في البيرو. في هذا السياق نتذكر كلمات جون ف. كينيدي: «أولئك الذين يجعلون الثورات المسالمة مستحيلة، يجعلون الثورات العنيفة حتمية».

تبنت بلادنا هذا الدور أكثر فأكثر، عن اختيار أو بالصدفة، دور الذين يجعلون الثورات المسالمة مستحيلة برفضهم التخلي عن الامتيازات والملذات التي توفرها الأرباح الهائلة للاستثمارات ما وراء البحار. إنني مقتنع أننا، للانتقال إلى الجانب الجيد من الثورة العالمية، يجب أن نباشر بإحداث ثورة جذرية في قيمنا. يجب أن نبدأ بسرعة الانتقال من مجتمع «موجّه نحو المنفعة» إلى مجتمع «موجّه نحو الأشخاص». طالما أن الآلات والناظمات الآلية ومعدلات الربح وحقوق الملكية، تعتبر أكثر أهمية من البشر، سيكون من المستحيل السيطرة على الآفات الثلاث الكبيرة وهي النزعات العنصرية والمادية والعسكرية.

الثورة الفعلية في القيم ستقودنا إلى طرح تساؤلات حول نزاهة وشرعية الكثير من أعمالنا السياسية الماضية والحاضرة (...). إن العجرفة الغربية التي تتصور أن الغرب يستطيع تعليم كل شيء للآخرين وليس عندهم ما يعلمونه إياه، ليست محقة. الثورة الفعلية في القيم ستغير النظام العالمي وستحملنا على وصف الحرب بأنها: «طريقة غير منصفة في حل النزاعات». إحراق البشر بالنابالم وتيتّم الأولاد وترمّل النساء، وحقن مخدرات الحقد المميتة في شرايين الناس العاديين، وإرجاع الجنود إلى بيوتهم بعد خوض معارك دامية أضعفتهم فيزيولوجياً ونفسياً، هذه الأساليب لا يمكن أن تتوافق مع الحكمة والعدالة والحب. إن أمة تستمر سنة بعد سنة بتكريس مزيد من الأموال لميزانيتها العسكرية وتنفق عليها أكثر مما تنفق على برامج التنمية الاجتماعية، هي أمة تقترب من الموت الروحي.

15 كانون الثاني يوم عطلة في الولايات المتحدة تكريماً لمارتن لوثر كينغ(*)

منذ 1986، تحتفل الولايات المتحدة بذكرى مارتن لوثر كينغ بيوم وطني محدّد باسمه، وقد كان هذا التكريم حتى ذلك الحين يقتصر على كريستوفر كولومبس وجورج واشنطن وأبرهام لينكولن. كانت اللجنة التي أعدت لأن يكون 15 كانون الثاني «يوم مارتن لوثر كينغ»، قد اضطرت لتذليل عقبات كثيرة وصعبة قبل توقيع الرئيس رونالد ريغان في 2 تشرين الثاني 1983 على المرسوم الذي أقرّ ذلك. وهذا بعض ما قاله في تلك المناسبة:

«عندما أفكر في ما قدم الرجل الذي نحتفل به اليوم لبلادنا، تخطر لي كلمات الشاعر الأميركي غرينليف هويتاير: «كل أزمة تصهر فكراً وعملاً». خلال الخمسينات والستينات عرفت أميركا التمييز العنصري الذي كان إحدى أخطر الأزمات التي واجهتها. الرجل الذي ترك أثراً عميقاً في بلادنا بفكره وعمله هو الدكتور مارتن لوثر كينغ»...

(*) المرجع: كتاب «مارتن لوثر كينغ». حركة حقوق الناس. بيروت. الطبعة الأولى 1999. ص 99.

«د. كينغ أيقظ إحساساً قوياً وحقيقياً، إحساساً بعدالة مستقلّة عن لون البشرة» وقال عن الإنسان الأبيض أو الأسود: «مصيره مرتبط بمصيرنا، وحريته يتعذر فصلها عن حريتنا؛ نحن لا نستطيع التقدم وحدنا...».

«كلامه لامس وعي الأمة الأميركية. في كافة أنحاء البلاد ولم يعد الناس يرون إلى أنفسهم كبيض أو سود، بل كبشر...».

أيار 1992: العنف العرقي يهزّ الولايات المتحدة(*)

بعد مرور 27 سنة على اندلاع العنف في واتس، حيّ السود في لوس أنجلوس؛ وبعد مرور 25 سنة على الفتن الدامية التي شهدتها ديترويت ونيو آرك وعشرات من المدن؛ وبعد مرور 24 سنة على انتفاضات الغضب في شيكاغو إثر مقتل مارتن لوثر كينغ، عاشت الولايات المتحدة فترة جديدة من العنف من 29 نيسان حتى 2 أيار 1992. بدأت الاضطرابات في لوس أنجلوس بعد تبرئة أربعة من رجال الشرطة البيض كانوا قد انهالوا بهراواتهم على شاب أسود منذ سنة؛ وخلّفت تلك الأحداث خمسين قتيلاً، وآلاف الجرحي.

لمعرفة التفاصيل نعود إلى الثالث من آذار سنة 1991، عندما أوقفت دورية الشرطة الأسود رودني كينغ، 27 سنة، بسبب تجاوز السرعة المحدّدة، كان كينغ يعرف أساليب رجال الشرطة من حادثة سابقة، لذلك رفض التمدّد على الأرض كما طلب منه. أمر الرقيب بشحنتين كهربائيتين لتأديب الشاب العنيد. لكن بعد فشل ذلك الإجراء، عمد ثلاثة من الشرطة لتوجيه 56 ضربة من هراواتهم إليه في 81 ثانية. وقد ورد في التقرير الطبي أن الشاب أصيب بسبعة كسور

(*) المرجع: كتاب «مارتن لوثر كينغ». حركة حقوق الناس. ص 103.

وعدة حروق ورضوض مختلفة. ورجال الشرطة كالعادة لم يكن لديهم ما يستوجب القلق بشأن ما حدث؛ فالنظام في هذا الصدد راسخ ومتماسك. لكن حدث في هذا اليوم، 3 آذار 1991، أن شاهِد عيان صوّر الحادثة بالصدفة؛ وكان الشاهد، وهو سبّاك من هوليوود، يجرّب كاميرا الفيديو التي اشتراها مؤخراً. عرض الفيلم على شاشة التلفزيون ورأى الناس وحشية شرطة لوس أنجلوس بقيادة داريل غايتس المعروف بأساليبه القمعية. كانت حالات العنف التعسّفي كثيراً ما تتكرر في هذه المدينة. سنة 1990 اضطر المجلس البلدي لدفع مبلغ قياسي وصل إلى أحد عشر مليوناً وثلاثمئة ألف دولار كتعويضات عن ضحايا عنف الشرطة. داريل غايتس يسيطر على دائرة الشرطة في لوس أنجلوس منذ 1978، وبواسطة 8400 من الرجال المخلصين له استطاع أن يحوّل عدة أحياء إلى معاقل محاصرة. تحتلّ لوس أنجلوس المرتبة الثانية بعد ديترويت بارتفاع معدّل العنف البوليسي فيها، وكل سنة هناك مئات الشكاوى في هذا الإطار.

قضية رودني كينغ أثارت مشاعر الرأي العام في الولايات المتحدة؛ ورُفعت أمام السلطة القضائية. بعد شهرين من إقامة الدعوى أدلى 54 شخصاً بشهاداتهم. لجنة التحليف، التي تألفت من اثني عشر عضواً جميعهم من البيض، أعطت حكمها في 29 نيسان 1992 في الساعة الثالثة بعد الظهر باعتبار الشرطيين الأربعة غير مذنبين... أثار الحكم ضجة كبيرة، وتقرّر إعادة البحث في القضية.

لكن يوم 29 نيسان في الساعة التاسعة مساء كانت لوس أنجلوس تشتعل...

في العاشر من كانون الأول سنة 1964 استلم مارتن لوثر كينغ جائزة نوبل للسلام في أوسلو (النروج)(*)

(مقتطفات من خطابه في هذه المناسبة).

«الطريق المتعرّجة التي قادتني من مونتغمري إلى ألاباما وحتى أوسلو، تشهد على هذه الحقيقة. إنها الطريق التي يتقدم عليها ملايين السود بحثاً عن إحساس جديد بكرامتهم. وهي الطريق نفسها التي أتاحت للأميركيين جميعاً الدخول في مرحلة جديدة من التقدم والأمل. وأدّت إلى صدور قانون جديد حول الحقوق المدنية، وسوف تزداد اتساعاً وتكبر لتصبح جادّة واسعة للعدالة مع دوام إصرار المزيد من السود والبيض على التلاقي ومضاعفة الجهود لتحقيق مطالبهم المشتركة. إنني أقبل هذه الجائزة اليوم منطلقاً من إيمان راسخ بأميركا وإيمان متشبّث بمستقبل البشرية. إنني أرفض الإقرار بأن الثغرات الحالية في الطبيعة البشرية تجعل الإنسان عاجزاً أخلاقياً عن مباشرة واجباته الثابتة التي عليه مواجهتها باستمرار. وأرفض الإقرار بأن

(*) المرجع: كتاب «مارتن لوثر كينغ». حركة حقوق الناس. ص 139.

البشرية مجرد حطام تتقاذفه أمواج محيط الحياة. وأرفض الإقرار بأن البشرية نذرت نفسها بهذا الشكل المأسوي لليل العنصرية والحرب، وأن الفجر المضيء للسلام وللأخوة لن يشرق أبداً.

«إنني أرفض الإقرار بالواقع المتشائم أن كل أمة بدورها سوف تغرق في التنافس العسكري حتى جحيم الدمار الذرّيّ. أعتقد أن الحقيقة المجرّدة والحب الصادق سيكون لهما الكلمة الأخيرة في عالمنا. لذلك، ولو أن هذا القول يثير السخرية مؤقتاً، سيكون الحق أقوى من الشر المسيطر. أعتقد أنه حتى وسط دوي المدافع وأزيز الرصاص، هناك مكان للأمل بغدٍ منير. أعتقد أن العدالة الجريحة الراقدة بلا حراك في شوارع بلادنا المضرّجة بالدماء، والمغطاة بالغبار والعار، قابلة لأن تُبْعَث من جديد كسلطة مطلقة تحكم أبناء البشر.

«لدي الجرأة لأعتقد أن الناس في كل مكان يستطيعون الحصول على ثلاث وجبات في اليوم بتغذية أجسامهم، وعلى العلم والثقافة لتغذية أفكارهم، وعلى الكرامة والمساواة والحرية لتغذية أرواحهم. أعتقد أنه بوحيٍ من حبّ الآخر يستطيع فريق من الناس إعادة بناء ما يهدمه أولئك المندفعون وراء حبّ الذات. سأظل أعتقد أنه سيأتي يوم تنحني فيه البشرية أمام مذبح الله لتستلم تاج الانتصار على الحرب وسفك الدماء، وجعل الإرادة الطيبة التي تنتعش في إطار اللاعنف المنقذ تسنّ قانون الأرض. فيسكن الأسد مع الخروف، ويجلس كل إنسان تحت كرمته أو تحت تينته دون خوف.

«سأظل أعتقد أننا سننتصر. من الإيمان نستمد الشجاعة لمواجهة تعثرات المستقبل. إنه يعطي أرجلنا المتعبة قوة جديدة لتواصل المسير نحو مدينة الحرية. عندما تخضع أيامنا لغيوم قاتمة ومنخفضة تحجب

عنها النور، وعندما تشتد ظلمة السماء فتفوق ظلام ألف ليل، ندرك أننا وقفنا في الإعصار المبدع لحضارة أصيلة تصارع لتولد.

«أجدني اليوم في أوسلو كأنني كلّفت بمهمة معبأة بالوفاء المتجدّد للبشرية. إنني أقبل هذه الجائزة باسم كل المؤمنين بالسلام والأخوة».

محطّات في الترتيب الزمني لحياة مارتن لوثر كينغ(*)

ـ **15 كانون الثاني 1929**: ولد مارتن لوثر كينغ جونيور في أتلانتا (جورجيا).

ـ **25 شباط 1948**: سيامة م.ل. كينغ قسّاً معمدانياً.

ـ **18 حزيران 1953**: كينغ يتزوج كوريتا سكوت.

ـ **17 أيار 1954**: قرار من المحكمة العليا بأن التمييز العنصري في المدارس العامة مخالف للدستور.

ـ **الأول من كانون الأول 1955**: روزا باركس، خيّاطة سوداء، ترفض ترك مقعدها في حافلة الركاب لرجل أبيض.

ـ **5 كانون الأول 1955**: اليوم الأول لإضراب الحافلات في مونتغمري.

ـ **30 كانون الثاني 1956**: انفجار قنبلة في منزل كينغ. زوجته وطفلته كانتا في البيت ولم تصابا بأذى.

(*) المرجع: كتاب «مارتن لوثر كينغ». حركة حقوق الناس. بيروت. الطبعة الأولى 1999. ص 11 ـ 12.

ـ **13 تشرين الثاني 1956**: أعلنت المحكمة العليا أن القوانين المحلية وكذلك قوانين ولاية ألاباما التي تتعلق بالتمييز العنصري في الحافلات، مخالفة للدستور.

ـ **21 كانون الأول 1956**: «دمج» الحافلات في مونتغمري بعد إضراب دام 382 يوماً.

ـ **10 ـ 11 كانون الثاني 1957**: إعلان تأسيس: مؤتمر القادة المسيحيين في الجنوب (S.C.L.C.) وانتخاب كينغ رئيساً.

ـ **9 أيلول 1957**: تصويت الكونغرس على المرسوم الأول للحقوق المدنية منذ «إعادة التنظيم»، وإعلان تشكيل «لجنة الحقوق المدنية» و «قسم الحقوق المدنية» في وزارة العدل.

ـ **20 أيلول 1958**: تلقى كينغ عدة طعنات من أحد المتعصبين وأشرف على الموت.

ـ **2 شباط حتى 10 آذار 1959**: عائلة كينغ توجهت إلى الهند تلبية لدعوة من نهرو، لدراسة وسائل اللاّعنف التي استخدمها غاندي.

ـ **15 نيسان 1960**: تشكيل S.N.C.C. أو Snick (لجنة التنسيق الطلابية للاّعنف)، وذلك للتنسيق في مواقف الاحتجاج عند طلاب جامعة شو (راليه، كارولينا الشمالية). صارت اللجنة ذات صفة دائمة في تشرين الأول 1960.

ـ **19 تشرين الأول 1960**: ألقي القبض على كينغ أثناء مشاركته في اعتصام في أتلانتا، وأودع السجن.

ـ **4 أيار 1961**: أول مجموعة من «مسافري الحرية» من أجل «دمج» وسائل النقل بين الولايات، انطلقت من واشنطن. أشرف على تشكيل هذه المجموعة «مؤتمر المساواة العرقية» أو C.O.R.E.، بعد

فترة قصيرة من إعلان المحكمة العليا لا شرعية التمييز العنصري في محطات النقل بين الولايات.

ـ **أيلول ـ تشرين الأول 1962**: جايمز مريديث أول أسود يسجل في جامعة مسيسيبي. أقرّت المحكمة العليا تسجيله ورافقه إلى الجامعة عدد من النواب الفيدراليين.

ـ **آذار ـ نيسان 1963**: اعتصامات في برمينغهام ضد التمييز العنصري.

ـ **20 أيار 1963**: إعلان المحكمة العليا بأن قوانين التمييز العنصري في برمينغهام مخالفة للدستور.

ـ **28 آب 1963**: «مسيرة إلى واشنطن»، أول مسيرة كبرى موحّدة. لقاء للقادة مع الرئيس كينيدي. كينغ ألقى خطابه الشهير «لديّ حلم».

ـ **22 تشرين الثاني 1963**: اغتيال الرئيس كينيدي في دالاس، تكساس.

ـ **10 كانون الأول 1964**: تسلّم كينغ جائزة نوبل للسلام في أوسلو، في النروج.

ـ **21 ـ 25 آذار 1965**: مسيرة من سيلما إلى مونتغمري شارك فيها 3000 شخص بدأوا المسيرة بحماية الجيش، وعند الوصول إلى مونتغمري وصل العدد إلى 30,000.

ـ **6 آب 1965**: وقّع الرئيس جونسون مرسوم حق الانتخاب الصادر سنة 1965.

ـ **شباط 1966**: انتقلت عائلة كينغ إلى حيّ فقير للسود (غيتّو) في شيكاغو.

ـ **آذار 1966**: جمع كينغ العاطلين عن العمل من أجل ترميم الأبنية المهجورة. وعندما تعرض لملاحقة الملاّكين نظّم إضراباً للامتناع عن دفع الإيجارات.

ـ **16 أيار 1966**: أعلن كينغ عن موقف رافض للحرب في ڤييتنام أثناء تظاهرة كبيرة في واشنطن. وقَبِلَ أن يكون رئيساً مشاركاً لمجموعة: «رجال دين وعلمانيون معنيون بڤييتنام».

ـ **حزيران 1966**: ستوكلي كارمايكل وويلي ريكس (S.N.C.C.) يستخدمان للمرة الأولى شعار «السلطة السوداء» أمام الناس.

ـ **4 نيسان 1967**: يهاجم كينغ في خطاب له سياسة الحكومة في ڤييتنام.

ـ **صيف 1967**: اضطرابات عنصرية في مدن الشمال.

ـ **27 تشرين الثاني 1967**: كينغ يعلن أثناء حملة له برنامج عمل «مؤتمر القادة المسيحيين في الجنوب» (S.C.L.C.)، وذلك من أجل شد انتباه الرأي العام لمشكلات الفقراء، السود والبيض على حد سواء.

ـ **3 نيسان 1968**: يلقي كينغ في ممفيس (تينيسي) خطبته «كنت على قمة الجبل».

ـ **4 نيسان 1968**: أصيب مارتن لوثر كينغ بعدة رصاصات وهو على شرفة الفندق في ممفيس، وما لبث أن فارق الحياة في المستشفى متأثراً بجراحه. بعد فترة أوقف جايمز إيرل راي بتهمة اغتيال كينغ.

ـ **5 حزيران 1968**: اغتيال المرشح لرئاسة الجمهورية السيناتور روبرت كينيدي في لوس أنجلوس.

مراجع عن مارتن لوثر كينغ

- ليرون بنيت L'Homme d'Atlanta: Martin Luther King، منشورات Casterman، باريس 1966.
- ج.س. بـــوفـــارد «James Baldwin se souvient de Martin Luther King»، مجلة Esprit، عدد كانون الثاني 1971.
- ف. بـونـفـي Frantz Fanon ou Martin Luther King!، مـجـلـة Preuves، عدد أيار 1968.
- مجلة Cahiers de la Réconciliation، عدد خاص حول مارتن لوثر كينغ صدر في نيسان 1969.
- مقالة لكازامايور بعنوان Martin Luther King في Esprit، العدد 5، 1968.
- مقالة لجان ميشال شارلييه وبيار دوماريه بعنوان: La nort de Martin Luther King في Histoire pour tous عدد شباط 1977.
- بـرونـو شـيـنـو: Dieu est noir- Histoire, religion et théologie des Noirs américains، منشورات Centurion، باريس 1977.
- في Christianisme soical مقالة بعنوان: Mohandas K. Ghandi et Martin Luther King، في Paris، عدد 69، كانون الثاني ـ شباط 1971.
- جيرار غودرولت: «L'engagement de l'Eglise dans la révolution,

«d'après Martin Luther King، منشورات Cerf، 1971.

- هوبير جيربو: Martin Luther King، منشورات Universitaire، 1968.

- كوريتا سكوت كينغ Ma Vie avec Martin Luther king، منشورات Stock.

- توماس ميرتون La Révolte noire، منشورات Casterman.

- هانز - جورج نواك: L'Insurection Pacifique de Martin Luther King، منشورات Alsatia، باريس 1967.

- مقالة في Dossier Planète-Action بعنوان Martin Luther King، العدد 18، تشرين الأول 1970.

- في Cahiers Libres، بحث بعنوان En marge, Les minorités aux Etats-Unis، ص 189 - 190 - 191، Maspero.

- أنجيلا دايفيس: Angela Davis parle، منشورات Sociales، 1972.

- كلود ماي: Angela Davis, Jean-Daniel Simon، منشورات Editeurs français réunis، 1967.

- في Alternatives non-Violentes، بحث بعنوان: Non-Violence aux Etats Unis، عدد 26، كانون الأول 1977.

- س. و د. ميلّيت/ب. مارشون؛ مجلة مصورة عنوانها Martin Luther King، منشورات Le Centurion/Astrapi، باريس 1985.

- ستيفن ب. أوتس Martin Luther King، منشورات Le Centurion، 1985.

- سيرج مولاّ Les Idées noires de Martin Luther King، منشورات Labor et Fides، جنيف 1992.

مؤلفات لمارتن لوثر كينغ

- La Force d'aimer، منشورات Casterman، 1964.
- Révolution non-violente، منشورات Payot، 1965.
- L'Eglise dans un monde en révolution (مؤتمر في باريس)، في Cahier de la réconciliation، عدد كانون الثاني 1966.
- Où allons-nous?، منشورات Payot، 1968.
- La Seule révolution، منشورات Casterman، 1968.
- Combats pour la Liberté، منشورات Petite Bibliothèque Payot، باريس 1968.
- مقالة بعنوان Mon itinéraire vers la non-violence، منشورة في Les Cahiers de la Ŕconciliation، عدد 11، تشرين الثاني 1967.
- Je fais un rêve، منشورات Centurion، باريس 1987 Textes. choisis.

وثيقة هامة عن «الزنوج»: البابا يصدر «فتوى» استعباد أفريقيا(*)

هل يُعقل أن يكون البابا شخصياً هو الذي وقف وراء قرار استعباد الأفارقة قبل قرون، وهو الذي حرّض الأوروبيين على غزو واجتياح وقهر القارة السمراء وسبي أبنائها إلى خارج بلادهم، وأفتى بتحليل كل ما مورس بحقهم من جرائم وتمييز عنصري ما زالت آثارهما تمتد حتى هذه الأيام؟

قبل الاطلاع على نص الفتوى التي أصدرها صاحب أعلى سلطة روحية في الكنيسة الكاثوليكية قبل 558 سنة من اليوم لم يكن من الممكن لأحد أن يتصور أنه فعلاً كان صاحب هذا القرار، لكن الحقيقة المرّة تقول نعم، وتقول أكثر من ذلك، وهذا بعض ما ورد على لسانه:

«لقد سبق أن منحنا الملك الفونس (ملك البرتغال) سلطة تامة ومطلقة لغزو واجتياح وقهر وإخضاع جميع المسلمين والملحدين وسواهم من أعداء المسيح أينما كانوا، واحتلال ممالكهم وإماراتهم

(*) المرجع: نبيل أبو جعفر (باريس). مقالة نشرت في مجلة «المحرر العربي». العدد (378). 10 ـ 16 كانون الثاني/ يناير .2003 ص 14 ـ 15.

ومقاطعاتهم وممتلكاتهم وكل ما في حوزتهم وتحويلهم إلى عبيد أرقاء إلى الأبد. كما منحناه إدخال تلك الممالك والممتلكات والخيرات التي كانت لهؤلاء الكفّار المسلمين والملحدين في ملكيته وملكية من خلفه، وأعلنا أيضاً أن المناطق التي تم الاستيلاء عليها وتلك التي سيتم الاستيلاء عليها في المستقبل، وكذلك المنطقة الممتدة من رأس Bojadar و Nam حتى غينيا بأكملها، أي في اتجاه الجنوب (الأفريقي) تخضع لسلطة الملك ويستطيع بموجب هذه الفتوى طوعاً وشرعاً اتخاذ أي قرار وفرض أي تحريم وإنزال أي عقوبة وجباية الضرائب... الخ».

هذه المقتطفات ترجمة حرفية عن اللاتينية لجزء من الفتوى التي أصدرها البابا نقولا الخامس واسمه الحقيقي توماسو بارنتوشلي في القرن الخامس عشر، داعياً فيها الملك الفونس الخامس وخَلَفَه وكل المسيحيين البيض إلى استباحة القارة السمراء وأخذ أبنائها أرقاء إلى الأبد، كما هو وارد فيها بالتفصيل، وحسبما وردت نصاً في كتاب صدر بالفرنسية أخيراً تحت عنوان «**خطيئة البابا**» **للمؤرخ الأفريقي حساني فساسي**.

ولم يكتف البابا بذلك، بل أمر باعتبار فتواه سارية المفعول إلى الأبد، شاملة لا تسقط مع الأيام وتغيُّر الحكام، فقال في سطورها الأخيرة ما يلي: «إننا بحق دم سيدنا المسيح وقضيته نناشد رجال الدين علمانيين ونظاميين من أنظمة الكهنوت جميعاً، ونحثهم، ونأمرهم بالامتناع امتناعاً باتاً بموجب هذه الفتوى الأبدية عن بيع الكفار المسلمين والملحدين في المناطق والأراضي والمقاطعات التابعة للملك الفونس أسلحة وحديداً وخشب بناء ومنتجات أخرى يحظر القانون بيعها إليهم، كما نأمرهم أيضاً بالامتناع عن بيعهم

بضائع ومنتجات غذائية مسموح ببيعها إلا بعد الحصول على ترخيص خاص من الملك الفونس.

وعليه، فليحذر كل واحد من خرق هذا الميثاق الذي يحمل في كل مكان صلواتنا وتصريحاتنا وقرارنا وهباتنا وتحريمنا وأمرنا ومشيئتنا . . . الخ».

روما، بجوار القديس بطرس، سنة تجسد الرب 1454، العاشر من كانون الثاني/يناير

ليتمجّد اسم الرب، هللويا، آمين

.. وكرّت السبحة في الغرب!

فإذا علمنا أن كل ما ورد في هذه الفتوى قد نُفِّذ بالكامل وصولاً إلى سبي الأفارقة ونقلهم عبر البحار إلى ايبيريا (إسبانيا والبرتغال)، وبلدان القارة القديمة أوروبا والجديدة أميركا تحت حجة العمل على كسبهم للدين المسيحي وتنصيرهم «من أجل تطهير أرواحهم من رجس الشيطان». . . الخ، فإن علينا أن نعلم في الوقت نفسه أنها مهدت أيضاً إلى صدور «فرمان» آخر في فرنسا، البنت البكر للكنيسة الكاثوليكية في العام 1685 على أيدي لويس الرابع عشر الملقب بملك الشمس، وقد سنّ فيه مشيئة البابا على شكل قانون من ستين مادة سُمّي بـ «القانون الأسود»، كان أبرز ما فيه إجبار الرق على اعتناق المسيحية بأوامر من الحكام.

وبعد ذلك بمئتي سنة، أي في العام 1885 تم انعقاد ما سُمي بمؤتمر برلين الأفريقي الذي خُصص لتعزيز هذا التوجه العنصري نحو استرقاق خلق الله الآخرين، وجاءت قراراته التي استندت إلى التمسح

اللفظي بالذات الإلهية والمسيح والإنجيل مبرراً للمشروع البربري ضد الأفارقة حيثما وجدوا، وقد استهلت بعبارة «باسم الله الكلّي القدرة» للتغطية على كل الجرائم العنصرية التي ارتكبت لاحقاً وفي مقدمتها استمرار عمليات التهجير القسرية التي أُطلق عليها اسم «تجارة الرقيق»!.

هذه التوجهات الثلاثة إذن هي التي سببت أساس البلاء الذي حلَّ بالأفارقة وتحكّم في مصيرهم طوال قرون وصولاً إلى اليوم، ولكن، هل يجوز أن ننسب كل هذا الإجرام، «المقنّن»، إلى المسيحية، وهل يمكن إدانة الدين المسيحي بمجرد قيام سلطات ذاك الزمان بممارسة أبشع أنواع الاضطهاد تحت لافتة الفتاوى الدينية والتراث الثقافي والحضاري، والترويج لأساطير وعنصرية وبربرية من قبل الغرب؟

كلا، يجيب فساسي في كتابه: فالأفارقة والمسلمون يعرفون أن رسالة المسيح هي عكس ذلك تماماً، وعكس ما فعل البابا نقولا الخامس والكنائس الأوروبية والغربية بحق الأفارقة والهنود الحمر وشعوب أخرى باسم الدين.

فإذا كان أول المستفيدين من سبي الأفارقة في أرجاء العالم هم البروتستانت واليهود والكاثوليك، إلا أن هناك بعض التجار العرب والمسلمين مارسوا تجارة الرق، وكانت جريمتهم في ذلك أكبر بلا شك لأنهم قاموا بتسهيل عملية استرقاق أخوتهم المسلمين إلى غير المسلمين، لكنهم بالطبع لم يقوموا بهذا العمل الخسيس تحت اسم الإسلام كما فعل الأوروبيون، بل على العكس كانوا على يقين أنهم وإن أقدموا على ذلك من قبيل الارتزاق إلا أنهم كانوا يطعنون دينهم

في الصميم، ذلك لأن روح الإسلام ونصوصه منذ بدء الدعوة المحمدية حتى اليوم لا تتضمنان أي إشارة يمكن أن تُبرر الاستعباد أو تقلل من جريمته، بل العكس هو الصحيح.

وعلى النقيض من ذلك تماماً نادت الكنيسة الكاثوليكية القديمة والمؤسسات التبشيرية الناطقة باسم المسيحية بكل ما يتعارض ورسالة السيد المسيح في هذا الموضوع تحديداً.

عنصرية رموز كبيرة

أما المفاجأة التي لا تخطر على بال فتتمثل في أن أبرز المفكرين والأدباء المعروفين أمثال فيكتور هوغو وفولتير ومونتسكيو كانوا من المحرضين على استعباد الأفارقة انطلاقاً من قناعات ذاتية لا تنسجم مع الصورة المأخوذة عنهم لدى الجميع، ونقرأ في التفاصيل خطاباً لفيكتور هوغو أمام الجمعية العمومية يحث فيه البيض للاستيلاء على أفريقيا «التي لا تاريخ لها»، حسبما قال!، ونقرأ على لسانه كلاماً أغرب حيث يقول: «لقد وهب الله أفريقيا إلى الأوروبيين، فخذوها» (مقالات في أفريقيا ـ 18 أيار/ مايو 1879 ـ منشورات روبير لافون ـ باريس)، كما نستدل أيضاً على عنصرية فولتير أيضاً في ما ورد في كتابه «دراسة في الطبائع والعادات».

وعلى الجانب المقابل، نجد أسماء بارزة لشرفاء من الرجال الأوروبيين الذين وقفوا إلى جانب الأفارقة ودافعوا عن قضيتهم بكل إمكاناتهم، أمثال الأب غليوم توماس الذي كرّس حياته للدفاع عن حرية السود وصد الهمجية الأوروبية ضدهم، والمفكر الفرنسي ديديرو الذي انتهج هو الآخر الطريق نفسه بالنسبة للسود والهنود الحمر.

وبالعودة لتاريخ إصدار فتوى البابا نرى أنها جاءت بعد اندحار العرب المسلمين من الأندلس. وكان البابا نفسه قد طلب من ملك البرتغال جان الأول في العام 1432، وقبل أن يصبح رئيساً للكنيسة الكاثوليكية شنّ حرب صليبية على المسلمين في أفريقيا. يومها كان توماسو بارنتوشلي اليميني المتطرف قد بدأ يركز أوضاعه ويبرز بين رجال الكنيسة، فكان له ما أراد، خصوصاً وأن طلبه جاء منسجماً مع الرغبات البابوية الأولى التي صدرت في العام 1415 وأدت إلى قيام البرتغاليين بتحويل أول مسجد أفريقي إلى كنيسة، وقيام الإسبان بالاستيلاء على مدينتي سبته ومليليه المغربيتين وعلى جزر الكناري.

وبعد خمسين عاماً من صدور فتوى البابا مكّن مكتشف أميركا كريستوفر كولمبس ومعه الملك هنري الملاح أوروبا من وضع يدها على أفريقيا والعالم الجديد. حصل ذلك وفقاً لمعاهدة «قشتاله» التي أبرمت في 7/ 6/ 1494 بمباركة البابا اسكندر السادس، وقد وضعت بموجبها إسبانيا يدها على المستعمرات الأميركية مقابل وضع يد البرتغال على أفريقيا.

الاستعمار الجديد

ومع بداية القرن العشرين أو قبل ذلك بقليل، ومع تغير الظروف والموازين أصبحت أفريقيا محط أنظار الكثير من الدول الأوروبية وبدت هدفاً للغزو الاستعماري الفرنسي الذي نجح في تجنب ما علق بإسبانيا من تدهور في أسلوب سيطرتها على القارة السمراء. وكان ما كان من مرحلة الاستعمار البشع التي ساهمت فيها أوروبا ممثلة ببريطانيا وفرنسا والبرتغال وإسبانيا وإيطاليا وهولندا. . .، ولم تكتف باستغلال البلاد والعباد، بل نفذت أقسى أوامر البابا كما أراد وأكثر،

الأمر الذي ترك آثاراً لا يمكن أن تندمل مع الأيام وأدى إلى صحوة الأفارقة ومطالبتهم بالكشف عن كل الجرائم التي ارتكبت بحقهم والاعتراف بها والاعتذار عنها. وكان من أبرز مظاهر التجاوب مع هذه المطالبة وقوف البرلمان الفرنسي أمامها أخيراً ومناقشتها تفصيلياً على مدى شهور عدة وتتويج ذلك بالإقرار الرسمي أن تجارة الرق التي اتبعت سابقاً في أفريقيا كانت جريمة بحق الإنسانية.

طبعاً، مطلب الأفارقة هذا عززه تأييد أحرار العالم لهم، وأخذ زخماً أقوى عندما تصدر جدول أعمال مؤتمر دوربان العالمي ضد العنصرية الذي عقدته منظمة الأمم المتحدة في جنوب أفريقيا عام 2002 وخرج بقرارات حاسمة تبنّت حق الأفارقة في مطالبة الدول الغربية بالاعتذار عن مسلسل الجرائم الذي ارتكبته بحقهم داخل القارة وخارجها، وأقرّ بواجب طلب الصفح من أفريقيا ودفع التعويضات اللازمة عن الأضرار التي لحقت بهم وإصلاح ما وقع عليهم، هذا إذا أرادت أوروبا الألفية الثالثة الانسجام مع ما تطرحه من أفكار التحرر والديموقراطية والمساواة الخ... وهو ما عبّر عنه الرئيس أحمد بن بله، أحد رجال أفريقيا وثوارها بالقول: «إن التعويضات وإصلاح الأضرار فضلاً عن تقديم الاعتذار هي في الحقيقة علاج صحي يداوي به هؤلاء الغربيون أنفسهم».

ولكن: من يدفع هذه التعويضات؟ وماذا يدفع؟ وإلى من تدفع؟ ثم، من سيشرف على متابعة هذه المهمة الصعبة وكيف يمكن تنفيذها؟ البروفيسور الكيني علي المزروعي أحد الناشطين في مجال المنظمات غير الحكومية وأحد أعضاء التجمع المكلف بدراسة أشكال التحرك الذي تقوم به أفريقيا في هذا الاتجاه يُجيب على ذلك بقوله: «إن النضال من أجل الحصول على تعويضات لا يقوم على تذنيب أوروبا،

بل تحسيسها بالمسؤولية. يضاف إلى ذلك أن الدول وفقاً لأحكام القوانين الدولية مُلزمة بتحمل مسؤولية الديون المترتبة عليها تجاه غيرها من الدول، حتى ولو تغيرت الحكومات داخل هذه الدول بعد التاريخ الذي ترتبت عليه هذه الديون».

ويُعطي المزروعي مثلاً على ذلك بسابقة اليهود فيقول: «لم تكن دولة إسرائيل قد قامت بعد حينما ارتكب النازيون ما ارتكبوه بحق اليهود، ومع ذلك، فإن هذه الدولة هي المستفيدة الأولى والأهم من التعويضات التي دفعتها المانيا عن «الهولوكوست»، كما أن الناجين من «الهولوكوست» أنفسهم هم بين المستفيدين من هذه التعويضات».

وأخيراً، هل اتضحت الصورة الآن، أم أن بني إسرائيل غير بني القارة السمراء، ولهم من الحقوق ما ليس لغيرهم في هذا العالم؟ هذا العالم الذي هرولت رؤوسه الكبيرة لتنفيذ أوامر بابا لم يكن انتخابه وليد الصدفة، بل بداية مقروءة سلفاً لسلسلة من القرارات العنصرية التي تركت أسوأ الآثار في تاريخ أفريقيا على وجه الخصوص، فهل يعيد التاريخ نفسه فيتفوق «بابا أميركا» الذي لم يأتِ انتخابه ـ بنصف نسبة مئوية فقط ـ صدفة هو الآخر، على البابا نقولا الخامس ويترك أسوأ الآثار على البشرية كلها؟

يا له من عالم «متحضر»... ومن تاريخ!●

لوت والتفرقة العنصرية في الولايات المتحدة(*)

بات العالم يعرف الآن أن السناتور الجمهوري ترنت لوت يعاني من مشاكل بسبب التعليقات التي تفوه بها في الخامس من كانون الأول في حفل عيد الميلاد المئوي للسيناتور المتقاعد ستروم ثرموند من ساوث كارولينا.

في ذلك الحفل أشار لوت إلى أنه عام 1948 عندما ترشح ثرموند لرئاسة الولايات المتحدة عن حزب «حقوق الولايات» في ولاية المسيسيبي فإنه (أي لوت) صوت لصالح ثرموند وقال: «أريد قول هذا عن ولايتي: فعندما ترشح ثرموند للرئاسة صوتنا لمصلحته، وكنا فخورين بذلك، ولو أن باقي أميركا اتبعت خطانا لما شهدنا كل هذه المشاكل على مدار السنين».

كانت القضية المركزية بالطبع لحزب حقوق الولايات المطالبة بحق الولايات في رفض ضغط الحكومة الفيدرالية لإنهاء سياسات موجودة في ولايات عديدة تعزز الفصل الصارم للأعراق في ما كان يسمى بسياسة الفصل العنصري.

(*) **المرجع**: جيمس زغبي. (واشنطن). «المستقبل» السبت 21 كانون الأول/ ديسمبر 2003. ص 17.

وفي الواقع تشكل حزب «حقوق الولايات» في الأساس بواسطة ديموقراطيين من جنوب الولايات المتحدة الذين تركوا حزبهم وقتها، وفيما بعد، احتجاجاً على تحرك الحزب باتجاه تأييد برنامج مناهض للفصل العنصري. وقاد ثرموند الذي كان مؤيداً عنيداً للفصل العنصري الحركة عام 1948 وحصدت حملته الرئاسية أربع ولايات جنوبية.

ومع استمرار الديموقراطيين في تأييد سياسات مناهضة للفصل العنصري خلال العقود القليلة التالية ترك ديموقراطيون جنوبيون كثر الحزب، وأصبحوا في نهاية المطاف جمهوريين. والحقيقة أن هذا التحول التاريخي في السياسات الأميركية في ولايات الجنوب من الحزب الديموقراطي إلى الجمهوري كان بسبب السياسات العنصرية.

وبدت تعليقات لوت في هذا السياق تصديقاً واضحاً على أجندة ثرموند الداعية للفصل ومذكراً بالانقسام العنصري العميق الذي لا يزال يلعب دوراً في الولايات المتحدة اليوم.

وإذا كان الفصل العنصري انتهى رسمياً كمسألة قانونية في الستينيات فإن تراث الانقسام العنصري ما زال باقياً. وفي العقود العديدة الماضية سن الكونغرس تشريعات، وفرضت الحكومة الأميركية قوانين لإنهاء التمييز وتوفير الفرص المتساوية والوصول لكل الأميركيين، وتم حظر الفصل في التعليم والإسكان العام وكل وسائل الراحة والخدمات الأخرى، واتخذت خطوات لتنفيذ ما سمي ببرنامج «العمل الإيجابي». بحيث يمكن أن يشمل الآن الأميركيين الأفارقة الذين استبعدوا في مجالات عمل معينة وإسكان وتعليم.. الخ. وقد كفلت حقوق الأميركيين الأفارقة في التصويت وأخيراً بادر الرئيس السابق بيل كليتون لإطلاق حوار قومي حول العنصرية سعياً للمساعدة

في تجاوز الانقسام العنصري.

ومع ذلك لا تزال هناك مشاكل. فما زال الأميركيون الأفارقة قلقين حيال الثغرات الموجودة في الفرص الاقتصادية والتعليمية. ويعبر بعض البيض عن سخطهم إزاء البرامج الفيدرالية المختلفة التي يشكون أنها تضعهم في وضع أقل من الآخرين.

وكان السياسيون يستغلون أحياناً تلك المخاوف، وكنتيجة لذلك ظلت العنصرية قضية انتخابية قوية. وألمح جيسي جاكسون زعيم الحقوق المدنية البارز إلى كيفية لجوء بعض السياسيين لإصدار رسائل مشفرة لمخاطبة الجماهير البيضاء واللعب على وتر مخاوفهم.

وقد وضعت تعليقات لوت في هذا السياق. وتساءل بعضهم: ماذا قصد لوت بالضبط بعبارة «كل هذه المشاكل»؟

ونظراً لحقيقة أن السيناتور لوت ليس جمهورياً عادياً ولأنه مرشح لاستئناف مهام منصب زعيم الأغلبية بمجلس الشيوخ (وهو المنصب الذي شغله من 1996 إلى 2001) فإن ذلك جعل لتعليقاته نتائج خاصة.

إلا أن الأمر المحير في المسألة كلها هو كيف تطورت على هذا النحو؟ فللوهلة الأولى لم تحظ تعليقات لوت باهتمام ملحوظ ولم تنشر على نحو واسع. إذ صدرت التعليقات يوم الخميس الخامس من كانون الأول، ولم تلفت الأنظار على المستوى الوطني قرابة خمسة أيام. وفي البداية تحدث بعض الأميركيين الأفارقة أعضاء الكونغرس ونائب الرئيس السابق آل غور منتقدين تعليقات لوت.

وفي العاشر من ديسمبر انقلبت القصة إلى حدث رئيسي وظلت تبرز مع تسليط مزيد من الضوء على سجل السيناتور لوت في القضايا

العنصرية والتعليقات الأخرى المشابهة التي تفوه بها. فقد قيل أنه صرح بنفس هذه التعليقات عام 1980 أثناء حملة انتخابية في المسيسيبي عندما كان رونالد ريغان يترشح للرئاسة.

ووجد باحثون آخرون في سجل لوت الماضي ما يلي:

ـ لوت بدأ عمله كمعاون لعضو كونغرس ديموقراطي من دعاة الفصل العنصري.

ـ في 1978 وبصفته عضواً بالكونغرس ناضل من أجل إعادة الجنسية لجيفرسون دافيس زعيم «منظمة الكونفدرالية» التي حاربت الحكومة الأميركية في الحرب الأهلية.

ـ في 1981 قدم لوت دفاعاً للمحكمة العليا لمصلحة المدارس الخاصة التي تنتهج الفصل العرقي.

ـ في الكونغرس ومجلس الشيوخ صوت لوت ضد قانون حقوق التصويت وقانون إجازة مارتن لوثر الفيدرالية وتجديد قانون الحقوق المدنية لعام 1990.

ـ لوت احتفظ أيضاً بعلاقة مع منظمة أبناء محاربي الفيدرالية القدامى ومجلس المواطنين المحافظين وهي مجموعة تتبنى فلسفة مؤيدة للفصل.

ومع تنامي القصة وتغذيتها بمعلومات جديدة نفّس الديموقراطيون الصامتون عن غضبهم، إلا أن المحافظين كانوا على ثلاثة ميول: فالبعض مثل مجلس بحوث الأسرة انتقد لوت بشدة. وفي بيان صدر في العاشر من كانون الأول قالت المجموعة: السيناتور لوت لا يبدو أنه يقدر كثيراً كيف استقبلت هذه التعليقات بين الأميركيين السود.

فالضرر الذي سببه ضرر كبير. . . الكلام مهم بالرغم مما قد كان في نية السيناتور لوت عندما تفوه به. كلمات السيناتور في آذان الأميركيين السود تشبه بشكل لا لبس فيها رفض الدمج العرقي وحركة الحقوق المدنيّة.

وحاول آخرون الدفاع عن تعليقات لوت باعتبارها غير ضارة وقالوا أنها لا تعكس معتقداته الحقيقية. ولكن الأغلبية، لشعورها بالعاصفة المتنامية، ظلت صامتة. وكان الرئيس بوش أول من قدم بيان دعم لطيف للوت ولكنه أدرك في النهاية أنه يجب قول المزيد. وفي الثاني عشر من ديسمبر في معرض حديثه عن جهد مبادرته القائمة على العقيدة قال بوش:

«أي إيحاء بأن ماضي الفصل العنصري كان مقبولاً أو إيجابياً هو اعتداء وخطأ. والتعليقات الأخيرة للسيناتور لوت لا تعكس روح بلدنا. . . وكل يوم شهدت فيه أمتنا فصلاً عنصرياً هو يوم كانت فيه أميركا غير وفيه لقيمنا التأسيسية».

وفي نهاية المطاف ظهر لوت أمام الصحافة وقدم اعتذاره الرابع هذا الأسبوع في مسعى جديد لإخماد العاصفة المتنامية.

وما زال من غير الواضح ما إذا كانت جهوده ستكلل بالنجاح. ذلك أن الرئيس بوش وجمهوريين آخرين حاولوا مد جسور التواصل مع الناخبين من الأميركيين الأفارقة وربما يشعرون أن تعليقات السيناتور لوت سوف تقضي على جهود الحزب في هذا الصدد. وإذا كان الأمر كذلك فقد يقررون الضغط على لوت كي يتخلى عن زعامة الأغلبية.

من الناحية الأخرى سيواصل الديموقراطيون الضغط من أجل

استقالة لوت بل واستبعدوا تعليقات بوش ويقولون أنه إذا نجح الرئيس في وضع مبادرته القائمة على العقيدة موضع التطبيق وخصخصة التعليم وإنهاء العمل الإيجابي فإن المكاسب التي حصل عليها الأميركيون الأفارقة ستكون كلياً عرضة للخطر. فالصراع الذي نتج عن تعليقات السيناتور لوت لم ينته.

كل هذا يشير بجلاء إلى أنه بالرغم من التقدم الذي تحقق فإن الانقسام العنصري في الولايات المتحدة ما زال قوة حقيقية وفعالة في الحياة السياسية الأميركية.

بعد تعرضه لضغوط بسبب تصريحاته «العنصرية» لوت يتخلى عن زعامة الغالبية الجمهورية في مجلس الشيوخ(*)

استقال رئيس الغالبية الجمهورية في مجلس الشيوخ الأميركي ترنت لوت من منصبه في وقت بدأ أعضاء الحزب الجمهوري يبحثون عن بديل آخر.

وجاءت استقالة لوت بعد تعرضه لضغوط كبيرة بسبب تصريحات اعتبرت عنصرية وأثارت جدلاً كبيراً داخل الحزبين الجمهوري والديموقراطي ودعاة الحقوق المدنية.

وأعلن لوت في بيان أمس: «لن أسعى إلى البقاء رئيس الغالبية في مجلس الشيوخ في الدورة الـ 108 اعتباراً من السادس من كانون الثاني 2003.. سأواصل خدمة شعب مسيسيبي داخل مجلس الشيوخ»، في إشارة منه إلى أنه يعتزم البقاء كعضو في مجلس الشيوخ.

ويتوقع أن يتولى زعامة الغالبية الجمهورية السيناتور عن ولاية تينيسي بيل فريست وهو مدعوم من البيت الأبيض. وقد أصدر فريست

(*) **المرجع**: جريدة «المستقبل»، السبت 21/ 12/ 2003. والوكالات.

بياناً قال فيه أن العديد من النواب طلبوا منه القبول بالمنصب.

ويبدا واضحاً أن سلطة لوت بدأت تترنح قبل أسبوع بعدما تعرض لانتقادات من الرئيس الأميركي جورج بوش بشأن تصريحاته بداية كانون الأول. واعتبر بوش أن هذه التصريحات لا تمثل ما وصفه بالروح الوطنية للولايات المتحدة.

وكان لوت أدلى بتصريحات مثيرة للجدل في حفل أقيم أخيراً للاحتفال بعيد الميلاد المئوي لعضو مجلس الشيوخ المتقاعد ستروم ثيرموند الذي خاض انتخابات الرئاسة عام 1948 ببرنامج يؤيد الفصل العنصري بين البيض والسود الأميركيين. وقال لوت في الحفل أنه فخور لمساندة ولاية مسيسيبي التي ينتمي إليها عضو مجلس الشيوخ ثيرموند في حملة الانتخابات الرئاسية عام 1948. أضاف في التصريحات التي كررتها محطات التلفزة الأميركية بشكل شبه يومي «لو أن باقي الولايات الأميركية قد حذت حذو مسيسيبي، لما كنا واجهنا المشكلات التي واجهناها خلال السنوات الماضية».

وتصاعدت الحملة ضد لوت مجدداً عقب الكشف عن كلمة أخرى أدلى بها لوت مثيرة للجدل في الحملة الانتخابية لرونالد ريغان عام 1980. وقد أشار لوت في هذه الكلمة إلى السيناتور ثيرموند، الذي كان يجلس بجواره أثناء الحملة الانتخابية آنذاك، قائلاً «لو كنا انتخبنا هذا الرجل منذ ثلاثة عقود لما وجدنا أنفسنا في الورطة التي نواجهها اليوم».

وقد اعتذر لوت عن تلك التصريحات مرات عدة، غير أن خصومه السياسيين يرون أنه يجب أن يدفع ثمن زلة اللسان ويتخلى عن موقعه القيادي في مجلس الشيوخ لشخص آخر لا يحمل سجله أي إشارات لمساندة العنصرية أو التميز ضد السود.

الأميركي الأسود يخشى استخدامه حقل تجارب(*)

أظهرت دراسة أن نحو 80 في المئة من الأميركيين السود و 52 في المئة من البيض يرتابون في النظام الطبي ويعتقدون أنهم أو «أناس مثلهم» قد يستخدمون كحقول تجارب في أغراض البحث دون موافقتهم المسبقة.

وجاء في المسح الذي نشر بتاريخ 25 تشرين الثاني/ نوفمبر 2002 في أرشيف الطب الباطني إن غالبية السود يرتابون في أطبائهم، وأوضح أيضاً أنه يصعب إقناع الأميركيين المنحدرين من أصول أفريقية بالمشاركة في التجارب الطبية.

وقالت الدكتور جيزيل كوربي سميث الأستاذ المساعد للطب الاجتماعي والطب الباطني في جامعة نورث كارولاينا التي قادت الدراسة في بيان «كمجتمع نرغب في الحصول على أفضل نظام للرعاية الطبية».

وهذه الرعاية تستند إلى أدلة يوفرها البحث الطبي. ومع ذلك

(*) المرجع: المستقبل ـ الأربعاء 27 تشرين الثاني (نوفمبر) 2002 م. ووكالة (رويترز).

يبدو أن الكثيرين منا كأفراد يرتابون في الهيئة البحثية ولا يرغبون في المشاركة في أنشطتها وهذا انفصام حرج».

ولا يستطيع السود نسيان الدراسة سيئة السمعة التي ترك فيها الأطباء المواطنين السود في ولاية ألاباما دون علاج من داء الزهري بين عام 1932 و 1972 على الرغم من علمهم بأن المضادات الحيوية كفيلة بعلاجهم. وكان الأطباء يرغبون في دراسة «التطور الطبيعي» للمرض.

وقالت كروبي سميث «منذ دراسة داء الزهري علمنا أن عدداً كبيراً من الأميركيين الأفارقة يرتابون في المجتمع البحثي. والآن نعلم أن الكثير من البيض يشاركونهم نفس المخاوف».

وحذرت من أن هذه المخاوف قد تعوق الجهود المبذولة لإجراء أبحاث طبية مهمة.

وقابل الباحثون في هذا المسح 500 من السود و 400 من البيض من شتى أنحاء البلاد.

ووجدوا أن 63 في المئة من الأميركيين المنحدرين من أصول أفريقية و 38 في المئة من البيض الذين شملهم المسح يعتقدون أن الأطباء يصفون عادة أدوية بعينها بغرض إجراء تجارب على الناس دون معرفتهم.

كما قال ربع السود و 8 في المئة من البيض أن أطباءهم أعطوهم أدوية في بعض الأحيان كجزء من تجربة طبية دون موافقتهم.

المشتبه به في قضية «قناص واشنطن» كان عضواً في جماعة «أمة الإسلام»

فرقان: منفذ تفجير أوكلاهوما كان مسيحياً لكن أحداً لم يلق باللوم على الكنيسة(*)

أكد زعيم جماعة «أمة الإسلام» الأميركية لويس فرقان في 2002/10/26، أن آلان وليامز، المعروف أيضاً باسم جون آلان محمد، المشتبه في كونه «قناص واشنطن» كان عضواً في «أمة الإسلام»، ولكنه لم يعمل حارساً للأمن في الجماعة التي نظمت مسيرة المليون أسود عام 1995 بهدف الدفاع عن حقوق السود الأميركيين.

وأنكر فرقان، في مؤتمر صحافي، أن يكون «انتماء جون آلان محمد للإسلام هو الدافع وراء احتمال ارتكاب جرائم القنص المشتبه فيها».

ولفت الانتباه إلى أن «منفذ تفجير أوكلاهوما تيموثي ماكفي اعترف بأنه كان مسيحياً، ولكن أحداً لم يلق باللوم على الكنيسة بسبب سوء تصرفه».

أضاف: «ربما كان وليامز موجوداً في مسيرة المليون شخص

(*) المرجع: «المستقبل». الاثنين 28/ 10/ 2002. والوكالات.

عام 1995، لكنه لم يتول حماية لويس فرقان. إن من المرعب لنا أن يكون شخص تواجد بين صفوفنا فترة ما متورطا في مثل هذه الجرائم»، مشيراً إلى أن زوجة وليامز الأولى لا تزال عضوة في «أمة الإسلام».

وأوضح أن «كل الذين تعاملوا مع وليامز في الجيش والمسجد لم يلاحظوا عليه أي سلوك قبيح».

وأكد فرقان أن حمل السلاح هو انتهاك لمبادىء «أمة الإسلام»، وأن وليامز سوف يفصل من الجماعة إذا تمت إدانته في القضايا المنسوبة إليه.

وقد انتسب، المشتبه به في جرائم القنص التي سقط فيها عشرة قتلى وثلاثة جرحى، إلى «أمة الإسلام» عام 1997 ولكن نشاطه في الجماعة توقف بعد نشوب نزاع مدني بينه وبين زوجته الأولى، حسب فرقان.

إلى ذلك، توصل مكتب التحقيقات الفيدرالي الأميركي (أف.بي.آي.) إلى تحديد مكان الشريك في ملكية السيارة التي اعتقل فيها رجلان يعتقد أن أحدهما «قناص واشنطن»، وذلك في الوقت الذي استمتع فيه سكان العاصمة الأميركية والمناطق المحيطة بها بأول عطلة نهاية أسبوع بلا خوف، منذ بدأت سلسلة جرائم القتل العشوائية قبل نحو شهر.

وقالت الناطقة باسم «أف.بي.آي» ديبي وايرمان أن ناثانييل أوسبورن اعتقل في فلينت (ولاية ميتيشيغن) ووضع رهن الاحتجاز كشاهد مادي في القضية.

ويعتقد أن أوسبورن ساعد المشتبه فيهما في شراء السيارة

الشيفروليه المسجلة في نيوجيرزي التي قبض عليهما بداخلها أثناء توقفها في مكان للانتظار على طريق سريع في ماريلاند.

وأوضحت وايرمان أن «السيد أوسبورن ليس موضع تحقيق لكننا نعتقد أن بإمكانه تقديم معلومات قيمة إلى المسؤولين عن تنفيذ القانون».

وفي الوقت الذي تعكف فيه السلطات على جمع الأدلة ضد المشتبه فيهما جون آلان محمد ورفيقه، ابن زوجته، جون لي مالفو، برز خلاف بشأن المكان الذي سيمثلان فيه للمحاكمة أولاً.

وكان دوغلاس جانسلر المدعي العام لولاية ماريلاند أول من أعلن أحقيته في تقديمهما إلى المحاكمة، مشيراً إلى أن ستاً من جرائم القتل العشر وقعت في دائرة سلطته في مقاطعة مونتغمري. وقال: «الشعور السائد بين غالبية الناس هو أن مقاطعة مونتغمري تأثرت بنسبة أكبر في هذه القضية. وضعنا هو الأفضل في السعي للحصول على العقوبة المناسبة» للمشتبه فيهما.

وكانت ولاية ماريلاند هي أول ولاية أعلنت توجيه ستة اتهامات بالقتل من الدرجة الأولى في قضية القناص إلى كل من محمد البالغ من العمر 41 عاماً والجندي السابق الذي شارك في حرب الخليج عام 1991 مالفو.

كما ذكر مسؤولون في ولاية فرجينيا حيث قتل ثلاث من ضحايا القناص وجرح ثلاث آخرون أن سلطات الادعاء في الولاية من حقها طلب الحكم بالإعدام في القضية.

وتدخل القضية في نطاق السلطة القضائية لسبع مناطق يمكن أن تنظر فيها، منها اثنتان في ماريلاند وأربع في فرجينيا إضافة إلى منطقة

كولومبيا التي تقع فيها مدينة واشنطن. كما تتضمن القضية اتهامات عدة يمكن أن تنظر فيها المحاكم الاتحادية.

واعتقل المتشبه فيهما في أعقاب واحدة من أضخم عمليات المطاردة في تاريخ الولايات المتحدة. وأكدت السلطات أن طلقات بندقية عثر عليها في سيارتهما تطابق أعيرة استخدمها القناص في قتل ضحاياه.

وتعكف سلطات وزارة العدل الأميركية على دراسة إمكان توجيه تهم فيدرالية ضد المتهمين، مشيرة إلى أنه في حال إعلان تهم فيدرالية سوف تنحى التهم التي وجهتها السلطات المحلية جانباً، في الوقت الذي تجمع فيه سلطات التحقيق المزيد من الأدلة كي تتقدم بقضية قوية ضد المتهمين وتتفادى أي ثغرة قد تسمح للمتهمين بالحصول على عقوبة أقل من الإعدام.

وقد عاد الهدوء إلى واشنطن وضواحيها وتنفس سكانها الصعداء للمرة الأولى منذ بدء مسلسل القتل الذي تسبب في تعطيل الدراسة ليومين في بعض مدارس ولاية فيرجينيا ودفع السلطات المدرسية إلى تعليق الأنشطة وفرض إجراءات أمنية مشددة حول وداخل المدارس، وإلغاء فترة الراحة أثناء اليوم الدراسي.

الشاعر أميري بركة يتحدّى جميع المؤسسات الحكومية والشعرية الأميركية(*)

رغم أن أميري بركة، الشاعر والكاتب المسرحي والسياسي الأسود، قد اعتاد على مدى السنوات أن يثير الجدل والغضب وحتى النبذ أحياناً لمواقفه الرافضة للتيارات السائدة على المستويين السياسي والاجتماعي، إلا أنه لم يواجه أيضاً في أية من معاركه السابقة حملة تشهير بضراوة الحملة التي لا تزال تقودها ضده أبواق الإعلام اليهودي الأميركي منذ قرأ قصيدته ـ القنبلة ـ «شخص ما فجر أميركا» في 19 أيلول 2002 في مهرجان شعري بولاية نيوجيرسي، فقد أثارت القصيدة رد فعل عاماً عنيفاً، مطلقة عناقيد الغضب من الصحافة المحافظة والمنظمات اليهودية، وفي مقدمتها بطبيعة الحال «رابطة مناهضة التشهير» الصهيونية.

وقد توالى نشر صور أميري بركة، بوجهه المغضن من الغضب والازدراء مع مقالات حادة الانتقاد مطالبة راديكالي الستينات السابق وشاعر ولاية نيوجيرسي المتوّج بتقديم استقالته من هذا المنصب

(*) المرجع: أحمد مرسي (نيويورك). جريدة «المستقبل». الاثنين 14 نيسان/ أبريل 2003. ص 12.

الشرفي والاعتذار عن «عدائه السافر للسامية»، وقد هاجمه حتى شاعر الولاية المتوجّ الأول جيرالد ستيرن الذي قال إنه قد شعر بالصدمة من «سخف» الرسالة التي حملتها قصيدته، ورماه بالكذب، مُعرباً عن الأسف لأنه هو الذي أوصى باختياره لمنصب الشاعر المتوّج، والذي يأتي بمكافأة سنوية قدرها 10 آلاف دولار.

وكان المقطع الذي أثار هذه الزوبعة ينطوي على إشارة إلى علاقة يهودية بكارثة مركز التجارة العالمي، ويرد أنصار الشاعر بأن الكلمات تلمس وتراً حساساً لأنها عارية من التخيل والرمزية.

وفي أوج هذه الحملة الدعائية السلبية وبّخ حاكم الولاية أميري بركة وطالبه بالاستقالة في وقت كان يدرك فيه أن التشريع الذي اعتمدته حاكمة الولاية السابقة كريستي ويتمان التي أنشأت المنصب لا يسمح حتى الآن لأي ضغط من الحكومة بإجبار الشاعر على التخلي. ولا يزال الحاكم يحاول بالتعاون مع المجلس التشريعي للولاية إصدار تشريع يسمح بطرد بركة، ومع ذلك، قد جمد الحاكم الراتب الرمزي الذي يتقاضاه الشاعر الأسود الداهية.

ومنذ تفجير حملة الغضب على أثر قراءة القصيدة من أيلول 2002، لا تزال رابطة الدفاع اليهودية والصحف اليهودية الشعبية مثل «جويش وورلد ريفيو» تنعت رائد الشعر الأسود الحداثي «شاعر نيوجيرسي المتوّج المتعصب».

وبعد عشرة أشهر منذ قراءة قصيدته، لا يزال أميري بركة يصر على أنه لن يستقيل وأنه يقاتل من أجل حقوق الشعراء والتعديل الأول (قانون حماية حرية التعبير من الدستور الأميركي) وقد بلغت مشروعات القوانين المطروحة على المجلس التشريعي للولاية لطرد بركة، عشرة قوانين.

وفي مقابلة أجراها روبرت فليمنغ مع الشاعر لمجلة «قضايا سوداء» من مسكنه في نيوارك، بيشيرس، بعد عدة أحداث أدبية نظمها شعراء «داون تاون» من مانهاتن لمناصرة بركة، سارع الشاعر إلى تأكيد عدم اكتراثه بالضجة المثارة حوله: «لقد أدهشني الهجوم الذي تقوده «رابطة مناهضة التشهير اليهودية». إن رؤيتهم الضيقة تستبعد كل القصيدة لتؤكد على أربعة أبيات، واعتبار مجرد ذكر إسرائيل معاداة للسامية جعلني أدرك أنهم يحمون الإرهاب الإسرائيلي، ويعلنون ممارسيه «على أنهم الضحايا» ويقدمون الفلسطينيين «كإرهابيين».

ويبدو أن بركة على ثقة من أن لا أحد يستطيع أن ينحيه من منصبه ولا حتى المجلس التشريعي للولاية: «إن المجلس التشريعي لنيوجيرسي لا يملك إنهاء ولايتي أو منع صرف مكافأتي. وهذا هو سبب الضجيج الذي يحدثونه. لقد كانت نتيجة آخر عملية تصويت، مقابل صفر و 20 ممتنعاً عن التصويت لإقصائي، لكن لا تشريع يمكن أن يقصيني. وهناك عشرة مشروعات قوانين أخرى في مجلس شيوخ الولاية تتعلق بالقصيدة لكن لا يرجح أن يجاز أي منها».

وكما اعتاد بركة أن يثير الخلاف حول مواقفه السياسية والاجتماعية، ومن بينها، على سبيل المثال، تأسيس حركة أدبية سوداء «حركة القوة السوداء الجديدة» في أعقاب اغتيال مالكولم إكس، بإصدار كتب مثل «نظام جحيم دانتي» (1965) و «حكايات» (1967) و «النار السوداء» (1968)، ويضم مجموعة هامة من الكتابة السوداء، إعداد وتحرير بركة ولاري نيل. وخلال الستينات غير اسمه من لو روا جونز إلى أميري بركة، وعلى طريقة الحرباء، تنكر بركة لبراعته الأسلوبية كشاعر، وكاتب مقال وروائي. وانتقل من نهج شكلاني متأثر بحركة «البيت» التي كان أحد روادها باستخدام صور

صادمة والتلاعب بالألفاظ إلى شكل نثري سهل الفهم، ما أدى إلى زيادة شعبيته. لكن بعض القراء انتقدوا هذا التحول كمثال لتدهور سريع لساحر كلمات.

ويقول بركة «لقد تغيرت مع مرور السنوات لأنني جاهدت لكي أفهم وأغير العالم. والناس الذين يشككون في التغير لا يملكون حقيقة أن يفعلوا ذلك. كيف تكون من العالم ولا تتغير أفكارك مع مرور السنوات؟» ويضيف «إن الذين يشككون في التغير كسالى ثقافياً، أو أنهم يعانون سلبية الامتلاء المفرط أو أنهم راضون بشكل خفي».

وعلى الرغم من أن معظم كتبه قد نفدت طبعاتها، يقول بركة إن عدم إعادة طبع هذه الكتب يرجع إلى اندماج دور النشر الأميركية والتأكيد على الربح وما يسميه «الغطاءات (عندما يستنسخ كاتب أو فنان أبيض عمل كاتب أو فنان أسود ويصبح أكثر شهرة) التي تغطي عملاً مشروعاً بأعمال مقلدة مثيرة». ويؤكد أن الأدب الأسود قد تعرض للسطو عن طريق «غطاءات» متقنة البناء كما يحدث ذلك في الموسيقى السوداء. ومنذ نشر تقرير دون آند براستريت عن وجود أضخم طفرة متزايدة من حجم مشتري الكتب بين الأميركيين السود بالقياس إلى القراء الأميركيين عامة، «غطت الجثث، كما حدث في موسيقى الراب، وهمشت وحجبت أكثر الفنانين السود الشبان جدية والتزاماً بواسطة بعض الزنوج الذين يسعون إلى تعظيم الذات والتخطي. أو إرضاء السيد». ويقول بركة «إن عملهم سطحي وتافه، ويرتبط بالنزعة التجارية الضحلة للتيار السائد. إن ما يسمى بالتيار السائد «يغطي» أكثر فنانيه أهمية وعمقاً».

ويضيف «إن حركة الفنون السوداء لا تغطى وتسوء سمعتها قط بواسطة الزنوج القواد والناس البيض، ولكن المؤسسات الأكاديمية

والتجارية قد رفعت من شأن كتاب وفنانين زنوجاً من بين الكتاب المأجورين السطحيين أو الرجعيين الذين يعلنون أنفسهم».

ويؤكد الشاعر والناشط السياسي أن النموذج التاريخي للتقليد الديموقراطي الثوري للأدب الأفرو ـ أميركي يهاجم ويعمى بقدر الإمكان «فأعمال الكتاب البارزين من أمثال فريدريك دوغلاس، ودوبوا، ومارغريت ووكر ولاري نيل، على سبيل المثال، مخفاة تقريباً. وبينما يذكر لانجستون هيوز أكثر وأكثر، لم يقترب أحد من أعماله الروائية والدرامية العظيمة. ويتساءل أين هي الأعمال المسرحية العظيمة لهانز بري، وبولدوين، وكالدويل، وبولينز، وورد». ويضيف «ولكننا نجد مسرحيات تمجد أجبن قطاعات المجتمع الأسود، قطاع البورجوازية الصغيرة الزنجية، بل إن البعض يقدم الفنانين السود بصور كاريكاتورية أو يعارض التحرير الأفرو ـ أميركي نفسه».

وبركة الذي يشارك دائماً شعراء الهيب ـ هوب الأصغر سناً من القراءات الشعرية الأدائية (سلام)، يشعر بتفاؤل أكثر بالنسبة لحالة الشعر الراهنة «إن الشعر حي وفي حالة جيدة. والشعر الأفرو ـ أميركي و «اللاتينو» قد بلغ نقطة امتياز فني وانتفاضة سياسية. وهناك المئات من الشعراء السود و «اللاتينو» الشبان، وبعض الشعراء البيض أيضاً، يكتبون قصائد ثورة ومقاومة. وليس هناك نوع من أنواع الفن في الولايات المتحدة، معاد للامبريالية، ومعاد للعنصرية وراديكالي وثوري عن وعي بقدر أعمال هؤلاء الشعراء. ورغم عدم توازن البرنامج التليفزيوني «راسل سايمونز يقدم شفر ديف»، فلا يزال يقدم لمحة مثيرة من الغالب عن الشعراء الجدد والشبان، وغير الشبان تماماً الذين يعتبرون الآن هامين أو الذين سوف يصبحون هامين للغاية وأصواتاً مؤثرة».

وبينما ينتقد شعراء آخرون من جيله «الراپ» كشكل فن، يؤكد بركة أن «الراپ»، من منظور حركة الفنون السوداء يظل هاماً، «لقد بدأ كشكل شعبي وملهم ومجدد بمضمون راديكالي وجياش العاطفة. وقد أثار إعجابي في مرحلة مبكرة جداً لأني كنت أعرف أنه النوع الشعري الذي تنبأت به «حركة الفنون السوداء»، فهو أولاً: فن أسود، ثانياً: فن موجه للجماهير، ثالثاً فن ثوري».

«ولكن هذه الموسيقى الجديدة قد حوربت، وغطيت من طريق الاندماج والادعاءات العنصرية بالمشاركة من التأهيل والتفوق المطلق من جانب آخرين».

وبينما حاول حاكم ولاية نيوجيرسي خلعه بالتعاون مع المجلس التشريعي للولاية من دون نجاح، ورغم تجميد مكافأته الشهرية المتواضعة منذ سبتمبر 2002، لا يزال أميري بركة يواصل سلسلة قراءاته الشعرية الشهرية بصفته الشاعر المتوج، ويواصل عمله كمنسق منذ العام 1988 سنة لمحترف فنون تشارك زوجته ـ أمينة ـ في إدارته.

لقد قال جيمس بولدوين ذات يوم «يستطيع كاتب أن يعيش لفترة طويلة على كتاب واحد وشهرة». ولا تنطبق هذه الملاحظة على حالة أميري بركة فهو من مواليد عام 1934، وبينما يواجه الإصابة بمرض السكر، لا يزال يشارك في القراءات الشعرية الشبابية من «داون تاون مانهاتن»، ويقدم حفلات موسيقية ـ شعرية مع زوجته، ويمارس هوايته الجديدة: الفن التشكيلي، وقد أقام معرضين. وقد أعد للطبع مجموعة من القصص القصيرة، ومجموعتين من الدراسات، وكتاباً يضم مسرحيات جيدة والأعمال المسرحية الكاملة إلى جانب ثلاث روايات تنتظر الطبع. كما أنه يحضر لرفع دعوى قضائية ضد ناشره القديم، ويليام مورو، لترك كثير من كتبه تنفد من دون إصدار طبعات جديدة لها.

أرملة لوثر كينغ ضد الحرب في العراق(*)

تحدثت أرملة الزعيم الأميركي الراحل مارتن لوثر كينغ ضد احتمال قيادة الولايات المتحدة الحرب ضد العراق.

وقالت كوريتا سكوت كينغ في إحياء لدعوة زوجها المدافع عن الحقوق المدنية بعدم اللجوء إلى العنف «أعتقد أن مزيداً من الناس يتذكرون لوثر كينغ الآن ويشتاقون لسماع صوته من جراء المخاوف بسبب الإرهاب والاستعداد للحرب، هناك طرق بديلة لتفادي الحرب مثل التفاوض».

وقالت «عندما تلجأ للحرب كوسيلة لتسوية النزاعات فإنك تتسبب في مزيد من الحروب. وعلى المدى البعيد فإن الوسيلة الوحيدة لإحلال السلام هي اللجوء لوسائل سلمية».

وكان لوثر كينغ مسانداً للمقاومة السلمية للفصل العنصري وشارك في تأسيس مؤتمر القيادة المسيحية الجنوبية كقاعدة لتنظيم مسيرات غير عنيفة ومظاهرات مدافعة عن حقوق المدنية للسود الأميركيين، وقتل لوثر كينغ في نيسان عام 1968.

وقالت كوريتا سكوت كينغ أن أحد الأسباب التي أدت إلى اغتيال

(*) المرجع: «المستقبل» الخميس 16 ك$_2$ 2003، ص 21. ووكالة (رويترز).

زوجها معارضته للحرب الڤيتنامية. وأضافت أن لوثر كينغ كان يخشى إن اتخذ موقفاً ضد الحرب الڤيتنامية أن يتوقف التمويل لجماعته.

ومضت تقول إنه بعد أن حصل كينغ على جائزة نوبل للسلام عام 1964 شعر أنه يتحتم عليه العمل من أجل إحلال السلام الدولي.

واستطردت: لقد ثبت أنه محق، بعد كلمته المناهضة للحرب الڤيتنامية عام 1967 غيرت الأمة بأكملها خلال عام موقفها من ڤيتنام وأدرك مارتن أن كلماته الشجاعة لم تذهب سدى».

السود في الوظائف الرسمية(*)

* **لم يُعيّن دبلوماسي أسود قبل عام 1869 (أي بعد 85 عاماً من الاستقلال) وهو «إيزنر بات» الذي عين وزيراً مقيماً في هايتي.**

* **كما أن أول سناتور أسود هو «حيرام ريفلز» انتخب في عام 1870.**

* **وبعد ذلك بعشرين عاماً (1890) انتخب حاكم أسود لولاية جورجيا هو «جيفرسون لونغ».**

(*) المرجع: «نون باء» في مقال نشر بجريدة «المحرر العربي». العدد (369). من 1 ـ 7 ت2 2002. ص 16 ـ 17.

القس جاكسون في تظاهرة لندن: معكم لنسكت طبول الحرب وبوش وبلير يمثّلان 6% من العالم فقط(*)

شارك داعية حقوق الإنسان القس الأميركي جيسي جاكسون في التظاهرة التي شهدتها لندن في الخامس عشر من شباط 2003، والتي ضمت زهاء مليوني بريطاني أعلنوا رفضهم الحرب الأميركية ـ البريطانية على العراق، ونظراً لأهمية ما أعلنه القس جاكسون في كلمته بالمتظاهرين البريطانيين، وبسبب تجاهل وسائل الإعلام الغربية لما أعلنه جاكسون بفعل السيطرة الصهيونية على أغلب هذه الوسائل،

ننشر في ما يأتي النص الكامل لهذا الخطاب الهام.

أيها الإخوة والأخوات، أنقل إليكم تحيات من حركة السلام في أميركا. نحن موجودون، ونزداد قوة، ولا نزال نحاول أن نوقف هذه الحرب. أشكركم لوجودكم هنا اليوم، وأنه لفرح لي أن أشترك في هذه المسيرة معكم. عندما نسير سوية فإننا ننتصر.

لقد غيّرنا التاريخ في السابق. لقد سرت معكم في منتصف

(*) المرجع: «اللواء». الأربعاء 5 آذار 2003. ص 17.

الثمانينيات في ساحة «ترافالكير» في تجمّعات وحشود في لندن ضد التمييز العنصري، مع الأسقف «هادلستون» و «بيرني غرانت». وساعدنا سوية على تحرير مانديلا، وتغيير جنوب إفريقيا والتمييز العنصري.

وسرت معكم في لندن لنوقف الأسلحة النووية. وها قد حان الوقت لتكرار نفس الشيء فشكراً لكم لأنكم وضعتم أحباءكم في طريق آلة الحرب، وخاصة إلى كل الشبيبة المتواجدين هنا اليوم. شكراً لكم لأنكم ساعدتم على النهوض بحركة جديدة للسلام على جانبي المحيط الأطلسي. عندما ينهض الشبيبة، ينهض العالم.

لا يزال بمقدورنا أن نوقف هذه الحرب. إن الطقس بارد في الخارج، لكنكم بعثتم الدفء في قلبي. إنه طقس الشتاء الآن، لكنكم سوية صنعتم «دفئاً شديداً في الشارع». ويمكن لجورج بوش أن يشعر بهذا الدفء. وأنا أعرف أن طوني بلير يستطيع أن يشعر به. وفي جميع أرجاء العالم من بعد ظهر هذا اليوم، تنبعث حياة جديدة في الناس. منذ عدة سنوات كان لي الشرف أن أخدم مع العاملين مع الدكتور مارتن لوثر كينغ. وكنت معه في عيد ميلاده الأخير. دعوني أخبركم كيف قضى ذلك اليوم الذي كان فيه عيد ميلاده التاسع والثلاثين في عام 1968.

اجتمعنا سوية لنضع خطط ثلاث نقاط في البرنامج:

1 ـ أن نجمع تحالفاً متعدد الجنسيات وملتزماً بالعمل الجماهيري، لنحارب الفقر.

2 ـ أن نضمن تنفيذ قوانين الحقوق المدنية، وإجراء العدالة.

3 ـ أن نوقف الحرب في ڤيتنام، باختيار الاحتواء

والمفاوضات، بدلاً من القصف المستمر والمواجهات، أي لنعطي السلام فرصة.

اخترنا العقول بدلاً من الصواريخ: لا يوجد هناك خطر أكثر من الصواريخ الموجهة التي تديرها قيادة غير موجهة. وقد أكملنا تلك الحلقة.

لماذا نحن هنا اليوم؟ لأننا نختار التعايش المشترك بدلاً من التدمير المشترك، ولأننا نختار العقول بدلاً من القنابل والقوة الوحشية، ولنوقف دائرة الإرهاب قبل أن تنتشر، ولنوقف الحرب قبل أن تبدأ.

وهنا نحن اليوم نناشد العالم: اختاروا الحياة بدلاً من الموت. اختاروا الرجاء والشفاء بدلاً من إلحاق الضرر والعداء. اختاروا المصالحة وليس التهديد.

لقد رسمنا خطاً في الرمال، ولكن ليس كافياً أن ننحاز إلى أحد الجانبين بل علينا أن نصالح الجانبين.

في هذه الحرب التي لا يزال من الممكن تجنبها، قد لا يكون هناك منتصرون. الجنود الشباب والمدنيون سيقتلون ويقتلون. ولذلك، لا يوجد هناك مستقبل أو نمو أو ازدهار في هذه المعادلة.

عندما تسعى القوى العالمية في العالم لإحراز النصر بدلاً من المصالحة، فإنها تتجاهل العواقب والمضاعفات العالمية، كما أنها تتجاهل المأساة التي ستلحقها بالشعب العراقي القاصر عن حماية نفسه في وطنه.

إن ضرب العراق يشعل الحرب ولكنه لا يوقف الإرهاب أو

يقضي عليه. كما أن إطلاق التهديدات بلغة البلاغة الآتية من «الغرب الموحش» إنما يشعل نيران الخوف والكراهية والعنف وردود الفعل. إن هذه الحرب هي حرب نفسية سبق أن خلقت توتراً منذرا بالشر حول العالم.

وفي كبريائنا الذي يدفعنا للحرب، فإننا نقلّل من أهمية المخاطر، والثمن الذي يجب أن ندفعه، والآلام. إن الاندفاع نحو الحرب بدون أن نحسب بشكل كامل المخاطر الأخلاقية والجسدية والمالية هو نوع من الكبرياء. والكبرياء يسبق الشروط.

ومع أن الحرف قد تكون قصيرة إلا أن دائرة العنف سوف تستمر. ونحن كحركة عالمية للسلام، ينبغي أن لا نهرع نحو السلام غير المشروط بدون العدالة. فنحن نعرف القانون:

إنَّه بدون عدالة لا يوجد سلام. والسلام بدون الأمن والمساءلة سلام ساذج، لأنه مجرد عبارة عن غياب النزاع وليس إحلال العدالة. لا يستطيع أحد أن يفتش عن النصر في هذا النزاع، لأن هناك مستوى آخر، يجب أن لا ننحاز لأحد الجانبين، ولكن علينا أن نختار المصالحة، ونختار التعايش المشترك بدلاً من التدمير المشترك. ها نحن في هذه المسيرة من أجل الشفاء. نشترك فيها لنحارب شياطين الروح الحربية، والتمييز العنصري، والتعصب على أساس الذكر أو الأنثى، ومعاداة السامية، وهضم حقوق العرب، والطمع. إننا نسير في هذه المسيرة لكي نسكت طبول الحرب. أناشد اليوم فرنسا وألمانيا وبلجيكا والبرازيل وروسيا والصين أن تبقي الرجاء حياً. لا تستسلموا لأن جزءاً كبيراً من أميركا وغالبية العالم معكم، وأعدادنا تزداد كل يوم.

وأناشد صدام حسين وأطلب منه أن يتعاون بشكل كامل مع مفتشي الأمم المتحدة الآن. إن هذه الأسلحة أيها الرئيس حسين لن تحميك، وإنما ستقود إلى تدمير شعبك. كما أن السرية لن تحميك، لكن الشفافية ستنقذ بلدك الآن. ساعد المفتشين على القيام بأعمالهم. لا يزال بإمكانك أن تنقذ نساء وأطفال بغداد. وتستطيع أن تنقذ أمتك. غير أن الوقت أصبح قصيراً.

وأناشد رئيس الوزراء طوني بلير وأقول له: «رجاءً تراجع عن هذه الحرب. إن رئيس الأساقفة، والبابا، وديسموند تواتو، ونلسون مانديلا، يقولون جميعهم أن هذه الحرب باطلة وأنها لا أخلاقية. بيد أن هذه الحرب قد تكون ميراثك. هل هذا ما تريده؟

يا سيادة رئيس الوزراء بلير، إذا قلت «لا» فإن الصواريخ قد لا تطلق، وبدون دعمك ستبقى القنابل الذكية عديمة. وأنا أناشدك بأن تطلب من الأمم المتحدة وكوفي عنان بأن نشكل ونمكن هيئة أشخاص رفيعي المستوى ربما تحت قيادة نلسون مانديلا لتذهب إلى بغداد. دعنا نتحدث إلى صدام حسين وجهاً لوجه. منذ 12 عاماً فعلت أنا هذا الشيء متسلحاً فقط بإيماني. ذهبت وتحدثت مع الرئيس صدام حسين وجلبت معي الرهائن الأميركيين والبريطانيين والكنديين من بغداد. تستطيع هذه الهيئة المؤلفة من أفراد مرموقين أن تجنبنا الحرب، بينما يبعدنا المفتشون وربما صانعو السلام التابعون للأمم المتحدة عن شفير الحرب. وأنت تستطيع المساهمة بتحقيق هذا لأنه لديك المواهب والتأثير على قادة أميركا. وأنت يا طوني بلير تستطيع أن تنتزع السلام من بين براثن الحرب. وأناشد الرئيس بوش وأقول له أن يسوع غيّر قلبك، وأن يسوع رئيس السلام خلّصك. إذن ماذا سيفعل يسوع الآن؟

إن أحد الدروس الذي علمني إياه الدكتور كينغ، وعلّمنا إياه غاندي هو أن أوقات الأزمة يمكن أن تكون أيضاً فرصاً أمامنا. كما أن مجالات الألم يمكن أن تصبح فرصاً للتغيير. وهذا هو السبب الذي يدفعني للسفر إلى أماكن الألم. أنا أؤمن أن السلام يستحق المجازفة، ولهذا أحاول أن أبذل جهدي عندما يقول الآخرون أنه لا يوجد أي رجاء. في أوقات الأزمات ذهبت إلى سوريا. حاولت وحرّرت طياراً أسقطت طائرته. وذهبت إلى كوبا واصطحبت كاسترو إلى الكنيسة، وتحدثنا فكانت النتيجة تحرير السجناء، وذهبت إلى العراق عندما كانت القنابل توشك أن تهبط، وأقنعت صدام حسين بالموافقة على إطلاق سراح رهائن في الطائرة. وذهبت إلى صربيا وأقنعت ميلوزو فيتش بإطلاق سراح ثلاثة جنود معتقلين. حاولت، فاستطاعوا الذهاب إلى بيوتهم. إن مجالات الألم هي غالباً فرص للتغيير. إن خراطيم إطفاء النار وكلاب الشرطة الشرسة التي استخدمها شريف بيرمنجهام «بول كونور» أدت إلى قانون الحقوق المدنية لعام 1964. كما أن ضرب المدافعين عن الحقوق المدنية الذين ساروا في مسيرة سيلما في ولاية ألاباما بينما كانوا يحاولون عبور جسر لتحدي الحاكم «جورج والاست» أدت مباشرة إلى قانون حقوق التصويت لعام 1965. وعندما سار غاندي إلى البحر مع جموع المحتقرين والمشردين، أصبح الاستعمار فجأة شراً منبوذاً. وعندما ربط أنصار منح حق التصويت أنفسهم بسلاسل إلى سور القصر، تهاوت التفرقة المبنية على الجنس، وحصلت النساء على حق التصويت. وعندما اعتصم العمّال في مصانعهم، خافت وارتجفت الجمعيات والشركات، وولدت النقابات التجارية.

أدرك الدكتور كينغ وغاندي أنه بالإمكان إعادة تعريف السياسة،

وأن المجتمع يمكن أن ينقلب رأساً على عقب ومن الداخل إلى الخارج، إذا عمل الناس ـ الفقراء والعمال وخاصة الشبيبة ـ نيابة عن المركز الأخلاقي.

في بعض الأوقات يتوقف التاريخ عند مفترق الطرق. وفي بعض الأحيان تستطيع قوة النفوس أن تتغلب على الجيوش، وتطيح بالمستبدين، وتهدم الجدران. وفي بعض الأوقات، يصبح سجين جزيرة «روبنز» نبياً لكل العالم، ويتحطّم التمييز العنصري. قضى نلسون منديلا 27 عاماً في السجن، ولكنه ثابر بثبات مدة كافية لتحرير سجانه. نستطيع أن نغير التاريخ سوية. وفي بعض الأحيان، إذا اتّحد الناس فلن يهزموا أبداً. وهذا هو الوقت المناسب لهذا الاتحاد.

سألني رجال الصحافة لماذا أنا في لندن. والسؤال الأفضل هو لماذا نحن جميعاً متواجدون هنا اليوم؟ لأن عالماً آخر ممكن وجوده. ألقيت خطاباً في حشود في الولايات المتحدة في تشرين الأول/ أكتوبر 2002 وفي كانون الثاني/ يناير 2003 في واشنطن بشأن مناهضة الحرب. ودعيت لأتحدث في نيويورك حيث سيعقد اجتماع جماهيري كبير اليوم. ولكنني قررت أن لندن هي الحلقة الحاسمة في سلسلة الأحداث التي تؤدي إلى الحرب.

إن دعم طوني بلير للحرب على العراق، ومكانة إنكلترا في التحالف للحرب ـ هو حرفياً الفرق بين دعم الغالبة ومعارضة الغالبية في الولايات المتحدة الأميركية. فحيثما تتجه إنكلترا، يتّجه السلام. وحيث يتجه شعب إنكلترا، ينبغي على رئيس الوزراء أن يتجه، لأن هذه هي الديمقراطية. أثناء الحرب الباردة كنا نقول إنه لا يسمح للناس في أوروبا الشرقية أن يتحدثوا ويعلنوا رأيهم علانية. ولكن

الناس اليوم في ديمقراطيتنا الغربية يتحدثون ويرفعون أصواتهم بأقوالهم. وعندما تنطلق الجماهير وملايين الناس في مسيرات في أوروبا والولايات المتحدة، يصبح السؤال الذي يطرح نفسه هل سيصغي قادتهم؟ الشعب يتكلّم، فهل سيتم الاستماع له؟

وعندما ينهض حزب العمال للاحتجاج، وتبدأ النقابات بالتحدث عن الإضراب العام، وتعكس أصوات الانتخابات المعارضة الكبيرة الكاسحة، وينطلق الناس في مسيرات في شوارع لندن ونيويورك وسان فرانسيسكو وأمستردام وبانكوك وروما في جميع أرجاء العالم، فإننا نعطي السلام فرصة ثانية. نستطيع سويّة أن نوقف هذه الحرب.

لماذا نحن هنا؟ لأننا نستطيع أن نعمل أفضل مما تفعله الصواريخ الموجّهة والأخلاقيات غير الموجّهة. ونستطيع أن نقوم بعمل أفضل من السماح لـ 365000 طفل أن يموتوا يومياً مما تدعوه الأمم المتحدة «شروط المجاعة».

نستطيع أن نعمل أفضل من عدم المساواة المتزايدة في العالم، حيث يستهلك خمس سكان العالم من أغنى الأغنياء 86% من كل البضائع والخدمات، وحيث لا يتبقّى لخمس سكان العالم من أفقر الفقراء إلا أكثر من واحد بالمائة بقليل. وأشار تقرير التنمية البشرية للأمم المتحدة لعام 1999 أن «فجوة المدخول بين خمس سكان العالم الذين يعيشون في أغنى البلدان وخمس سكان العالم الذين يعيشون في أفقر البلدان قد تضاعفت بين عام 1960 وعام 1990 من 30 إلى واحد إلى 60 إلى واحد. وفي عام 1998 اتسعت هذه الفجوة بشكل مثير للاستغراب لتصل إلى 78 إلى واحد.

ونستطيع أن نعمل أفضل من العالم الذي أكثر من نصف أكبر اقتصادياته تتكون من مؤسسات وشركات بدلاً من دول. وبإمكاننا أن نعمل أفضل من تجاهل 3 بلايين شخص حول العالم الذين يكافحون ليستطيعوا العيش بمدخول أقل من دولارين يومياً.

إن تراث هذه الحرب سيكون: الانقسام، الخطر، التحوّل إلى طريق آخر. وربّما الإخلال بالتوازن. غير أنه ليس من الضروري أن نختار هذه العبارات الأربع. وبدلاً عنها نستطيع أن نختار: الحوار، والتحكيم، توصيل المعونات والاستثمار، والثقة في الديمقراطية. لماذا نحن هنا اليوم؟ لإعادة بناء عالمنا، ولننفق مبالغ أقل على أسلحة الحرب، ومبالغ أكثر على إنتاج الطعام والهواء النقي والمياه ومعالجة الأمراض ومحاربة الإيدز وبناء المدارس.

لماذا أنا هنا اليوم؟ لأنني أحب وطني وأحب العدالة أيضاً. أميركا أمة عظيمة، ولدت في خطيئة العبودية الأصلية، وتمّ فداؤها من قبل الحرب الأهلية، وإعادة البناء، وحركة الحقوق المدنية. غير أن أميركا هي 5% من سكان العالم وتستهلك 25% من الموارد. أميركا دولة عظيمة، وشعبها أسخياء وأغنياء. ولذلك من واجبنا أن نستخدم قوّتنا بحكمة في العالم.

بيد أن هناك أشخاصاً يريدون أن يقلّلوا من شأن ديمقراطيتنا ويوسّعوا أمبراطوريتنا. إن أقوى الأصوات التي ترتفع مع الحرب هي لرجال لم يذوقوا الحرب من قبل. ومع هذا فإنهم يتفوهون بعبارات مثل «الدمار المتناظر» و «الصدمة الوقائية» و «الصدمة والحيرة» ومهما كان معنى هذه العبارات فإنها لا تعبّر عن العدالة. إنهم يتحدثون عن 800 صاروخ وقنبلة ذكية ستضرب بغداد في 48 ساعة. إنها ضربة وقائية تحدث «الصدمة والحيرة» على إحدى دول العالم التي أسّست

الحضارة. ويعرفون أن مئات الألوف من المدنيين سيقتلون، غالبيتهم من النساء والأطفال، بالإضافة إلى الأمراض والجوع المروّعة التي لا تتناسب مع أمة عظيمة مثل الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى. وهذا الكابوس لم يكن حلم الدكتور كينغ ورؤيا غاندي.

وتذكروا أنه عندما يجتمع الرئيس بوش ورئيس الوزراء بلير ليتحدثا عن العراق، فإن اجتماعهما اجتماع الأقلية، إنّما يمثلان 6% من العالم، أي شخص واحد من كل 16 شخصاً.

يعيش نصف العالم في آسيا ونصف آسيا في الصين. ويعيش (1/8) ثمن من سكان العالم في إفريقيا، وربعهم في نيجيريا. والولايات المتحدة لا تشكل حتى الأغلبية في نصف الكرة الموجودة فيه. إن غالبية سكان العالم هم من السود والصفر وذوي اللون البنّي والشبيبة، والإناث، وغير المسيحيين، ولا يتحدثون اللغة الإنكليزية.

يجب علينا أن نتعلّم أن نعيش سويّة. الانفرادية طريق مسدود غير نفّاذ. والولايات المتحدة وبريطانيا لن تزدهرا طويلاً بتحالفهما المكوّن من عضوين فقط. ولكن التعددية ضرورة قويّة، بوجود التنمية لا الدمار. ويجب أن يتم توزيع ثروة العالم بطريقة أكثر إنصافاً. لا يزال بالإمكان وجود عالم أفضل.

أن نستمر في العمل والكفاح والخروج في مسيرات سويّة. إننا نفعل شيئاً جديداً هنا، وهو أننا نعمل على إيقاف الحرب قبل أن تبدأ. إننا نحاول أن نبني حركة سلام جديّة. ونحاول أن ننقذ التعددية والأمم المتحدة. ونحاول أن نبطىء من حركة الأقوياء لكي نحمي الأطفال الأبرياء. ونسعى لنحمي أنفسنا من فخ الأمبراطورية، ولنفدي رجاء الديمقراطية.

لا تنسوا ما علمناه إياه الدكتور كينغ: «إن قوس التاريخ طويل، ولكنّه ينحني باتجاه العدالة». لا تستسلموا ولا تسلَموا. سيمتحن إيمانكم وروحكم. وستعارضنا آلة الحرب معارضة شديدة، ولكن الإيمان يستطيع أن ينقل الجبال.

الإيمان ساعد موسى على مغادرة مصر عبر البحر الميت. فتابعوا السير في هذه المسيرة.

والإيمان ساعد يسوع على هدم الجدران العالية. فتابعوا السير في هذه المسيرة.

والإيمان ساعد يسوع على تحويل الطلب إلى القيامة. فتابعوا السير في هذه المسيرة.

والإيمان ساعد مانديلا ليعيش فترة كافية لتحرير سجّانه، فتابعوا السير في هذه المسيرة.

الأمر ليس سهلاً، ولكن لا يوجد أي شيء مستحيل على الله.

إنه الظلام الآن، ولكن النهار سيطلع، وأنتم نور العالم.

إنَّ الحالة مخيفة، لكن الأمل حيّ في «هايد بارك» و «سنترال بارك»، وفي عالمنا.

في يوم من الأيام ستُطبع السيوف سككاً.

وفي يوم من الأيام سوف تستلقي الأسود بجانب الحملان.

وفي يوم من الأيام ستنساب العدالة كالمياه، والبرّ مثل نهر عظيم.

أبقوا الرجاء حيّاً! أعطوا فرصة للسلام.

أبقوا الرجاء حيّاً! أعطوا السلام فرصة.

المراجع

(1) الشيخ جعفر حسن عتريسي «أمركة الأمم وصدام الحضارات». دار الهادي. بيروت. الطبعة الأولى 2002.

(2) عبد القادر البريفكاني «المحرّرون أعظم قادة القرن العشرين». مطابع الأهرام. القاهرة. الطبعة الأولى 2001.

(3) د. عبد الملك عودة «ثورة الزنوج في أميركا». دار الهلال. مصر 1965.

(4) كارلهاينش دشنر «المولوخ: إله الشرّ/تاريخ الولايات المتحدة». ترجمة محمد جديد. مراجعة وإعداد زياد منى. دار قدمس. دمشق. الطبعة الأولى 2003.

(5) كتاب «مارتن لوثر كينغ». حركة حقوق الناس. ترجمة سميّة عبّود. مراجعة وليد صليبي. بيروت. الطبعة الأولى 1999.

(6) «موسوعة السياسة». الجزء الثالث. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الأولى 1983.

(7) ممدوح الزوبي «هل ستسقط أميركا؟» (كما سقط الاتحاد السوڤياتي). دار الرشيد ـ دمشق. ومؤسسة الإيمان ـ بيروت. 1996.

(8) د. نبيل خليل خليل «أميركا بين الهنود والعرب». دار الفارابي. بيروت. الطبعة الأولى 2003.

(9) كتاب «الولايات المتحدة الأميركية من الخيمة إلى الامبراطورية». إعداد ديب علي حسن. مراجعة وتدقيق اسماعيل الكردي. دار الأوائل. دمشق. الطبعة الأولى 2002.

(10) الصحف والدوريات: الشاهد ـ المستقبل ـ اللواء ـ المحرر العربي...

بطاقة المؤلف



- ولد د. صالح زهر الدين في قرية كفرفاقود/ الشوف 1951. وتلقى علومه الابتدائية والثانوية في المنطقة.
- حاصل على إجازة في التاريخ من الجامعة اللبنانية عام 1979.
- تابع دراساته العليا في فرنسا، وبالتحديد في جامعة باريس السابعة (Paris 7) وحصل منها على شهادات (AESA) و(DEA) ودكتوراه في التاريخ والحضارات.
- كما حصل على دكتوراه في العلوم التاريخية من معهد الاستشراق في أكاديمية العلوم القومية في أرمينيا عام 1994، وكان أول مؤرّخ عربي يحصل على هذه الشهادة منذ تأسيس الأكاديمية حتى اليوم.
- عضو في اتحاد الكتاب اللبنانيين.
- عضو لجنة وضع منهاج التاريخ الموحّد في لبنان.
- تسلم مسؤوليات عديدة في مؤسسات ثقافية وتوثيقية وإعلامية في لبنان.
- شارك في مؤتمرات ومحاضرات ثقافية وفكرية في لبنان والخارج.
- حائز على «وسام الاستحقاق الوطني» من فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية العماد إميل لحود.

من مؤلفاته:

1 ـ موسوعة أسرار من التاريخ (جزءان).

2 ـ موسوعة معارك العرب (6 أجزاء).

3 ـ المنطقة العربية في ملف المخابرات الصهيونية.

4 ـ الأرمن شعب وقضية.

5 ـ تاريخ المسلمين الموحدين (الدروز).

6 ـ الإسلام والاستشراق.

7 ـ الخلفية التاريخية لمحاكمة روجيه غارودي.

8 ـ خلفيات الحصار الأميركي ـ البريطاني للعراق.

9 ـ الأمير شكيب أرسلان وجهاده ضد الاستعمار والصهيونية.

10 ـ مشروع «إسرائيل الكبرى» بين الديموغرافيا والنفط والمياه.

11 ـ اليهود في تركيا.

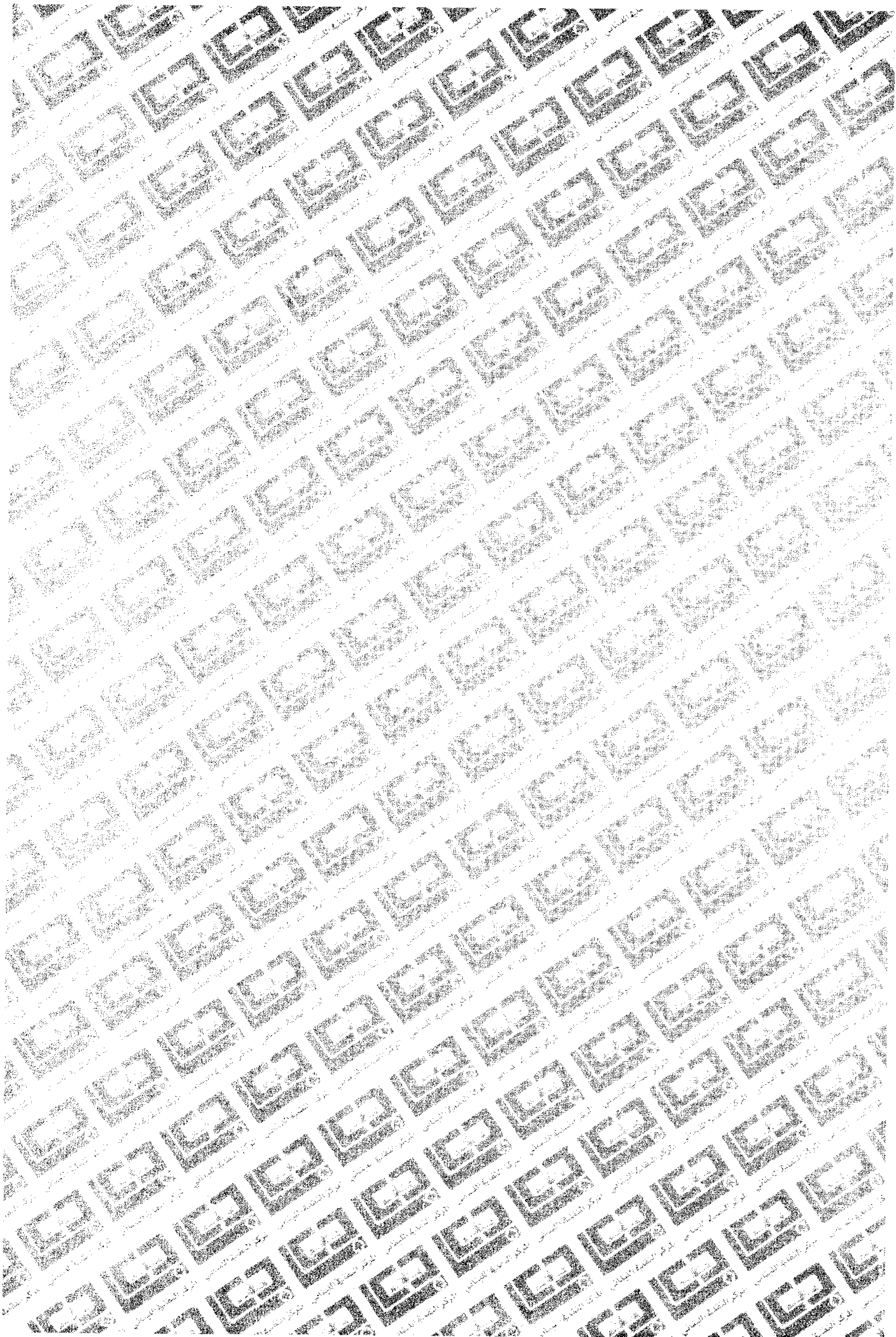
12 ـ مخاطر الدور التركي في المنطقة العربية.

13 ـ سياسة الحكومة العثمانية في أرمينيا وموقف القوى الدولية منها.

14 ـ موسوعة «الأمن والاستخبارات في العالم» (12 جزءاً). . .

الفهرس





موسوعة الامبراطورية الاميركية اول واشمل عمل موسوعي من نوعه باللغة العربية يتناول تاريخ الولايات المتحدة منذ اكتشافها حتى اليوم.

تتضمن الموسوعة المواضيع التالية: نشوء الولايات المتحدة ابادة الهنود الحمر قضية الزنوج العرب والمسلمون واليهود الاميركيون المسيحيون المتصهينون المحافظون الجدد الحرب الأميركية على العراق في بعديها النفطي والحضاري اميركا والمنظمات الدولية الموسسات والجريمة المنظمة وابرز الشخصيات.

كل ذلك، وفق منهج توثيقي يشتمل [illegible] نظر مختلفة متعددة الاراء والتوجهات [illegible] فيما بينها احيانا، مما يشكل زادا ثقافيا [illegible] لكل طالب علم وثقافة ومعرفة.

